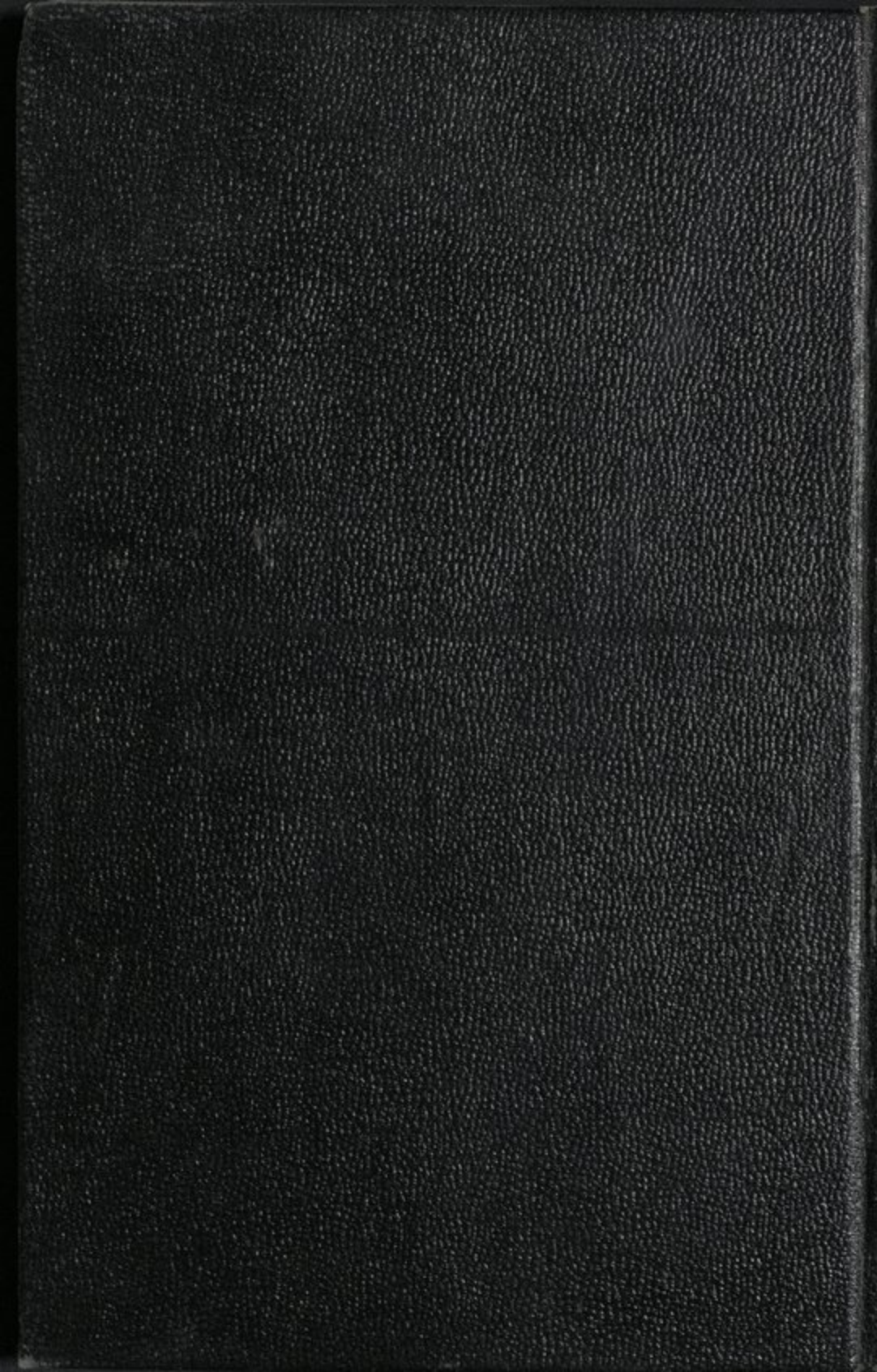




DOOR'S BINDERY
SALEH EL-DOKR

Jazan Street - Tel. 22977

65/297

808.1:M94muA

بارك زكي

المعازنة بين الضمير

OCT 16 R268

MAR 17

A1374

808.1

M94muA

JAFET LIB.

~~CONFIDENTIAL~~

~~31 MAR 64~~

~~23 Jan 68~~

~~1 FEB 72~~

~~ATTACHED~~

~~CONFIDENTIAL~~

الموازنة بين الشعراء
سر هـ

أبحاث

في أصول النقد وأسرار البيان

بقلم

زكي مبارك

دكتور في الآداب
دكتور

ومعيد بالجامعة المصرية

الطبعة الأولى

(حقوق الطبع محفوظة)

التمن ١٥

28517

طبع بمطبعه المصنعة للكتاب



[Faint handwritten mark]

الأهداء

تَذِكْرَةٌ وَلَاءٍ وَاخْلَاصٍ لِحَضْرَةِ صَاحِبِ الْعِزَّةِ الْاِسْتَاذِ
الْفَيْلَسُوفِ اَحْمَدَ لَطْفِي السَّيِّدِ بَكْ مَدِيرِ الْجَامِعَةِ الْمَصْرِيَّةِ

مِنْ أَصْغَرِ ابْنَائِهِ

زَكِي مَبَارَكْ

غُرَّةُ رَمَضَانَ سَنَةِ ١٣٤٤ — ١٥ مَارِسَ سَنَةِ ١٩٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة وجيزة

هذه طائفة من الابحاث ، انفقت فيها حين كتبها
ما كنت أملك من جهد ووقت ، وقرأت شيئاً منها على
استاذي الدكتور طه حسين ، ونشرها المقطم في صيف
سنة ١٩٢٥ ، أقدمها للقراء راجياً أن تقع من المنصفين منهم
موقع القبول ، والسلام

محمد زكي عبد السلام مبارك

البحث الأول

أهواء النقاد

— ١ —

فطّر الناس على حُبِّ المفاضلة بين الأشياء التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد. وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين ظهر الشعر، وتبارى في قرضه الشعراء وليسَت الموازنة إلا ضرباً من ضروب النقد، يتميز بها الردي، من من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان: فهي تتطلب قوة في الادب، وبصراً بمناحي العرب في التعبير، ومن هنا كان القدماء يتحاضرون إلى النابغة تحت قبته الحمراء، في سوق عكاظ، إذ كان في نظرهم أقدر الشعراء على وزن الكلام

وقد كلف الأدباء في مختلف العصور بالموازنة بين من ينبغون من الشعراء في عصر واحد، فوازنوا بين امرئ القيس والنابغة وزهير والاعشى، في الجاهلية، وبين جرير والفرزدق والاختل، في الدولة الأموية، وبين أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية، وبين ابن المعتز وابن الرومي، وبين أبي تمام والبُحْثُري، في الدولة العباسية. وكذلك عقدت الموازنات بين من نبغوا بعد أوائك الفحول إلى

المعصر الذي نعيش فيه ، والعهد قريب بما كُتب في الموازنة بين شوقي وحافظ ومطران في الجرائد المصرية والسورية . ولا يزال الأدباء مختلفين في حكمهم على من تقدمهم أو عاصرهم من الشعراء .



ونريد أن نبين في هذه الفصول أغلاط النقاد الذين تصدروا قديماً أو حديثاً للموازنة بين شاعرين : جمع بينهما عصر واحد ، أو اشتراكا في الإيابة عن غرض واحد ، وأن نضع ميزاناً يُعتمد عليه في وزن ما للشعراء من الحسنات والسيئات ، ليستطيع المتأدب الفصل بين شاعرين اختلف من أجلهما الناس . وسبيلنا الى ذلك أن نُحدد شخصية الناقد الذي يُرشح نفسه للموازنة وأن نميز الوحدة الادبية التي يرجع اليها الناقد فيما يُعنى به الشعراء من تحرير المعاني ، واختيار الألفاظ .



يجب أن يصل من يتصدر للموازنة بين الشعراء الى درجة عليا في فهم الادب ، وان يُصبح وله في النقد حاسة فنية تصرفه عند الحكم عن كل ما يفسده من الأهواء والاغراض ، التي تحمل القاصرين من طلاب الأدب على البعد عن جادة الصواب ، حين يوازنون بين الشعراء والكتاب والخطباء . فقد نجد من الناس من يطرب للشعر ، لانه شعر ، بل لانه طرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى جميل نفسه اليه ، وقد لا يكون ما سمعه أو قرأه جميلاً من الوجهة الفنية ،

أَفِيُقْتَبَرُ هَذَا الْإِعْجَابُ دَلِيلًا عَلَى حُسْنِ مَا اسْتَحْسَنَهُ هَذَا الَّذِي تَشَبَّهَتْ
نَفْسُهُ بِفَرْضٍ خَاصٍّ ؟

وَمِنْ هُنَا نَسْتَطِيعُ غَضَّ النَّظَرِ عَنْ أَحْكَامِ الْمُتَأَدِّينَ الَّذِينَ يُفَضَّلُونَ
الْقَدِيمَ مُطْلَقًا عَلَى الْجَدِيدِ ، بِحَيْثُ يَرُونَ الْجَدِيدَ نَوْعًا مِنَ الْهَرَاءِ ، أَوْ
يُفَضَّلُونَ الْجَدِيدَ مُطْلَقًا عَلَى الْقَدِيمِ ، بِحَيْثُ يَرُونَ الْقَدِيمَ صُورَةً مِنْ صُورِ
الْجُودِ . وَإِنَّمَا نَغْضُ النَّظَرَ عَنْ أَحْكَامِ هَؤُلَاءِ ، لِأَنَّ التَّشْبِيحَ لِلْقَدِيمِ أَوْ
الْجَدِيدِ صَرَفَهُمْ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لِلْحَاسَةِ الْفَنِيَّةِ ، الَّتِي تَطْرُبُ لِلْجَيِّدِ الْمُتَمَعِّ
مِنْ ثَرْوَةِ الْقَدَمَاءِ أَوْ الْمُحْدِثِينَ

وَقَدْ تَنَبَّهَ لِهَذَا عَبْدُ الْعَزِيزِ الْجُرْجَانِيُّ حِينَ قَالَ : وَمَا أَكْثَرَ مَا نَرَى —
وَنَسْمَعُ عَنْ حِفْظِ اللُّغَةِ وَجَلَّةِ الرُّوَاةِ مِمَّنْ يَلْبِغُ بِعَيْبِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، أَنْ
أَحَدَهُمْ يَنْشُدُ الْبَيْتَ فَيَسْتَحْسِنُهُ وَيَسْتَجِيدُهُ وَيَعْجَبُ مِنْهُ وَيَخْتَارُهُ ، فَإِذَا
نُسِبَ لِبَعْضِ أَهْلِ عَصْرِهِ وَشُعْرَاءِ زَمَانِهِ ، كَذَبَ نَفْسَهُ ، وَنَقَضَ قَوْلَهُ ،
وَرَأَى تِلْكَ الْغَضَاضَةَ أَهْوَنَ مِمَّا ، وَأَقْلَ مَرَزَا ، مِنَ التَّسْلِيمِ بِفَضِيلَةِ
الْمُحْدِثِ ، وَالْإِقْرَارِ بِالْإِحْسَانِ لِمَوْلَدِهِ . وَحَكَى عَنْ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيِّ أَنَّهُ
قَالَ : أَنْشَدْتُ الْأَصَمِّيَّ :

هَلْ إِلَى نَظَرَةِ إِلَيْكَ سَبِيلُ فَيَبُلُّ الصَّدَى وَيُسْفَى الْغَلِيلُ
إِنْ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِنْ تَحِبُّ الْقَلِيلُ
فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ الدِّيَابِجُ الْخَسِرَانِي ! وَلَمَنْ تَنْشُدْنِي ؟ فَقُلْتُ إِنَّهُمَا
لَا يَلِيَهُمَا . فَقَالَ : لَا جَرَمَ ، وَاللَّهِ إِنْ أَثَرَ التَّكَلُّفِ فِيهِمَا ظَاهِرٌ !!

ومن هذا الباب جاز ما ابتدعه خَلَفُ الأَحرار من الشعر باسم شعراء الجاهلية ، لأن غرام النقاد إذ ذاك بالقديم جعلهم يُسَيِّفون كل ما يضاف الى القدماء من ألوان الكلام !!

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي تتسم بسمة الفيرة على الجنس ، والدفاع عن التَّوَع . كالموازنة التي كانت تعقدُها السيدة سُكَيْنَةُ بين الشعراء . وليس بصحيح ما ذكره استاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي بك في محاضراته بالجامعة المصرية ، من أن السيدة سُكَيْنَةَ كانت ترى فضل الشعر في الصدق ، والرفق ، وجميل الأحداث . استناداً الى الحديث الذي نقله صاحب الاغانى . فسيرى القارىء أن نقد السيدة سُكَيْنَةَ متأثر بالعطف على المرأة ، بلا نظر الى قيمة الشعر من الوجهة الفنية . وقد يخرج الشعر على التقاليد الاجتماعية والدينية ، ولكنه يظل قيماً في نظر الأديب الفنَّان . وأنا أُشْرِكُ القارىء في الحكم على ذلك الحديث : ذكر صاحب الاغانى انه اجتمع في ضيافة السيدة سُكَيْنَةَ جَرِيرٌ والفرزدق وجميل وكثير ونصيب ، فكثوا أياماً ، ثم أذنت لهم فدخلوا عليها ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة لها وصيفة ؟ قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟ فقال : هانذا . فقالت : أنت القائل

ها دلتاني من ثمانين قامة * كما انخط باز أقتم الرّيش كاسرة (١)
فلما أستوت رجلاي بالارض قالتا * أحى يُرجى أم قتيلٌ نحاذرة
فقلت أرفعوا الأمراس لا يشعروا بنا * وأقبلت في أعجاز ليل أبادرة (٢)
أبادر بوايينٍ قد وُكّلا بنا * وأحمر من ساج تبص مسامرة (٣)

قال : نعم ! قالت : فإدعاك الى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت
عليك وعليها ؟ خذ هذه الألف وألحق بأهلك !

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم جرير ؟ قال :
هأنذا . قالت : أنت القائل

طرقك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزبارة فارجمي بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه * برده تحذر من متون غمام
قال : نعم ! قالت أولا أخذت بيدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟
انت عفيف وفيك ضعف ! خذ هذه الألف وألحق بأهلك ؟

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت أيكم كثير ؟ فقال :
هأنذا . فقالت : أنت القائل :

وأعجبني يا عز منك خلاق * كرام إذا عُدّ الخلاق أربع
دُنُوك حتى يدفع الجاهل الصبا * ودفعك أسباب النى حين يطعم
فوالله ما يدرى كريمٌ مما طل * أينساك إذ باعدت أو يتصدّع

قال : نعم ! قالت : ملحت وشكيت ! خذ هذه الألف وألحق
بأهلك

(١) البازي : ضرب من الصقور (٢) الامراس : الجبال (٣) تبص : تلمع

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: أيكم نصيب؟ قال: هانذا.
قالت: أنت القائل

ولولا أن يقال صبا نصيبٌ لقلت بنفسى النشأ الصغارُ
بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصارُ

قال: نعم؛ فقالت: ربيتنا صغاراً ومدحتنا كباراً؛ اخذ هذه الألف
وألحق بأهلك

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت: يا جميل! مولاتي تُقرئك
السلام؛ وتقول لك: والله ما زلتُ مشتاقةً لرؤيتك منذ سمعت قولك

ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً بوادى القرى إني إذا لسعيدٌ (١)
يقولون جاهدٌ يا جميلُ بغزوةٍ وأتى جهادٌ غيرهن أريدُ
لكل حديث ينهن بشاشةٍ وكل قتيل عندهن شهيدُ

جعلت حديثنا بشاشةً وقتلنا شهداءً؛ اخذ هذه الألف وألحق
بأهلك

وليس في هذا الحديث ما يدل على أن السيدة سكينة لم تهتم ولم
تحرص إلا على أخلاق الأدياء، وأنها ألقت عليهم درساً ما كان
أحوجهم إليه — كما ذكر أستاذنا المهدي — وإنما هو حديثٌ صريحٌ
في الإبانة عن حرص السيدة سكينة على نعيم المرأة بوجه خاص.
ألا ترى كيف عقت على قول جرير:

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجي بسلام

(١) وادى القرى: هو واد بين المدينة والنام أكثر من ذكره الشعراء.

إنها قالت له : أو لا أخذت ييدها ، وقلت لها ما يقال لمثلها ؟ أنت عفيف ، وفيك ضعف !

فالسيدة ترى أنه كان يحمل بحرير أن يأخذ ييدها ، وأن يقول لها ما يقال لمثلها . فكان يقول بالطبع « ادخلي بسلام » ونحن نعلم إلى أين يؤخذ بيد المرأة حين تطرق عاشقها بليل !

ثم ما معنى هذه الجملة « أنت عفيف ، وفيك ضعف » أما والله إنني لأحب أن يعفيني القارىء ، من شرح ما في هذه الجملة من ألوان الفتون !

وقد رضيت السيدة سكيئة عن تلك الفتاة اللعوب ، التي تدنو حتى يركب الجاهل رأسه ، ويسخر لصباه ، وتنفر حتى تنقطع بالغوي أسباب المني والمطامع ، والتي لا تزال تلعب حتى يغلب الحب على أمره ، فما يدري أيصدف وينسى ، أم ينسى وهو متيم بمجروح الفؤاد . وفي هذا الحكم خضعت السيدة لحاستها الفنية ، فلم تذكر إلا أنه ملح وشكل (١) وأنه بلغ بذلك غاية البيان

وما الذي أعجبها في شعر نصيب ؟ أعجبها أنه رباهن صغاراً ، ومدحهن كباراً ؛ وهذا ما أردته من الغيرة على الجنس ، والدفاع عن النوع . ولهذا أعجبها من جميل أنه جعل حديثهن بشاشة وقتلاهن شهداء !

ويؤيد هذا الرأي ما ذكر من أنها قالت مرة لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول

(١) شكل على وزن فرح : من الشكل بالسكون وهو رقة الغزل

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخفى علي كلامها
قال : نعم ! قالت : رحم الله صاحبك إن كان صادقاً في شعره
ألا تراها رَضِيتَ بما رضي الشاعر لنفسه من العمى والصمم مع
سلامة محبوبته ، وهي التي أنكرت على الفرزدق أن يفزع ويروع حين
فزعته ورُوعت من اجله صاحبته ؟

ونستطيع أيضاً أن لا نبالي بأحكام المتأدين الذين يخضعون لغير
الفكرة الادبية : كالفقهاء والمتصوفة ، ومن إليهم ممن يقيسون بمقياس
العرف ، والمألوف ، والمستحسن من خصال الناس . فقد قيل لعمرو
ابن عبيد : ما البلاغة ؟ فقال ما بلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما
بصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك « فهو يقيس جودة الكلام
بمقياس الدعوة الى الرشد ، والنهي عن الغي ، والتنفير من طاعة الهوى .
مع ان من الكلام ما يهوي بصاحبه الى اعماق الجحيم وهو في الوقت نفسه
يسمو به الى اعلى مراتب البيان

ولقد أذكر أن بعض العلماء قرأ كتاب (حب ابن أبي ربيعة
وشعره) ثم قال بلهجة جدية : لا عيب في هذا الكتاب إلا أنه لم يختم
بفصل في النهي عن العبث بالنساء (١)

وليس معنى هذا أن الشعر يفسد بالأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، ولكن معناه أن للشعر نزعة أخرى غير النزعة الدينية . وأريد

النزعة الدينية الصَّرفة التي تخلو من النفحة الشعرية ، ومن ذلك ما تحدثوا به من أن بعض الشعراء أنشد المأمون في مدحه
أضحى إمام الهدى المأمونُ مشتغلاً بالدين والناس بالدنيا مشاغيلُ
فغضب لذلك ولوى وجهه ، مع أن هذا البيت يُصور مطامع كثير من النفوس التي يحسب أصحابها أن الإنسان لا يقرب من ربه إلا إذا شغله دينه عن دنياه . ولكن نفس المأمون الوثابة الطمّاحة لم ترض عن هذه المنزلة ، ولم تشأ الزهد في طيبات الحياة

قلت لك إن الشعر قد يساير الأغراض الدينية ، وتبقى له حين تغلب فيه تلك النزعة قيمته الفنية ، وعندى لهذا شاهدٌ بديع ، وهو

قول بعض الحجازيين في ذم جماعة من عبّيد الراح
لو كنت أحمل خمرًا يوم زرتكمو لم ينكر السكب أنى صاحب الدار
لكن أتيت وروح المسك يفغمني وعنبرُ الهند أذكبه على النار
فأنكر السكب ربحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الرِّق والقار
فهذا نهى عن الخمر ، ولكنك لا تستطيع أن تضع في صفه قول ابن الوردي ودع الخمر إن كنت فتى كيف يسمي في جنون من عقل
لان هذا ينقصه ما يبني عليه الشعر من رائع الخيال

وأحب أن لا ينسى القارىء أننا تكلم في الادب لا في الاخلاق فلا يبتئس بما نقول . على أنى قد أعود اليه بعد قليل لأحدد معه أغراض الشعر والنثر البليغ ولأدرس معه نظرية « الفن للفن » لنعرف إن كانت غاية الادب تهذيب الأخلاق ، أم تربية الأذواق

البحث الثاني

عور الى أهواء النقاد

بينت للقارىء في الكلمة الماضية أنه يجب ان لا يخضع الناقد عند الموازنة لغير الحاسة الفنية ، وذكرت له بعض الآفات التي تذهب بقيمة النقد : كالتعصب للقديم أو الجديد ، والتشبع بالأفكار الدينية أو الصوفية ، والدفع عن الجنس في حكم بعض النساء بين الشعراء ، والآن أسير مع القارىء في هذه السبيل لنعرف بقية الموانع التي تحول بين الناقد وبين الصواب حين يوازن بين الشعراء

- ١ -

لا ينكر أحد ان ابن الرومي كان من الشعراء الفحول ، والشاعر أبصر بالشعر من سواه ، فحكمه قيمة خاصة ، تفوق أحكام المتأدين من رجال اللغة والرواية ، ومع هذا فأنا أستطيع ان احكم بأن ابن الرومي حكم مرة بالجمال لقطعة من الشعر ، وكان في حكمه من الخطائين واليك البيان :

كان ابن الرومي مُسْرِفاً في التطير ، وكاد اسرافه فيه يصل به الى الجنون ، فقد كان يلبس أثوابه كل يوم ويتعوّذ ، ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب فتقع عينه على جاره له كان نازلاً بازائه ، وكان أحذب ، يقعد كل يوم على بابه ، فإذا نظر إليه رجع ، وخام ثيابه ، وقال : لا يفتح الباب فكان يئته يظل مغلق

الابواب إلى ان يشرف من فيه على الهلاك ! وعلم معاصروه بافراطه في التطير فأقبل عليه أحدهم وانشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه
بفريق ما بيني وبين الحباب
رجعت إلى نفسي فوطنتها على
ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صعب الدنيا على جور حكمها
فأيامه مخوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه
وكن حذراً من كامنات للعواقب
ودع عنك ذكر القال والجزواطرح
تطير جار أو تقاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر إليه ، ثم تبين الحاضرون انه شغل قلبه

بمحفوظ هذه الايات

أفيحسب القاري ، ان مثل هذه القطعة - وهي وسط في الفاظها

ومعانيها - كانت تشغل مثل ابن الرومي ، وتظفر باحتلال قلبه ، لولا

بغضه للتطير ، وميله من تلك الوسوسة التي كدّرت عليه موارد

الحياة ؟

ان الناقد مفروض فيه البرء من جميع الأغراض ، لان النقد نوع

من القضاء ، فاذا سيطرت عليه فكرة خاصة صيرت حكمه طعمة

للظنون ، وسواء ذلك في الافكار الدينية ، والنزعات الجنسية ،

والاتجاهات العقلية ، التي تصبغ التفكير بلون خاص

٢ -

ان الشعر الوسيط قد يؤثر تأثير الشعر البديع حين تستعد له النفس

ولكن هذا التأثير لا يسمو بالشعر الوسيط الى منزلة الشعر الجيد ،

ومن أمثلة ذلك ما روي من أن بعض الأعراب تزوج جارية من رهنه

وطمع في أن تلد له غلاماً ، فولدت له جارية ، فهجرها وهجر منزلها ،
وصار يأوى الى غير بيتها ، فرجسائها بعد حول واذا هي ترقص بنتها
وهي تقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا تلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وانما نأخذ ما أُعطينا ونحن كالزراع لزارعينا
ننبت ما قد زرعه فينا

فلما سمع الأبيات أقبل يعدو نحوها حتى ولج عليها الخباء ، فقبلها
وقبل أبنها ، وقال : ظلمتكم ورب الكعبة !
فأنت ترى أن هذه أبيات عادية في ألفاظها ومعانيها ، ولكن
لا تنس أن الرجل الذي نالت من نفسه ، وراضته بعد جُجوحه ، رجل
ينزع قلبه بالرغم منه الى زوجه وأبنته ، والشرارة الضئيلة كافية لاحتراق
الهشيم ! فليست تدل هذه الحادثة على قيمة أدبيه لهذه الأبيات ، وانما
هي شاهد « على ضرب من المعاملات ، وعلى أحوال الاجتماع ، وعلى
ما للمرأة من لين الجانب ورقة الأخلاق » (١)

وكذلك يجب درس حالة الناقد النفسية قبل الاعتماد بما أصدر
من الأحكام لان الحكم يتبع ما للنقاد من ألوان النفوس ، وصور العقول

ونستطيع كذلك غض النظر عن الأحكام التي يخضع أصحابها
لفكرة قومية أو حزبية ، فقد أسرف النقاد في الظلم حين تصدروا

الفصل بين شعراء الأحزاب ، وانك لتجد أمثلة ذلك منشورة هنا وهناك : حين ترجع للعصور التي أصطدمت فيها الدولة العباسية بالدولة الأموية ، وحين تراجع التنافس الذي كان بين أدباء قرطبة وأدباء بغداد وهذا عبد الملك بن مروان كان من أبصر أهل عصره بنقد الشعر.

فلما دخل عليه الأخطل وأنشده

نفسى فداء أمير المؤمنين اذا
أبدى النواجذ يوماعارم ذكر^(١)
الخائف الغمرة اليمون طائر^ه
خليفة الله يستسقى به المطر
في نبتة من قریش يعصمون بها
ما ان يوازى بأعلى نبتها الشجر
حشد على الحق عتافوا نحن أنف
إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
لا يستقل ذوو الاضغان حربهم
ولا يبين في عيدانهم خور
شمن العداوة حتى يستقاد لهم
وأوسع الناس احلاما اذا قدر^(٢)وا
هم الذين يمارون الرياح اذا
قل الطعام على العافين أو قفروا
بني أمية نعاكم مجللة
تمت فلامنة فيها ولا كدر
أقول لما أنشد الأخطل هذه القصيدة طرب عبد الملك وقال :

أأناذي في الناس انك أشعر العرب ؟ فقال الاخطل : حسبي شهادتك يا أمير المؤمنين !

ولم يكن الأخطل أشعر العرب إذ ذاك ، فقد كان جرير والفرزدق في الميدان ، ولكن عبد الملك خضع في حكمه للمصاحبة الذاتية ، لا لحاسه الفنية ، فقد كان الأخطل سليل اللسان ، خبيث الهجاء ، وكان عبد الملك قد استعان به على لدغ من يناوئه من رجال السياسة

وشعراء الأحزاب، ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه، وكان مارووا من أنه كان يجيئه وعليه جبة خز، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملامحه نشوة الصهباء، مع أن عبد الملك خليفة الساميين، والدين في عنفوانه، والناس على نصره حراص، ولكن السياسة، وحاجة الملك الى الدعاة من كتاب وخطباء وشعراء، والحرص على تحقير المعارضين، كل أولئك أغرى عبد الملك بحب الأخطل، والحكم بأنه أشعر الناس؛ ولو أن ابن رشيق تنبه لهذا الغرض لما ظن أن الساميين سكتوا عن الأخطل لجمال شعره، ولما عجب من جهره بتحقيق الفرائض الإسلامية حين قال

ولست بصائم رمضان طوعاً	ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عتساً بكوراً	الى بطحاء مكة للنجاح ^(١)
ولست منادياً أبداً بليل	كمثل العير حتى على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً	وأسجد قبل منبج الصباح ^(٢)

ولكن ابن رشيق حسب عبد الملك سكت عن هذا الشاعر لحسن شعره، وتقدمه على معاصريه، ولذلك قال «ومن الفحول المتأخرين الأخطل، وأسمه غياث ابن غوث، وكان نصرانياً من تغلب بلغت به الحال في الشعر الى أن نادى عبد الملك بن مروان، وأركبه ظهر جرير ابن عطية بن الخطفي وهو تقي مسلم» ثم قال «وهجا الأ نصاريز يد بن معاوية لما شرب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بعتمه فاطمة بنت أبي

(١) العنق: الناقة الصلبة (٢) الشمول هي الخمر التي تمصف بالعقل كما

تمصف بالنبات ربح الشمال

سفیان ، وقيل بل بأخته هند بذت معاوية ، ولولا شعره لقتل دون اقل من ذلك ، وقد ردّ على جرير أقبح رد وتناول من أعراض المسلمين وأشرفهم ما لا ينجو مع مثله علوى فضلاً عن نصراني »

وقد بينت لك أن الشعر وحده لم يكن كافياً لنجاة الأخطل من أن يؤخذ بجراذه ، ولكنّ دفاعه عن بني أمية ، وهجاءه لخصومهم ، كانا سبباً في تعصب الأمويين له ، حتى حكم عبد الملك بتقدمه على الشعراء

— ٤ —

وكما كان عبد الملك يؤثر شعر الأخطل كان الرشيد يؤثر شعر منصور النمرى ، ولكن لا تنس أن رجال السياسة لا يحبون الشعر للشعر ولا العلم للعلم ، وإنما يتخذون الشعراء ، والعلماء مطايا لأغراضهم السياسية. فمن البكاه أن نظن أن جودة الشعر هي التي أدت النمرى من الرشيد ، أو أن اتصال النسب كان سبب تلك الخطوة كما توهم بعض مؤرخي الآداب العربية ، وإنما أدنى الرشيد هذا الشاعر لميله إلى إمارة العباس وأهله ، ومنافرته لآل علي بن أبي طالب ، فقد ذكروا أنه قال في تسفيهم هذه الأبيات

بني حَسَنَ وقل لبني حَسِينِ عليكم بالسواء من الأمور
أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِي وَأَحْلَاماً يَمْدُنْ عِدَاةَ زُورِ
تُسْمَوْنَ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي مِنَ الْأَحْزَابِ سَطْرٌ فِي سَطُورِ
يريد قوله تعالى في سورة الأحزاب « ما كان محمد أباً أحد من

رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » ويذكرون أن الرشيد قال له :
مَا عَدَوْتُ مَا فِي نَفْسِي ! ثم امره أن يدخل بيت المال فيأخذ ما أحب ،

كما قال صاحب زهر الآداب ، مع أن الآية وجهاً غير هذا الوجه ،
وتأويلاً غير هذا التأويل

ويؤيد ما اسلفناه ان الرشيد لما بلغه قوله

آل النبي ومن يحبهمو يتظامنون مخافة القتل ^(١)

أمن النصارى واليهود ومن ^(٢) من أمة التوحيد في أزل

إلا مصاليت ينصرونهمو بظبا الصوارم والقنا الذبل ^(٣)

لما بلغ الرشيد هذا القول امر بقتله ، فضى الرسول فوجده قد
مات . فقال الرشيد لقد هممت ان أنبش عظامه فأحرقها ؛

وانا اكتفى بهذين المثالين في تعرض من يوازن بين الشعراء للظنة

حين تسيطر عليه فكرة حزبية ، او قومية ، ولولا انى اعرف فى شعراء

العصر ضيق الصدر ، لذكرت لك نماذج من شعرهم فى مسأيرة

الأحزاب ، خوفاً من النقد والموازنة تحت وحنى الأغراض ، ولهم العذر

فى هذا الدهاء ، فان الأمة التى تكاد تصدق اكثر ما يقال ، إنما

تحمل الشعراء على ان يحسبوا حساباً لما يكتب عنهم فى الصحف التى

لا تعرف الفرق بين الشخصية الأدبية ، والشخصية السياسية ، فقد

اكون عدوك لأنك تناصر حزباً غير الحزب الذى أناصره ، واكون

فى الوقت نفسه نصيرك كعالم ، او اديب ، او فنان

(١) يتظامنون : يسكنون (٢) الازل : الشدة (٣) المصالت : جمع

مصلت ، وهو المقدام ، والقنا الذبل هى الظاه الى الدم ، والمفرد ذابل ، ويجمع
أيضاً على ذوابل

البحث الثالث

« أنفُسُ الشعراء »

- ١ -

قد رأيت أن الموازنة نوعٌ من النقد، وهي كذلك نوع من الوصف، ﴿ فالذي يُوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذاً أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره، ليستطيع وزن ما يقول. فان الشاعر إنما يؤدي «رسالته» إلى جيل خاص، في قطر خاص. ومن التحكم أن تطالبه بأن يرى الأشياء بعينك، ويدركها ببصيرتك، ويتذوقها بوجدانك، مع أن بينك وبينه مئات الفروق، وهو لم يعيش معك، ولا لك، وإنما خضع في شعره لغير ما تخضع له من ظروف الزمان والمكان

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر قول زهير في دار محبوبة وقد نال منها العفاء :

وقفتُ بها من بعد عشرين حجةً ﴿ فلاياً عرفتُ الدار بعد توهم^(١)

وهو يرى أن هذا وصفٌ ضئيل للدُّرُوس والعفاء. وتلك غفلةٌ ظاهرة، فان منازل الأعراب تغفو وتدرُس في أقل من عشرين سنة، فكيف يطلب لدروسها عشرات العقود ؟

(١) لاياً عرفتُها، وعرفتُها بعد لاياً : أي بعد مشقة

ورأيت من يستهجن ابتداء كعب بن زهير بقوله :
 بانث سعاد فقابي اليوم متبول متيم إثرها لم يُقدَّ مكبول
 وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أن غضيض الطرف مكحول
 وذلك ان هذه القصيدة أنشدت في حضرة النبي عليه السلام، فمن
 الأدب أن لا تبدأ بالنسيب. وهذا أيضاً خطأ لأن بدأ الشعر بالنزل كان من
 العادات العربية المستعملة، ولم يكن أحد ينكرها إذ ذاك، حتى ينسب
 كعب إلى ما هو منه براء

— ٢ —

وكان الجاحظ يقول : لا أعرف شعراً يفضل قول أبي نواس

× ودار ندامي عطأوها وأدجلوا بها أثر منهم جديد ودارس
 × مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ربحان حنى وبابس
 حبست بها صحتي فجددت عهدهم واني على أمثال تلك لحابس
 × تدار علينا الراح في عسجدية حببها بأنواع التصاوير فارس
 قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدريها بالقسي الفوارس
 فلاخمر ما زرت عليه جيوبها والماء ما دارت عليه القلائس
 ثم جاء صاحب المثل السائر فقال « فصاحة هذا الشعر عندي هي
 الموصوفة لا هذا المعنى ، فانه لا كبير كلفة فيه ، لأن أبا نواس رأى كأساً
 من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره ، والذي عندي في هذا أنه
 من المعاني المشاهدة ، فان هذه الخمر لم تحمل الماء يسيراً ، وكانت تستغرق
 صور هذا الكأس إلى مكان جيوبها ، وكان الماء فيها قليلاً بقدر القلائس
 التي على رؤوسها ، وهذا حكاية حال مشاهدة بالبصر »

فانظر كيف صغرُت قيمة الشعر في عين هذا الناقد حين كان « حكاية
 حال مشاهدة بالبصر » مع انه انما عظمُ لذلك في عين الجاحظ
 ورأيت من ينكر قول ابن الدمينه
 ولو أننى أستغفر الله كلما ذكرك لم تكتب على ذنوب
 واستند في إنكاره الى أن هذه (عبارة فقهية) وكان عليه أن يذكر
 أن روح الشاعر مصبوغ بصبغة دينية ، وانه قال هذه الكلمة العذبة ،
 قبل ان يوجد التكلف في الفقه ، وقبل ان تثقل أرواح الفقهاء ؛
 ومن النقاد من فضل قول مسلم بن الوليد :

تظلم المال والأعداء من يده لا زال للمال والأعداء ظلاماً
 واستقبح قول ابي نواس :

نُجّ صوت المال تما منك يشكو ويصيحُ
 استناداً الى أن المال لا صوت له . وهذا أيضاً خطأ . لان أبا نواس
 قريب العهد بمال الاعراب ، ومال الاعراب ناطق ، وطالما اضطربت
 الابل لسكّين الجزار عند قدوم الضيفان

فعلى الناقد أن يتبين العهد الذي عاش فيه الشاعر ، وأن يُعنى فوق
 ذلك بمعرفة ما درسه من الأدب القديم ، لما لذلك من الاثر في اذواق الشعراء
 فقد أنكروا على شوقي قوله

ارفعني الستر وحيي بالجبين
 وأرينا فلق الصبح المبين
 وقني الهودج فينا ساعة
 نقتبس من نور أم الحسين
 واتركي فضل زماميه لنا
 تتناوب نحن والروح لا مين

مع ان أم المحسنين انما ركبت يومئذ سيارة تهب الارض، ولكن
هكذا بقى الهودج فى ذهن شوقى ، لا معانه فى دراسة الشعر القديم...
وانكروا عليه قوله فى سيارة الدكتور محبوب

لكم فى الخط سيّاره حديث الجار والجاره
واستخفوا كلمة « حديث الجار والجاره » وفاتهم أن الدكتور محبوب
يسكن فى حى قد لا يعرف أهله غير الخليل والبغال والحمير ؛

واستنكروا قول حافظ على لسان اليتيم
أَمْشَى يُرْنَحْنِى الْأُمِّى والبؤس ترنيح الشراب
لأن اليتيم البائس قد لا يعرف كيف يترنح السكران . ولكن
حافظ يرى هذه المناظر فى الصباح والمساء

واستضعفوا قول مطران فى رثاء اسماعيل صبرى
شُهْبٌ تَبَيَّنَ أَفْأُ تَوْوَبُ فَكُنْهَا حَبَبٌ يَذُوبُ
أَرَأَيْتَ فِى كَأْسِ الطَّلَا دُرَّراً وَقَدْ صَعِدَتْ تَصُوبُ
هُوَ ذَاكَ فِى لُجِّ الدَّجَى طَفُو الدَّرَارِى وَالرُّسُوبُ
لَا فَرْقَ بَيْنَ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا فِيمَا يَنْوُبُ
لأن مقام الرثاء يحل عن ذكر الحَبَبِ والكأس ، وليس لك أن
تشبه الشهاب حين يغيب ، بالحَبَبِ حين يذوب . ولكن يجب أن نعرف
كيف يعيش مطران ، لنعرف قيمة هذا التشبيه فى نفسه المِزَاج
وكذلك نقول فى توجيهه كلمة شوقي فى رثاء محمد تيمور

ضربوا القِيَابَ عَلَى الشَّبَابِ وَثَوَّوْا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ
هَمْدُوا وَكُلَّ مُحَرِّكَ يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي التُّرَابِ

زَلُّوا عَلَى ذَنْبِ الْبَلَى فَتَضَيَّفُوا شَرَّ الذَّنَابِ
وَكَاثِمِهِمْ صَرَعِي كَرِي بِالْقَاعِ أَوْ صَرَعِي شَرَابِ
فَإِذَا صَحَّوْا وَتَنَبَّهُوا فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَأْتَابِ
فَإِنْ تَشْبِيهِ الْمَوْتِ بِصَرَعِي الشَّرَابِ لَا يَدُلُّ عَلَى غَفْلَةِ الشَّاعِرِ عَنْ
رِعَايَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ ، وَإِنَّمَا يُشِيرُ بِطَرَفٍ خَفِيَ إِلَى مَا لِحَيَاتِهِ مِنْ شَتَّى
الْأَلْوَانِ ، كَمَا أَفْصَحَ شِعْرُهُ عَنْ أَلْوَانِ حَيَاتِهِ فِي قَوْلِهِ مِنْ كَلِمَةٍ ثَانِيَةٍ
مَا أَنْتَ يَا دُنْيَا ؟ أَرَوْيَا نَائِمٌ ؟ أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ ؟ أَمْ بِسَاطِ سُلَافٍ
نَعْمَاؤُكَ الرِّيحَانِ إِلَّا أَنَّهُ مَسَّتْ حَوَاشِيَهُ نَقِيعُ زَعَافٍ
وَقَالَ أَحَدُ أَنْصَارِ ابْنِ الرُّومِيِّ يَلُومُهُ : لَمْ لَا تَشْبِهُهُ كَتَشْبِيهَاتِ ابْنِ
الْمَعْتَزِ ؟ فَقَالَ أَنَشَدَنِي مِنْ قَوْلِهِ الَّذِي اسْتَعْجَزْتَنِي عَنْ مِثْلِهِ . فَأَنْشَدَهُ قَوْلَهُ
فِي الْهَلَالِ .

انْظُرْ إِلَيْهِ كَزُورِقٍ مِنْ فُضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عُنْبِرٍ
فَقَالَ لَهُ زِدْنِي فَأَنْشَدَهُ :

كَأَنْتَ أَزْرِيُونَهَا غِبَّ سَمَاءِ هَامِيَةٍ
مَدَاهِنُ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فَصَاحَ : وَاعْثُوهُ : لَا يَكْفِيكَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَمْعًا . ذَلِكَ إِنَّمَا يَصِفُ
مَاعُونَ بَيْتَهُ ، لِأَنَّهُ ابْنُ خَلِيفَةٍ . وَأَنَا أَيْ شَيْءٍ أَصْفَ ؟ وَلَكِنْ انْظُرْ إِذَا
وَصَفْتُ أَيْنَ يَقَعُ قَوْلِي مِنَ النَّاسِ . فَهَلْ لِأَحَدٍ قَطُّ مِثْلُ قَوْلِي فِي قَوْسِ الْغَمَامِ
وَقَدْ نَشَرَتْ أَيْدِي الْجَنُوبِ مَطَارَفًا

مِنْ الْجَوِّ دُكْنًا وَالْحَوَاشِيَّ عَلَى الْأَرْضِ
يَطْرُزُهَا قَوْسُ السَّحَابِ بِأَخْضَرٍ عَلَى أَحْمَرٍ فِي أَصْفَرٍ أَيْ مَبْيُضَّنَّ

كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل الملح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوزاء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلتقى فيه بالحجر
فليس لك ان تقدم ابن المعتز على ابن الرومى لأنه استطاع تشبيه

الآزريون بعد المطر بمداهن الذهب فيها بقايا الغالية ، وليس لك أن
تقدم ابن الرومى على ابن المعتز لانه أجاد وصف الخباز وهو يدحو الرقاق
فان السبق هنا وهناك يرجع الى الظروف التى أتيت لىكل من الشاعرين
ومهدت السبيل الى الوصف الدقيق . وانما يجب عليك أن تعمد الى
الشاعر وتسبر أغوار نفسه لترى مبلغ شعوره بما وصفه من الاشياء ،
فقد يكون ابن الرومى فى وصف الرقاق أشعر من ابن المعتز فى وصف الهلال

— ٤ —

وكذلك ليس لك ان تقدم الاوصاف الحضرية على الاوصاف
البدوية ، لان الحضارة فى ذوقك أنضر من البداوة ، فقد يكون البدوي
فى بداوته أشعر من الحضري فى حضارته ، كما قال استاذنا المهدي ، ومعنى
ذلك أن البدوى قد يكون شعوره بالريح السموم فى مجاهل البيداء ، أقوى
من شعور الحضري بالنسيم العليل فى الروضة الغناء

فليس قول خزيمة بن نهد فى ريق محبوبته

فتاة كأن رضاب العبير فيها يُعلُّ به الزنجبيلُ

بأقل من قول الشريف الرضى

يسمن عن برد الغمام وبرده ريان يُنبق بالدمام ويُصبح
ولا يفضلهما من قال «كأنى ألتقط من فيها حبّ الرمان» لأن
الامر في ذلك يرجع الى قوة ادراك الشاعر، بغض النظر عن تفاوت
الاصناف، فقد يكون الزنجبيل أجمل ما تُعطر به الأفواه في البادية كما
تكون الحمرا أحب الرمان أحلى ما تُعطر به الشنايا في الحاضرة. ولكل
شعب وجهة في تناول الاشياء.

ألم تر الى المتوكل وقد أنشده ابن الجهم في مدحه
أنت كالكلب في حفاظك للود وكالتيس في قراع الخطوب
لقد طرب المتوكل لهذا الشعر، وان كان جاسي اللفظ، بادي
الخيال، لانه أُعجب بما له من قوة الشعاعية، وهي روح البيان، ثم
اسكنه قصرا من قصور بغداد، واستدعاه بعد ذلك وقد صغلته الحضارة
فأنشده تلك الرائية البديعة التي يقول في أولها
عيون لها بين الرصافة والجسر

جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرأ على جمر
سالمين وأسلمن القلوب كأنما تُشك بأطراف المثقفة السمر
خليلي ما أحلى الهوى وأمره وأعرني بالخلو منه وبالمر
بما بيننا من حرمة هل علمتا أرق من الشكوى وأقسى من الهجر

والخلاصة ان الناقد إنما يوازن بين عبقرية وعبقرية. ويفاضل بين

بصيرة وبصيرة. ويقارن بين إدراك وإدراك. بغض النظر عن الفروق
الموضعية التي يقضي بها اختلاف الاقاليم. والفوارق الزمنية التي يوجهها

اختلاف العصور . وهذا يتطلب من الناقد تشحية خطيرة . ولكنها
ضرورية . يتطلب هذا أن ينسى الناقد شخصيته . وأن يفنى في شخصية
الشاعر الذي يدرسه . بحيث يبصر بعينه . ويسمع بأذنه . ويفقه بقلبه .
ليستبركاً قلت أغوار نفسه . وأرى مبلغ شعوره بما وصفه من الأشياء

البحث الرابع

« شعراء الأحزاب »

- ١ -

ويجب على الناقد حين يُوازِن بين شاعرين أن يعرف حياتهما
بالتفصيل ، وأن يتثبت مما أحاط بهما من مختلف الظروف . وعلى الأخص
إذا مرّت حياتهما في غمرة من الغمرات الدينية . أو فتنة من الفتن السياسية .
فقد يكون أحد الشاعرين من الحزب الغالب . وثانيهما من الحزب
المغلوب . ثم تعصف الفن بما ترك شاعر الأقلية من الشعر الرائع . وتبقى
العصبية الحزبية على ما ترك شاعر الأكثرية من الفث والسمين .
والويل كل الويل للمغلوب !

ولقد حان الوقت لمحو تلك الخرافة التي كاد يجمع عليها مؤرخو
الآداب العربية : وهي أن الشعر كان في خمود في زمن البعثة والخلافة
الراشدة ، استناداً إلى ندرة ما روى من شعر ذلك العهد ، وقلة من عرف
فيه من الشعراء

ولو تنبه الباحثون إلى تلك الحملة الشديدة التي وجهتها الشريعة إلى

الشعر والشعراء لتريشوا في الحكم أو احترسوا بعض الاحتراس . فقد كان الشعر في زمن البعثة قوياً وغزيراً . وكان الشعراء في كثرة وعزة . ولكن النبي عليه السلام رأى أكثرهم من معارضيهِ . فعمد الى اخفات صوتهم . وكان ما أراد

فان كنت في ريب من ذلك فحدثني عن سبب نزول هذه الآية « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وانهم يقولون ما لا يفعلون » ثم اذكر أن عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت قالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم اننا شعراء . هلكنا : فأنزل الله « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » فدعاهم رسول الله فتلها عليهم (١)

ومعنى ذلك ان الشعر لا يُذم الا ان أُعدت به حجة على النبوة والا فقد روى ان النبي عليه السلام قال ليلة وهو في بعض أسفاره : أين حسان ابن ثابت؟ فقال حسان : لبيك يا رسول الله وسعديك ! قال : احذ ! فجعل ينشد ويُصفي اليهِ . فما زال يستمع اليهِ وهو سائق راحلته حتى فرغ من إنشاده فقال عليه السلام : لهذا أشد عليهم من وقع النبل . وروى أيضاً انه قال له : اهجهم ! فوالله لهجاؤك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام ! وكذلك كان حسان يقول لاهل مكة

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تثير النقع موعدها كَدَاءُ (٢)
يَنَازِعَنَّ الْأَعْنَةَ مَصْنِيعَاتٍ عَلَى اكْتَفَائِهَا الْأَسْلَاطِ

(١) راجع اسباب النزول (٢) كدء بفتح الكاف بأعلى مكة عند المحصب

تظل جيادنا متمطرات تلطمهن بأحجر النساء (١)
 فاما تعرضوا عنا اعمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء
 وإلا فاصبروا لجلاد يوم يُعز الله فيه من يشاء
 وقال الله قد يسرتُ جنداً هم الانصار عرضتها اللقاء (٢)
 لنا في كل يوم من معدة سياب أو قتال أو هجاء
 فنحكم بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء
 وجبريلُ امين الله فينا وروح القدس ليس له كِفَاء
 ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلفة فقد برح الخفاء (٣)
 بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
 هجوت محمداً فاجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
 أتهجوه ولست له بكفء فشر كما خير كما الفداء

وانما نقلت لك هذه القطعة من شعر حسان لانها تمثل خصومة ذلك العهد اصدق تمثيل ، فليس عندي شك في انه كان لقريش شعراء يقول يقارعون شعراء الرسول ، وليس عندي شك في أنه كان لليهود شعراء يجمعون بين حسن القول وظلمة الارتياب ، وحسبك أن تعرف أنه كان فيهم من يقول :

فلو كان موسى صادقا ما ظهرتمو علينا ولكن دولة ثم تذهب ولكن رأى النبي أن يقضى قضاء مبرما على من عارضة من شعراء قريش ، وشعراء اليهود . لأن الدين في نفسه أعز من أن يهادن أعداءه

(١) متمطرات ممسرات ، وتلطمهن النساء تمسح ما عليهن من الغبار

(٢) العرضة بالضم الهمزة (٣) المغلفة الرسالة تحمل من بلد الى بلد

أو يفتر عن حرب خصومه من الشعراء . وكذلك باد وأقرض مارك
حزب المعارضة لذلك العهد من الآثار الأدبية والفنية ، وما خلف من
الآراء الفلسفية والاجتماعية ، وأصبحنا لا نعرف من الحركة العقلية في
ذلك العصر غير ما رواه المسلمون ، وهم لا يروون بالطبع إلا ما فيه
للإسلام نصر وتأيد ، وصار من المتعذر على الباحث أن يضع لذلك العصر
صورة صحيحة مضبوطة ، لم تلونها الأغراض والأهواء ، وأقول الأغراض
والأهواء لأن القضاء على آثار الحزب المعارض لعهد النبوة إنما كان طاعة
للأهواء الجامحة التي لم يعرف أصحابها خطر هذه الجناية على تقدير قوة
الإسلام من الوجهة الروحية ، والعقلية ، والاجتماعية

أفتحسب أن من مجد الإسلام أن تثبت أن العالم كان محطماً
الأركان ، مهدم الجوانب ، وأن العقول كانت خلت من روعة الإيمان ،
ثم جاء الإسلام فلم يجد غير أنقاض من الهمم ، وأطلال من العزائم ،
وخرائب من العقول ، والقلوب ؟

هيهات هيهات !

إن مجد الإسلام في أن تثبت خطر العهد الذي نشأ فيه من الوجهة
العقلية ، لترى كيف تقارعت الحجج ، وتصارفت البراهين ، ولترى
كيف انتصر النبي على خصومه الأقوياء ، الذين وصفهم القرآن بقوة
النطق حين قال : « إِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَسِنَّةٍ حِدَادٍ » وبعنف
الخصومة حين قال : « لَتَنْذِرُنَّ قَوْمًا لَدًّا » وبسحر البيان حين قال :
« أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ »

وبشدة المكر حين قال : « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » وبرجاجة العقل حين قال : « فاعتبروا يا أولي الأبواب »

- ٢ -

ونعود فنذكر أن الحملة التي وُجِّهَتْ إلى الشعر على أثر ما كان من لَدَدِ شعراء اليهود، وتوثُب شعراء المشركين، أثرت تأثيراً عميقاً في حياة المساميين من الوجهة الأدبية، فرأيناهم يسرفون في بُغْضِ الشعر، والنيل من الشعراء، وكان من ذلك أن قيل لسعيد بن المسيب إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال نسكوا نسكاً أعجمياً؛ وسئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشعر في رمضان، وقد قال قوم إنها تنقض الوضوء فقال :

نَبَيْتُ أَنْ فَتَاةً كُنْتُ أَخْطِبُهَا عُرُوبُهَا مِثْلُ شَهْرِ الصَّوْمِ فِي الطَّوْلِ
ثُمَّ قَامَ فَأَمَّ النَّاسَ !

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رفث القول ؟ فأُشْد :

وَهِنْ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيْسَا أَنْ تَصْدُقَ الطَّيْرُ نَنْكَ لَمِيْسَا
وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة !

ثم جرى على ألسنة الجماهير أن الشعر لا يليق بالفقهاء والمحدثين ، فرأيناهم يسألون عبيد الله بن عبد الله بن عتبة : أ تقول الشعر في فقهك وورعك ! فاجاب : لا بد له صدور أن ينفث ! وهذا الفقيه هو صاحب هذه الابيات الرائعة

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكَ فَلَيْمَ فَاتَأَمَّ الْفُطُورُ
تَغْلُغِلُ حُبَّ عَثْمَةَ فِي فَوَادِي فَبَادِيَةِ مَعَ الْخَفَافِي يَسِيرُ

تغفل حيث لم يبلغ شرابٌ ولا حزنٌ ولم يبلغ سرور

ورأيانهم يزعمون ان الامام الشافعي قال

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من ليبيد

ولا يزال شيوخ الازهر مختلفين في بدء الشعر بالبسملة ، لأنه فيما

يرون ليس من الامور ذوات البال ؛ ولا أدل على هوان الشعر في نظر

الفقهاء من قول الغزالي « وأما الشعر فكلام حسنٌ حسنٌ وقيحهُ قبيح »

وهذا كله أثر الحملة التي وجهت الى الشعر والشعراء

ولكن الشعر من الفنون الفطرية التي كلف بها الانسان منذ عهد

بعيد ، والمسامون ككل الأمم لم يكن لهم بد من حياة الفنون . وكذلك

نهضوا داعين الى روايه الشعر ، وإجازة الشعراء . ولكنهم لم يدعوا

الى الشعر باعتبار أنه فن جميل وانما دعوا اليه باسم الدين ، فقالوا ان النبي

كان يرتجز بقول ابن رواحة وقد أُصِيبَتْ إصبعه في احدى المواقع

هل انت الا اصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وحجروا الفصول الضافية في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء . فنسبوا

لأبي بكر الصديق قصيدة طويلة مطلعها :

أمن طيف سلمي بالرماح الدماث أرقى أو امر في العشيرة حادث

ونسبوا الى عمر وعثمان طائفة من المقطوعات ، ونسبوا الى علي

طائفة من القصائد ، ونقل الفيروز ابادي عن المازني وصوبه الزمخشري

أنه لم يصح أن علي بن أبي طالب تكلم بشيء من الشعر غير هذين البيتين

تلسم قريش تمنائي لتقتلني فلا وربك ما برأ ولا ظفروا

فان هلكت فرهن ذمتي لهمو بذات ودقين لا يعفوها أثر

وقال ابن رشيقي بعد ان ذكر طائفة من شعر الأئمة والقضاة «وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً . وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة . والغناء حلة الشعر ، ان لم يلبسها طوييت . ومحال ان يحرم الشعر من يحل الغناء به » وحسب الشعر هو اننا ان تقول انه مباح !

أفترى بعد هذا البيان أن في مقدور الناقد أن يوازن بين حسان بن ثابت مثلاً وبين واحد ممن عاصره من شعراء المشركين واليهود ؟ كيف وقد عصفت الحوادث بما ترك شعراء الحزب المغلوب ، وبقي شعر حسان بفضل ما صاغ له رسول الله من عقود الثناء ؛ على أن هذا لا يمنع أن يكون حسان سيد الشعراء في عصره ، ولكن هات ما ترك أقرانه ، لنستطيع الموازنة ، ولنصل بها الى علم اليقين ، فقلما تنفع الظنون

وإنك لتجد ما يدعوك الى الحذر اذا تخطيت عهد النبوة ، وانحدرت الى عهد بني أمية ، أو عصر بني العباس ، هناك ترحم نفسك من التوغل في بيدا الضلال ، وهناك تجد شعراء العلويين في عهد بني أمية ، وشعراء الامويين في عصر بني العباس ، تجد هؤلاء وأولئك يقاسون ألوان العنت وصنوف الجهد ، في كتم ما ينم عن مشاربهم الاجتماعية ، ومنازعهم السياسية ، وأكتمى الآن بمثال واحد ، ونوشئت لضربت لك عشرات الامثال ذكروا أن المتوكل على الله كان في اجتيازه الى دمشق قد وجد في حائط

من حيطان دير الرصافة رقعة ملصقة ، فيها هذه الايات :
أيا منزلاً بالدير أصبح خالياً تلاعب فيه شمأل ودبور

كأنك لم تسكنك بيض أو انس
 وأبناء أملاك عباشم سادة
 إذا لبسوا أدراعهم فعنابس
 على أنهم يوم اللقاء ضراغم
 ليالي هشام بالرصافة قاطن
 إذ العيش غص والخلافة لذة
 وروضك مرتاض ونورك نير
 بلي فسقاك الله صوب سحاب
 تذكرت قومي خالياً فبكيتهم
 لعل زماناً جار يوماً عليهم
 فيفرح محزون وينعم بأئس
 رويدك إن اليوم يتبعه غد
 قال ياقوت : فارتاع المتوكل عند قراءتها واستدعى الديراي وسأله
 عنها فانكر ان يكون علم من كتبها ، فهم بقتله ، فسأله الندماء فيه ،
 وقالوا : ليس ممن يتهم بميل الى دولة دون دولة . فتركه . ثم بان أن الايات
 من شعر رجل من ولد روح بن زنباع الجذامي من أخوال ولد هاشم بن
 عبد الملك

وكذلك عصفت السياسة بما ترك شعراء الاحزاب ، وتهدمت
 صروح من الآداب بما ضاع من الشعر السيامي فيما خلا من العصور ،
 وكلنا يذكر ما لقي شعراء البرامكة من عنف الرشيد

ومن هنا وجب على الناقد حين يوازن بين شاعرين أن يعرف
ما أحاط بهما من مختلف الظروف ليكون في حكمه قريباً من الصواب،
فقد رأينا كيف تطمس القوة معالم الشعر البليغ

البحث الخامس

نفسية الناقد

— ١ —

قلت فيما سلف: إن الموازنة نوع من القضاء . والآن نريد أن نبين
أن الناقد كالتقاضي، فكما يجب على الحكم أن يُخلى نفسه من جميع الأغراض
حين يتقدم للحكم بين الناس، كذلك يجب على الناقد أن يبرئ نفسه
من جميع الأغراض حين يتقدم للموازنة بين الشعراء

فاذا أردت أن توازن بين شاعرين فامتحن نفسك قبل ذلك ،
فان رأيت في نفسك الميل لتفضيل أحدهما على الآخر لسبب لا تُسيطر
عليه الحاسة الفنية ، فاعلم أنك في ترجيحك متهم ظنين . وان رأيت
نصرة الادب والحق تغلب على جميع مالك من النوازع ، وآنت في
نفسك القدرة على مقاومة ما يعترضك من التقاليد — ولعالم الادب أيضاً
رسوم وتقاليد — فتقدم الى الموازنة ، وثق أن الرغبة في نصرة الحق
حليفة الفوز المبين

وأنا ذا كر لك من الشواهد على ما يفعل الغرض بالموازنة ما نقله صاحب زهر الآداب عن الحاتمي إذ قال :

« جمعني ورجلين من مشايخ البصرة ، ومن يؤبه اليه في علم الشعر ، مجلس بعض الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إلي في عصبية للبحترى ، وتفضيله إياه على أئى تمام . ووجدت صاحب المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى ، فأنشأت قولاً أنحيت فيه على البحتري أنحاء أسرفت فيه ، وأقندحت زناد الرجل : فتكلم وتكلمت ، وخضنا في أفانين من التفضيل والمائلة ، غلوت في جميعها غلوأ شهده جميع من حضر ، وخضنا في أفانين في المجلس ، وكانوا جللة الوقت وأعيان الفضل ، فاضطر إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام أن يبتدىء ، ولا أن يخرج ، ولا أن يختتم ، ولو لم يكن للبحتري عليه من الفضل إلا حسن ابتداءه ، ولطف خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوجب أن يقع التسليم له ، فكيف بأوابده التي تزداد على التكرار غضاضة وجدّة ؟

ثم أقبل على فقال : أين يذهب بك عن ابتداءه :
عارضتنا أصلاً فقلنا الربرب حتى أضاء الأحقوان الأشنب^(١)
وأخضر موشى البرود وقد بدا منهن ديباج الحدود المذهب
وأين لأبى تمام مثل خروجه حيث يقول :

أدارهم الأولى بدارة جالجل سقاك الحيا ربحانة وبواكره
وجاءك يحكى يوسف بن محمد فروتلك رياه وجادك ما طره
وأنى لأبى تمام مثل حسن انتهائه حيث يقول :

(١) الأشنب : من الشنب بفتحين وهو برد ورقة وعذوبة في الاسنان

اليك القوافي نازعات شوارداً
ومشرقة في النظم غراً يزيدھا
يُسَيِّرُ ضافى وشيهاً ويُنَمِّمُ
بهاءً وحسناً أنها لك تنظم
وقوله في هذا المعنى :

ألست الموالى فيك نظم قصائد
ثناء تحال الروض فيه منوراً
هي الانجم أقتادت مع الليل أنجماً
ضحى وتخال الوشى فيه منمناً
ولقد تقدم البحتري الناس كلهم في قوله

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما
في وسع لسعى اليك المنبر
هذه خلاصة الجزء الأول من هذه المحاور التي وضعت في الموازنة
بين أبي تمام والبحتري. وقبل عرض الجزء الثاني نلفت نظر القارىء الى اختبار
« نفسية » الحائتي صاحب هذا الحديث ، فانا نجد يذكّر أنه كان يعلم
عصبية مناظره للبحتري ، وتفضيله إياه على أبي تمام ، ويذكر أنه تعمد
الإيحاء على البحتري ليقترح زناد خصمه ، وأنه غلا في المائلة غلواً شهده
جميع من حضر ، وأنه أضطرّ خصمه الى أن يزعم أن أبا تمام لا يحسن
الابتداء ولا الخروج ولا الانتهاء ، إلى آخر ما قال

فكيف إذن تقبل هذه الموازنة وهي مصحوبة بهذا العمد ، ومسبوقة
بذلك الإصرار ؟

ثم قال « وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه ، وكان الجماعة أعجبهم
ذلك ، عصبية عليّ لا على أبي تمام ، لأنني كنت كالشجي معترضاً في
لهواتهم ، وأسرّ كل واحد منهم الى صاحبه سرّاً يوميء به الى استيلاء
الوجل عليّ ، فلما استتم كلامه ، وبرقت له بارقة طمع في تسليمي له ،
ابتدأت فقلت : لست ممن يقعّ له بالحصى ، أو تقرر له العصا ، لا إله

الا الله ! استنت الفِصال حتى القرعى : هل هذه إلا عَوَانٌ مفترعة ،
قد تقدم ابو تمام الى سَبَك نضارها ، واقتضاضاً بكارها : وجري البحري
على وتيرته فى انتزاع أمثالها واتباعها »

وهذه القطعة تدل كذلك على أن هذه ليست موازنة بين شاعرين
وانما هي مقارعة بين خصمين ، يريد كل منهما أن يقهر صاحبه ، وأن
يفوز باعجاب الحاضرين ، ألا ترى كيف فطن الحاتمي الى رضى الجماعة عن
فوز البحري ، وان ذلك كان عصبية عليه لا على أبي تمام ، وكيف أسرَّ
كل واحد منهم الى صاحبه مشيراً الى استيلاء الوجل عليه . ثم انظر كيف
غضب ، وكيف ثار ، ل ترى انه لم يغضب للحق ، وانما غضب لنفسه ،
ولم يتنصر للادب ، وانما انتصر لهواه

ثم اندفع يذكّر أن قول البحري فى صفة الغيث مخاطباً الدار

وجاءك يحكى يوسف بن محمد فروتاك رياه وجادك ماطره

مأخوذ من قول ابي تمام

ويبونها فى القلب نوًى شفهُ وله بظاعنها وبالمخلف

وكأنما استسقى لهم محمد من سؤم من من الحيا فى زخرف

وان البحري أخذ قوله

لو أن مشتاقاً تكلف فوق ما فى وسّعه لسعى اليك المنبر

من قول ابي تمام الذي تقدم فيه كل احد لفظاً رقيقاً ومعنى دقيقاً

ديمة شمجة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب

لو سعت بقعة لا عظام نعى لسعى نحوها المكان الجديب

وأن قوله في صفة القوافي :

يسير ضافي وشيها وينمّم

وقوله في صفتها :

ثناء تخال الروض فيه منوراً ضحى وتخال الوشي فيه منمّا

إنما أخذه من قول أبي تمام

حلّوا بها عقد النسيم ونمّموا من وشيها نشرّاً لها وقصيداً

ومن قوله الذي أبدع فيه

ووالله لا أنفك أهدي شوارداً اليك تحمّلن الثناء المبجلاً

تخال به برداً عليك مجبراً ونحسبه عقداً عليك مفصّلاً

الذّ من السلوى وأطيب نفحة من المسك مفتوقاً وأيسراً مجللاً

أخف على قلبي وأثقل قيمة واقصر في قلب الجليس وأطولاً

وان قول البحري :

هي الانجم اقتادت مع الليل انجماً

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عن استيفاء احسانه حيث يقول

أصبح تستمع حرّ القوافي فانها كواكب الا انهن سمود

ولا يمكن الإخلاق منها فانما يلذ لباس البرد وهو جديد

وبعد بيان هذه المآخذ يذكر الخاتمي انه قال لمناظره « فهذه خصال

صاحبك فيما عدده من محاسنه التي هتكت بها ستر عواره ، ونشرت

مطوي اسراره ، حتى استوضحت الجماعة ان احسانه فيها عاربة مرتجمة

ووديمة منزعة » والعناد ظاهر في هذا الكلام

ثم اخذ يسرد طائفة من ابتداءات أبي تمام وانتهاءاته ، ونماذج من

حسن تخلصه ، ولطف اقتضابه ، وبراعة وصفه للقوافي . فاستحسن
ابتدائه اذ قال

لا أنت أنت ولا الديارُ ديارُ خَفَّ الهوى وتَقَضَّتْ الأوطارُ
وزعم أن لن يستطيع أحد أن يبتدىء بمثل ابتدائه حيث يقول :
طَلَلُ الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذاك شهيدا
دَمْنٌ كَأَنَّ البين أصبح طالبا دينا لدى آرامها وحقوقا
وحيث يقول :

ما في وقوفك ساعةً من باسٍ تقضي حقوق الأربع الأدراسِ
فعلَّ عينك أن تجود بدمعها والدمع منه خاذلٌ وموآسي
واستملح اقتضابه حين قال
الحق أبلجُ والسيوف عوارِ خذارِ من أسدِ العرين خذارِ
واستجاد تخلصه إذ يقول

ان الذي خلق خللاق قاتها أقواتها لتصرف الأحراسِ
فالارض معروف السماء قرى لها وبنو الرجاء لهم بنو العباسِ
القوم ظل الله أسكن دينه فيهم وهم جبل الملوك الراسي
وزعم أن ابا تمام هو الذي وصف القوافي بما لم يستطيع أحد وصفها به فقال

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللواؤ المكنونُ
أنسية وحشية كثر بها حركات أهل الارض وهي سكون
ينبوعها خضيلٌ وحلميُ قريضا حلميُ الهدى ونسيجها مَوْضُونُ
قد حاكها صنع الضمير يمدّه حَسَبُ إذا نَضَبَ الكلام مَعِينُ
أما المعاني فهي أبقار اذا نُصِتْ ولكن القوافي عَوْنُ

هذا أتم ما ورد في حديث الحاتمي وهو طويل ، ذكره برمته صاحب
 زهر الآداب ، والذي يعني منه هو ما فيه من العمد إلى النيل من البحري
 والاصرار على كبت منافسه ، وظهوره عليه ، وظفره به ، وانظر كيف
 يقول في ختام هذا الحديث «هل يستطيع أحد أن ينسب هذا أوشيثا منه
 إلى السرقة والاختلاس ؟ وهل يستطيع مماثلته بشي ، من شعر البحري
 أو أشعار المحدثين في عصره ومن قبله ؟ فمي عن الجواب قصورا ، وأحجم
 عن المساجلة تقصيرا ، وحكمت الجماعة لي بالقهر ، وعليه بالنصر ، ولم ينصرف
 عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعه البديع واختراع المعاني
 على جميع المحدثين . وكان يوما مشهودا »

وهذا النوع من النقد لا قيمة له ، ولكنه مع الأسف ظاهر كل
 الظهور في مناهج القدماء ، فقد كان بشار يقول : أنا أشعر الناس . فاذا
 سُئِلَ في ذلك أجاب بأن له اثني عشر ألف قصيدة لا تخلو واحدة منها
 عن بيت نادر ومن ندر له اثنا عشر ألف بيت فهو أشعر الناس . وكانوا
 يختلفون في الموازنة بين جرير والفرزدق ، ثم يفضلون جريرا لأنه قال
 إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلا بعينك ما يزال مَعِينَا
 غِيضُنْ من عبرانهم وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا
 فاذا سألتهم كيف سما جرير بهذين البيتين حتى بذَّ الفرزدق اجابوك
 بأن الفرزدق في فسوقه وجفوره ، لم يُجِدْ التشيب كما أجاده جرير في تحرُّجه
 وعفافه . وقد يقولون : جرير أشعر ، لأن الفرزدق مات امراته فلم يبكِها
 إلا برائية جرير في امراته ، وهي القصيدة التي مطلعها

لولا الحياء لهاجنى استعمار
ولزرت قبرك والحبيب يزأر
وكانوا اذا ذكر شعراء الجاهلية قدم فريق منهم امرأ القيس لقوله
قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فومل
وقالوا: إنه بكى واستبكى وذكر الاحبة في بيت واحد !!
وقدم اخرون النابغة الذبياني لقوله
نبئت ان أبا قابوس او عدني ولا قرار على زأر من الأسد
او لقوله

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المتأى عنك واسع
ومنهم من زعم ان اغزل بيت قاله العرب قول بشار
انا والله أشتهي سحر عيني بك واخشى مصارع العشاق
وان أحكم بيت قاله العرب قول ابي ذؤيب الهذلي
والنفس راغبة اذا رغبته واذا ثرد الى قليل تقنع

وكان يحذر بأدباء هذا العصر أن يضعوا خطة جديدة، لنقد الشعر والنثر، غير ذلك المنهج الذي يركز على تأمل الشطرة في نقد الشعر، والفقرة في نقد النثر، ولما كنهم نسجوا على منوال المتقدمين، فتراهم يُعنون حين يظهر كتاب جديد بالبحث عن مسلكه في استعمال الالفاظ وربما رجعوا الى منجم اللغة ليتبينوا الفرق بين الوضع القديم، والوضع الجديد، وقد اذكر أن الاستاذ صادق عنبر نقد كتاب البؤساء فلم يجد وجهاً لتخطيطه المعرب غير استعمال بعض الالفاظ. فرد عليه الأستاذ علام سلامه يصحح استعمال تلك الالفاظ. فحافظ إبراهيم مخطئ في نظر صادق عنبر

لبعده عن معجم اللغة. وهو مصيب في نظر علام سلامه لقربه من المعجم !
 والحق أن الاعتماد على نقد الشطرة ، والفقرة ، واللفظة ، لا يقدم
 ولا يؤخر في الموازنة بين الكتاب والخطباء والشعراء ، فلا يمكن أن
 تصبح الخطبة ، أو الرسالة ، أو القصيدة ، جيدة : لأن الفاظها جميعاً
 مختارة ، ولا أن تسمى سقيمة : لأن فيها الفاظاً نائية ، وإن كان تخير اللفظ
 من أهم ما يُعنى به الكاتب والشاعر والخطيب . وسأعود إلى هذا البحث
 حين أشرح نظرية «الصور الشعرية» وحين أتكلم عن إعجاز القرآن
 وأرجو أن يكون القارىء اقتنع بما بينته من عمق تلك الطريقة التي
 تركز على استقراء الأبيات المختارة في الموازنة بين الشعراء . فإن كان
 في ريب مما أسلفناه فليجب على هذا السؤال : ارضيه ان اقول ان شوقي
 اشعر الناس لقوله

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي

ومطران اشعر الناس لقوله

بنات الدهر عوجى لا تهابى خلا الوادى من الأسد الغضاب

وحافظ اشعر الناس لقوله

عملم على عز الجاد وذلنا فأغليتمو طيناً وارخصتمو دماً

انك أيها القارىء لا ترضى عن هذه الخلطة المبهمة ، لأنها تبيح لمثل
 في تخلفه ان يزعم أنه أشعر الناس لانه يقول

بقية من صباك الغض باقية وجذوة من غراي وقدها باقى

تعال نخني شهيد اللهو ثانية ونصرع الهم بين الكأس والساقى

ولكن هيات !

البحث السادس

« الحاسة الفنية »

— ١ —

هذا تعبير حديث ، يقابل « سلامة الذوق » أو « الذوق السليم » في عُرف المتقدمين. والحاسة الفنية في نظري أدق من سلامة الذوق. لأن فيها من معنى الفاعلية والإحاطة ما لا نجد في التعبير القديم. وهي ترجمة لكلمة *Sens* التي يراد بها في هذا المقام أن تؤدي معنى ملكة التمييز أو قوة الإدراك ، ومع أنها أدق فهي تشمل سائر الفنون بخلاف كلمة « الذوق » فإنها قد تكون بمعنى الشعور بالحسن وقد تكون عبارة عن الميل الخاص وقد يينا في البحث الأول أنه يجب أن يصل من يتصدّر للموازنة بين الشعراء إلى درجة عُلْيَا في فهم الأدب ، وأن يصبح وله في النقد حاسة فنية تصرفه عند الحكم عن كل ما يفسده من الأهواء والأفراط ، وذكرنا أن من الناس من يطرب للشعر لا لأنه شعره ، بل لأنه طرق موضوعاً يحبه ، وكشف عن معنى تميل نفسه إليه . وقد لا يكون ماسمعه أو قرأه جيلاً من الوجهة الفنية ، ثم ضربنا لذلك الامثال والآن نعود إلى « الحاسة الفنية » بشيء من التفصيل ، فنذكر كيف يعول عليها المتقدمون من رجال البيان ، ونبين الوسيلة إلى الظفر بهذه اللوهمية العزيزة المنال ، ثم نبيط اللثام عن حقيقة هذه الحاسة ، التي لا تظهر ظهوراً جلياً إلا حين تمنع في الخفاء.

يرى صاحب المثل السائر « أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم،
الذي هو أنفع من ذوق التعليم، وإن الدُّرْبَة والإِدْمَانُ أَجْدَى عَلَى الْقَارِئِ،
نَفْعًا، وَأَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا، وَأَنْهَمَا يُرِيَانَهُ الْخَيْرَ عِيَانًا، وَيَجْعَلَانِ عَسْرَهُ
مِنَ الْقَوْلِ إِمْكَانًا، وَكُلُّ جَارِحَةٍ مِنْهُ قَلْبًا وَلِسَانًا » ويقول لقارئ كتابه
« نَحْذُ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ مَا أَعْطَاكَ، وَاسْتَنْبِطْ بِإِدْمَانِكَ مَا أَخْطَاكَ، وَمَا
مَشَى فِيهِمَا مَهْدَتَهُ لَكَ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَّا كُنْ طَبِيعًا سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ
لِتَقَاتِلَ بِهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا، فَإِنْ جَمَلَ النِّصَالُ غَيْرَ مُبَاشَرَةٍ
الْقِتَالِ » (١)

ومعنى هذا أن كتب القواعد لا تُورث القارئ « الذوق » ولا
تُنَحِّهِ « الحاسة الفنية » وإنما يكسب ذلك بالدُّرْبَة والإِدْمَانِ عَلَى مِطَالَعَةِ
الْكَلَامِ الْبَلِيعِ، وَالْقَوَاعِدُ لَا تَنْفَعُ مِنْ لَا ذَوْقَ لَهُ كَمَا لَا يَنْفَعُ السَّيْفُ
مَنْ لَا قَلْبَ لَهُ

وإنما يبلغ الإنسان طاقته ما كل ما شية بالرَّحْلِ شِمَالًا (٢)

ولكن لا تحسب أن إدمان الاطلاع كافٍ لكسب الذوق، بل يجب
أن تكون المطالعات مصحوبة بالفهم، والتذوق لجمال القول وسحر البيان
أما إذا كان الغرض من القراءة حفظ الشواهد والامثال — كما يفعل رجال
اللغة والرواية — فإنه يبعد أن يظفر القارئ بالحاسة الفنية، وهذا
أبو العباس المبرد كان في علمه وإطلاعه يذكر أنه كان يحتاج إلى اعتذار من
قَلْتَةِ، أو التماس حاجة، فيجعل المعنى الذي قصده نصب عينيه، ثم لا

يحمد سبيلا الى التعبير عنه بيد ولا لسان .. ولا سبب لذلك فيما نرى الا
أن المبرد لم يُمن بدرس أسرار البلاغة ، وإنما انصرفت همه الى اللغة
والرواية والنحو والتصريف : ومن هنا لم يحسن الاختيار

قال الجاحظ طلبت علم الشعر عند الاصمعي فوجدته لا يحسن الا
غريبه ، فرجعت الى الاخفش فوجدته لا يتقن الا إعرابه ، فعطفت
على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل الا ما اتصل بالاخبار ، وتعلق بالايام
والانساب ، فلم أظفر بما أردت الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب
ومحمد بن عبد الملك الزيات

ولم يبين الجاحظ سبب هذا ولا فسر له ابن رشيقي ، وقد بينت لك
أن تقدم الكتاب على الرواة في فهم البلاغة إنما يرجع الى كلف الكتاب
وشغفهم بالوقوف على سر البيان ، لانهم يزاولون البلاغة من طريق
الأداء ، لا من طريق النقل ، والفرق بين الوجهتين بعيد . ومن ثم كان
الكتاب « أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيفاً ، وأحلام ألفاظاً
وألطفهم معاني ، وأقدرهم على التصرف ، وأبعدهم من التكلف » (١) وكانوا
يرونهم دهاقين الكلام ، ويستملحون ما يحودون به من حين الى حين ،
كقول ابراهيم بن العباس الصولي

ابتداءً بالتجنّي	وأقتضاه بالتظني
وأشتقاه بتجنّي	لك لا عدا لك مني
بأبي قل لي لكي أء	لم لم أعرضت عني
قد تمنى ذاك أعدا	ني فقد نالوا التمني

و كقول محمد بن عبد الملك الزيات

قام بقلبي وقعد لما نفي عنى الجلد
يا صاحب القصر الذى أسهر عيني ورقد
وآعطشتى إلى فم يمج خمرًا من برد
إن قسم الناس فسه بي بك من كل أحد

و كقول ابن رشيق

قد أحكمت منى التجا رب كل شىء غير جودى
أبدأ أقول لئن كسبت لأقبضن يدي شديد
حتى إذا أثريت عذت إلى السباحة من جديد
إن المقام بمثل حا لى لا يتم مع القعود
لا بد لى من رحلة تدنى من الأمل البعيد

وكان أستاذنا المرحوم الشيخ محمد المهدي بك يقول « كما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة ، كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ، ولا يحول فى ميدان فسيح من المعانى ، ولا يقدر الاشياء قدرها ، إلا بالمقارنات الكثيرة ، التى تمثل فى النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكمًا غير مزعزع ولا مدافع » وما نسميه (الحاسة الفنية) كان يسميه (ملكة الأدب) وكانت السبيل عنده لتحصيل هذه الملكة هى المقابلة بين المعانى والألفاظ ، والمقارنة بين المفردات والأساليب ، وتعليل كل تحسين وتقبيح بما يقنع المتأدب ، ويدنيه من الفهم الصحيح

وأعود فأذكر أن الحاسة الفنية عزيزة المثال ، ومع هذا يدعيها جميع

الناس ، وإنما كانت عزيزة المنال لأننا نزن بها البيان ، والبيان كالجمال كثير التعقيد . ألا ترى أنك لا تعتمد برأي من يحسب البياض نصف الحسن ، ويرى تمام الصباحة في الجمع بين سواد الشعر وبياض الجبين ؟ وكان ذلك لأن الجمال نوعان : معقد وبسيط ، وأريد بالجمال البسيط ذلك النوع من الوسامة الذي يدركه أكثر الناس ، والذي يُعرف بتناسب الاعضاء ، وهذا النوع في سهولته وبساطته يشبه الألوان الاخاذة التي يهش لها صغار الأحلام من النساء والأطفال . أما الجمال المعقد ، وما أروع الجمال المعقد — فهو ذلك النوع الخطر الذي لا يفهمه إلا أصحاب الأذواق ، وهذا النوع من الصباحة لا يرجع إلى فتنة الخدود ، وسحر العيون ، وإنما يرجع إلى ما هو أخطر من ذلك ، يرجع إلى دقائق من الحسن ، وغرائب من الملاحظة ، لا يعرف تأويلها غير الراسخين في علم الجمال . حدثني بربك كم في هذه « الأعداد » التي تراها في طريقك ممن يتذوق جمال اللقطة ، والخطرة ، والمشية ، ولم يفهم ممن يتخطى سواد العين ، ثم يحاول فهم ما في العين من رموز والغاز ، وفي العين ما شئت وشاء السحر من اللبس والتعقيد !! ولم يفهم ممن يعذر أبا الأسود إذ يقول :

أني القلب إلا أم عمرو وجبها عجزاً ومن يحب عجزاً يفند
كبرد اليماني قد تقادم عهده ورقعته ما شئت في العين واليد

وهذا الجمال المعقد هو الذي أسمعك صرخة الحكم الخضرى

حين قال :

فوالله ما أدري أزيدت ملاحه وحسننا على النسوان أم ليس لي عقل
وهو الذي صدق في وصفه ابن الأحنف إذ قال :

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً

وكذلك البيان يا صاح ، فيه معقد وبسيط . أما البيان البسيط فهو ذلك النوع السهل الذي يفهمه سواد الناس ، كقول طرفة بن العبد :
سَتَبْدَى لَكَ الْيَوْمَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَرُودِ
وكقول لييد :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ
وكقول شوقي

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
ويكثر هذا النوع في القرآن حين تمس الحاجة إلى ترغيب الجماهير .
كقوله تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس
نزلاً . خالدون فيها لا يغيون عنها حولا » وكقوله عز شأنه « وما نرسل المرسلين
إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن واصلاح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
والذين كذبوا بآياتنا يسهمهم العذاب بما كانوا يفسقون » وكقوله تبارك
اسمه « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير
لقوم يؤمنون » وهذا النوع من البيان هو المرجع في المعاملات ، وقد
تجب فيه البساطة المطلقة حين يُستخدم في تحرير الاتفاقات والمعاهدات
والعقود ، وما إلى ذلك مما تحدد به العلاقات بين الأمم والافراد ، وهذا
النوع لا يحتاج إلى الحاسة الفنية ، وإنما يحتاج إليها البيان المعقد الذي قيل
فيه « ان من البيان لسحرا » والذي قيل فيه « شئتان لا نهاية لهما : البيان
والجمال » وفي الناس من يفتنه اشراق الديباجة ، وتخلبه رشاقة الاسلوب

كما يسحره الجبين المشرق ، ويضله القدر الشيق

والتعقيد الذي أعنيه غير التعقيد المعروف في علم المعاني ، فلست أريد اللبس والغموض حين أتحدث عن البيان المعقد ، كما لا أريد الوجوه المتنوية حين أتكلم عن الجمال المعقد ، وإنما أصف البيان والحسن بالتعقيد حين يكون للوجه الوسيم ، والاسلوب الجميل ، قوة في التأثير يحار في تعليلها اللبيب ، ومن هنا كان الافدمون يظنون أن الشعر من وحي الشياطين ، ومن أقدر من الشيطان على العبث بالعقول !

والقصة المشهورة التي جاء فيها أن أحد أقيال اليمن قدم الى دار الندوة فبصر فيها بالنبي عليه السلام وهو إذ ذاك غلام مرأهق ، فقال لمن حضر من القوم : ان هذا الغلام ينظر اليكم بعيني كبؤة وتارة بعيني عذراء خفيرة ، فلو أن نظرتة الاولى كانت سهماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً ، ولو أن نظرتة الثانية كانت نسيماً لانشرت أمواتكم ، هذه القصة فيها شيء من التعليل للجمال المعقد ، ولكن يظهر أننا انتقلنا الى عالم النفس ، ويظهر أيضاً أن الجمال لا يعقد الا حين تعقد النفس ، والنفس لا تعقد إلا حين تصبح كالبحر تصطبغ فيه الأمواج ، أو كال ميدان تشتجر فيه الرماح ، أو كالقلب تقتتل فيه الأشجان ، ومن يديرنا لعل جمال يوسف عليه السلام كان من هذا القبيل ، فما نطن أن صواحباته قطعن أيديهن ، وعذرنا فيه امرأة العزيز ، لأسالة خده ، وسواد شعره ، وإشراق جبينه ، وإنما نحسب أن تلك النفس النبوية التي تضم ما تضم من دقائق الغيوب ، تلك النفس الجبارة ، السحارة ، القهارة ، تلك النفس المفردة في عالم النفوس ، هي التي جعلت لجمال يوسف ذلك السحر الذي تقطعت به الأيدي بعد

تمزيق القلوب . وسبحان من يعلم ما كان يحول بخاطر ذلك الغلام الجميل محمد بن عبد الله وهو في دار الندوة حتى حار ذلك القيل في أمره ، فلم يدر أينظر بعيني لبؤة ، أم بعيني عذراء خفرة ، وحسبنا ان نذكر أن الله كان يُعده لحمل الرسالة ، ويرشحه لتبليغ تلك الدعوة التي لا يزال صدها يرن في أجواز الوجود

ولبيان المعقد مثل هذا النصيب من بُعد الغور ، ودقة المدلول ، فهو ذلك النوع المعجز الذي تسكن اليه القلوب ، وتحار في تعليله العقول ، هو ذلك النوع الذي يقرؤه سواد الناس فيفهمونه ، ثم يقرؤه الخاصة فيفتنون به ، ويحارون في تعليل حسنه ، ثم لا يحسن واصفهم إلا أن يقول : هذا هو السحر الحلال !

— ٤ —

على أنه يمكن الناقد أن يذكر بعض خواص هذا النوع من البيان : فهو تارة يرتكز على سمو الخيال ، كقول بعض الحكماء « من غمَسَ يده في مال السلطان فقد مشى بقدمه على دمه » في هذه الكلمة من روعة التخيل ، وحسن التصوير ، ما يدهش العقول ، ويحير الالباب ، وكقول أُرطاة بن صهية المري

فلو أن ما نُعطى من المال نبتني به الحمد يعطى مثله زاهر البحر
لظلت قراقرم صياماً بظاهر من الضحل كانت قبل في لجج خضر^(١)

(١) القراقرم السفن ، والمفرد قرقور على وزن عصفور ، وصيام السفن ركودها والضحل الماء القليل لا عمق له ، واللجج الخضر هي السوداء

فقد صور لك البحر الذي عجزت عن حربه الليالى بصورة بشعة
 خفيفة ، يهابها الوهم ، وتحامها الظنون ، فهو يذكر أن البحر الزاخر ،
 الذي يُجَنّ ما يُجَنّ ، ويُظهر ما يُظهر ، والذي يروعك منظره ، ويهولك
 مخبره ، يذكر أن ذلك البحر لو بذل مثل ما يبذل هذا الجواد في سبيل
 الحمد لأصبحت السفن راكدة فوق صُبابات من الماء ، وقد كانت قبل
 في لجج رهيبة السواد . وهذه الصورة هي التي بررت مبالغة الشاعر في
 وصف قومه الأجواد ، وإن عز البحر عن النظائر وجلّ عن الأشباه
 ومن رائع الخيال قول أبي نواس

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم في رسم

تفص به عيني ويلفظه وهمي

أنت صور الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم
 فانت تراه وقد وقف أمام ذلك الرسم الذي نال منه العفاء ، وغيره
 الدروس ، حتى أرتاب فيه ، وغصت به عينه ، ولفظه وهمه ، ثم أغرقك
 في بحر من التخيل حين قال

أنت صور الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم
 وعليك أن تستوعب هذا المعنى ، فقد فتحت لك الباب

وكان الرشيد يعجب بقول صريع الفواني

إذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت به مشي القيد في الوحل
 وكان يقول : قاتله الله ! ما كفاه أن جعله متقيداً حتى جعله في وحل !

وهذا كما ترى أبداع ما يُصور به النشوان

ولا تنس القرآن ، فانه غاية الغايات في روعة الخيال ، وانظر قوله

تعالى « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه
مستجابٌ ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض » ولا يدرك هذا المعنى الفخيم الا
من ذاق بأس الحياة ، ورأى كيف يكون هَوَجُ الريح ، وجنون الموج ،
وعسف الظلام ، وكم في الحياة من أهوال !

وقد يرتكز البيان المعقد على بساطة الأداء ، وهذا أحسن تأويل
لكلمة « المطمع المعتنع » فقد تقرأ الكلام السهل البسيط فتحسب أنك
على مثله قدير ، حتى إذا حاولت أن تأتي بشيء من مثله عزّ عليك
وامتنع . واليك قول ابن الدمينه يوصي حبيبتة بالقسوة على الوشاة ،
وبالصلافة حين يحور اللاتئون

وكوني على الواشين لداء شغبه كما أنا بالواشي الدُّشغوبُ
وكوني إذا مالوا عليك صليبة كما أنا ان مالوا علي صليبُ

فهذا كلامٌ سهل ، يسكن اليه القلب ، وتخلد اليه النفس ، ولكنه
يعز على من يرومه ، ويطول على من يسمو إلى محاكاته . ومثله في بساطته
ودقته قول بعض الاعراب

إذا اجتمع الجوع والبرح والهوى على الرجل المسكين كاد يموتُ
وهي فكاهة رقيقة يسم لها ثغر الحزين . وأظرف منه قول الآخر
وقد تمردت عليه امرأته ، وضربت على إيدائه

ياربِّ إن قتلها فعُدْ لها فلن تموتَ أو تُجيد قتلها
فقد مثلها بالحية النضناض ، التي يقتلها المرء تقتيلاً ، ثم لا تزال تبدو

لعينيه وكأنها تسعى !

وقد يرجع تعقيد البيان ودقته وسحره الى نفس المبين : من شاعر
أو كاتب أو خطيب . فان هناك نفوساً خطيرة ، قد تُضِلُّك وقد تهديك
حين يكتب أصحابها وحين يتكلمون . وانظر قول موسى بن جابر
وقد رأى تجمع الأعداء وتوئهم

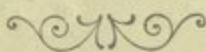
قلت لزيد لا تترتر فأنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فان وضعوا حرباً فضعها وإن أبوا فعرضة عض الحرب مثلك أو مثلي
وإن رفعوا الحرب العوان التي ترى فشب وقود الحرب بالخطب الجزل
فهذه النفس المعقدة في اغراضها ومرامها هي التي وقفتك موقف
الحيرة امام هذه الاثبات ، فأنت ترى فتى شجاعاً مقداماً لم تنسه
شجاعته ولا اقدمه ما يحيط به من عظام الاخطار ، فهو ينصح لرفيقه
ويوصيه بالخذر والرفق ، ويدعوه الى وضع الحرب إن وضعها الأعداء ،
والى شب وقودها بالخطب الجزل إن أبوا الا القتال ، وهذا هو الجمع
بين الحزم والشجاعة ، وقل من يجمع بينهما من أفذاذ الرجال

وانظر قول الآخر يتوجع من الوحدة والغربة في بلاد الأعداء
وقلت لفلان بعرنان ما ترى فما كاد لي عن ظهر واضحة يدي
تبسم كرهاً وأستبنت الذي به من الحزن البادي ومن شدة الوجد
إذا المرء أعرأه الصديق بدت له بأرض الأعداء بعض ألوانها الربد

وتلك أيها القارئ خواص يُراد بها التقريب لا التحديد ، فإن المرجع
إلى الحاسة الفنية ، وهي قد تدق حتى يعجز صاحبها عن تعليل ما يستجده

من الكلام البليغ ، والآمدى يضرب المثل بالفرسين السليمين من كل عيب ، وفيهما جميع علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية ، وبالجاريتين البارعتين في الجمال ، السليمتين من كل عيب ، يفرق بينهما العالم بالرفيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلاً كبيراً ، بدون أن يتذر على عبارة توضيح وجه ذلك الفرق ، وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درجته وطول ملاسته ، وكذلك الشعر ، كما يقول الآمدى ، قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحداً ، وإيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفاً

وحكى إسحق الموصلي قال : سألت محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما . فاخترت . فقال من أين فضلت هذا على هذا ، وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لامكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشئ ، تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان والطبيعة في كلام إسحق هي ما نريده من الحاسة الفنية ، وفي هذا القدر كفاية فقد طال بنا الحديث



البحث السابع

خطر الإيهام والغموض

- ١ -

ومن شروط الموازنة أن يكون النقد مؤسساً على قواعد واضحة صريحة ، لا إيهام فيها ولا غموض ، يظفر الناقد باقتناع القارى ، وليكون نقده مادة جديدة في عالم البيان

وأخطر ما يعرض للنقد والمائلة أن يعتمد الموازن إلى التعابير المصبوغة في قوالب المجاز ، فانها بثس الاداة في الفصل بين الشعراء ، كأن تقول « هذا شعر أبدت صدوره متونه ، وزهت في وجوهه عيونه . واتقادت كواهلها هودايه ، وأشبهه الروض في وشي ألوانه وإشراق أنواره ، وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبهه الوشي في اتفاق رُقومه ، واتساع رُسومه ، وتسطير كفوفه ، وتمجير حروفه ، وحكى العقد في الثمام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفربده بشذره ، قد كشف الإيجاز موارده ، وصقلت مداوس الدربة مناصله ، وشحذت مدارس الأدب فواصله » ، وهذه التعابير المجازية المبهمة مأخوذة من فصل لأبي العباس الناشي ، في وصف الشعر الجميل . وهو صاحب هذه المنظومة :

الشعر ما قومت زيف صدوره	وشددت بالتهذيب أسر متونه
ورأيت بالأطناب شعب صدوعه	وفتحت بالايجاز غور عيونه
وجمت بين قريبه وبعيده	ووصلت بين حجمه ومعينه
وعهدت منه لكل أمر يقتضي	شبهاً به فقرته بقرينه

وهي منظومة طويلة عني بها المتقدمون ، كما عُنوا بمنظومته الأخرى
التي يقول فيها :

إنما الشعر ما تناسب في النظر — وإن كان في الصفات فنونا
فأني بعضه يُشاكل بعضاً قد أقامت له الصدور المتونا
كل معنى أتاكَ منه على ما تمنى لو لم يكن أن يكونا
فتناهي من البيان إلى أن كاد حسناً يبين لناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوه والمعاني رُكبت فيه عيونا
وعيب هذا الضرب من الوصف أنه لا يعني في تحديد الموصوف
بل يلقى عليه أستاراً من اللبس والغموض ، فانه لا قيمة لمَدح الشعر
بتقويم زِين صدره ، وشِد أسر متونه ، واجمع بين قريبه وبعيده ،
والوصل بين بحه ومعينه ، وما إلى ذلك من الصفات المبهمة التي يفرغ
بها المتكفون

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره بديع الزمان في مقاماته إذ قال
« جلسنا يوماً نتذاكر الشعرَ والشعراء ، وتلقانا شابٌ قد جلس غير بعيد
ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا
ميله ، وجر الجدل فينا ذيله ، قال أصبتم عذيقه ، ووافيتم جذيله ، ولو
شئت للفظت ، ولو أردت لسردت ، وجللوت الحق في معرض بيان
يسمع الصم ، ويردى المصم ، فقلت يا فاضل ادن فقد منيت ، وهات
فقد أنثيت ، فدنا وقال : سلوني أجيبكم ، واستمعوا أعجبكم ، قلنا فما تقول
في أمرى القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرضاتها ، وأغتندى

والطير في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتهما ، ولم يقل الشعر كسباً ، ولم يجد القول راغباً ، ففضل من تفقّق للحيلة لسانه ، وأنجع للرغبة بنانه . قلنا وما تقول في النابغة ؟ قال ينسب إذا عشق ، ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، فلا يرني الا صائباً . قلنا فما تقول في طرفة ؟ قال هو ماء الاشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تطلق عتاق خزائنه . قلنا فما تقول في جرير والفرزدق ؟ قال : جرير أرق شعراً وأغزر غدراً ، والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر نخراً ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً ، والفرزدق أكثر روماً وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا وصف أوفى ، وإذا احتقر ازرى . قلنا فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر في المعاني حظاً ، والمتأخرون ألطف صنماً ، وأرق نسجاً .

ولو عدنا لهذه الموازنة لوجدناها جملة من الصفات الفضفاضة التي تصلح لبوساً لكل موصوف ، فكل شاعر فيما أظن « ينسب إذا عشق ، ويثلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب » ومن اللبس أن تقول في وصف شاعر « هو ماء الاشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينها » أو أن تقول « إنه أمتن صخراً وأكثر روماً » ومن المجازفة أن تقول « المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر في المعاني حظاً » وقد ظرّف من لاحظ أن الاغتداء والطير في وكناتها من خواص اللصوص وهذا بالطبع لا يقدر في سمو تلك العبارة إلا حين ترسل بلا تقييد ، وقد قيدها امرؤ القيس حين قال :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكلي
على أن هذا البيت لا يدل على أن صاحبه « أول من اغتدى والطير
في وكناتها » كما قال بديع الزمان

وقال ابن دُرَيْد : سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال : إن جدَّ
أحسن ، وإن هزل ظُرف ، وإن وصف بالغ ، يلقى الكلام على عواهنه
لا يبالي من أين أخذه . قلت فبشار بن برد ؟ قال : نظار غوَاص ، مطيل
مجيد ، يصف ما لم يره كأنه رآه ، على أن في شعره خلافاً كبيراً . قلت
فروان ابن أبي حفصة ؟ قال : شاعر راض عن نفسه ، يستحسن كل ما جاء
منه ، مُعْجَب لا يرى أن أحداً يتقدَّمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ،
ليس لشعره صنعة . قلت فسلم ابن الوليد ؟ قال : خليج صاف ينزع من
بحر كدر ، كالزند يُورى تارة ويصلد أخرى . قلت فابو العتاهية ؟ قال
غناء جم ، واقتدار سهل ، وشعر كخرز الزجاج ، وربما أشبه الياقوت
والزبرجد . قلت فعباس ابن الأحنف ؟ قال : يلقى دلوه في الدلاء فيغترف
الصفو أحياناً والحماة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه . قلت
فسلم الخامس ؟ قال : مُقِل مدّاح ، شعره ديباج ورعين ، يمويه الردي ، حتى
يُشبه الجيد . قلت فابو الشيص ؟ قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة ،
كالسُدرة التي نفضت فيها المستعذب والمستبشع . قلت فعلي بن جبلة ؟
قال : بَحاث عن الكلام الفخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينال مرتبة القدماء ،
ويجلى عن منزلة النظراء . قلت فابو تمام ؟ قال : مسيل كثير الغناء ،
غزير الغمار ، جم النطاف . فاذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال . قلت فعبد

الصمد ابن المذلل ؟ قال : خراج ولاّج . يعتسف تارة ويهتدي أخرى . قلت فلي بن الجهم ؟ قال : كلام رصين ، ومسلّك وعرّ ، عقله أغلب على شعيره من طبعه . قلت فبكر بن النطّاح ؟ قال : تشبه بالاعراب فأفرط ، وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط بين القريتين »

ولا ننكر ان في هذا الضرب من القول بياناً لبعض خصائص الشعراء ، ولكننا نستنكر ان تحدّد شاعرية شاعر بأنّه « خراج ولاّج » ، يعتسف تارة ويهتدي أخرى « أو بأنّه « خليج صاف ينزع من بحر كدر » أو بأنّه « لا ينال مرتبة القدماء ، ويجل عن منزلة النظراء »

ومما يؤسف له ان الميل الى الإيهام كان يغلب على المتقدمين ، ولم يسلم منه الجاحظ على بصّره بالبيان والتبيين ، فقد كان يصف شعراً بـ « العتاهية » بأنّه « أملس المتون ، ليس له عيون » وهي عبارة مجازية لا تؤدى الى معنى محدود

ويُضاف الى هذا إغفالهم ضرب الأمثال ، وإطلاقهم الحكم بلا ينة ولا دليل ، في حين أن الموازنة لا يراد بها غير التمييز والفصل بين ما قال الشعراء في مختلف الاغراض

وقد سرت هذه العدوى الى شعراء العصر وكتّابه ، فنجد مصطفى الرافعي يقول في وصف الشعر « لو كان طيراً يتغرّد لكان الطبع لسانه ، والرأس عشه ، والقلب روضته ، ولكان غناؤه ما نسمعه من أفواه الجيدين من الشعراء » ونجد محمد السباعي يصف شكسبير بأنّه « منحة

الطبيعة وجائزة الدهر» ونجد حافظ ابراهيم يصف شعر فيكتور هيجو فتكون غايته أن يقول :

ما ثغور الزهر في أكامها صاحكات من بكاء السحب
نظم الوسمي فيها لؤلؤاً كثنيا الغيد أو كالجيب
عند من يقضى بأبهى منظرًا من معانيه التي تلعب بي
بسمت للذهن فاستهوت بهي مغرم الفضل وصب الأدب

ولا يزال الادباء يذكرون قول المنفلوطي في الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويز «لولا مقامه في اللواء، ومذهبه في الهجاء، لكان هو وفريد وجدى سواء» وقوله في المرحوم قاسم أمين «ما رأيت باطلاً أشبه بالحق من باطله» — وتلك كلها عبارات مبهمة لا تقنع طلاب البيان

— ٥ —

إنما يجب على الناقد الذي استوفى ما أسلفناه من الصفات :

١ — أن يذكر حياة من يوازن بينهم من الشعراء، وأن يُعين ما في حياة كل شاعر من ألوان الشدة، أو صنوف الرخاء

٢ — وأن يبين الحالة الصحية لكل شاعر ليعرف ما قد يعرض لمزاجه من الاعتلال

٣ — وأن يقدر السن التي قيل فيها ما يُريد وزنه ونقده

٤ — وأن يحدد الصفات التي اشترك فيها من يوازن بينهم، والصفات التي انفرد بها كل واحد منهم، ثم يتغلغل في تحليل المعاني والألفاظ والأساليب، ويوازن بين القصائد والمقطوعات والابيات اليتيمة

٥ — وأن يدقق النظر في تمييز المعاني المبتدعة من المعاني المسبوقة،

ويبين كيف تناول الشاعر المعنى الذى سبق اليه ، وكيف هذب به ، وكيف
بَسَطَهُ ، حين يَجُودُ أَخْذُهُ وتَلَطَّفَ سرقة ، وكَم في الشعراء من
سارق لطيف !

٦ - وان يعدّ ما برز فيه الشاعر من المطالع والمقاطع ، وما أجاد
أخذه ، وما ابتكره ، وما انفرد به ، فقد يبتكر الشاعر المعنى ثم يُغلب
عليه حين يقصر في تأديته ، وقد يبتكر المعنى ثم ينفرد به حين يبلغ
الغاية في الأداء

٧ - وان يبين الفرق بين الشاعرين حين يشتركان في الإبانة عن
غرض واحد ، وحين يختلفان في ذلك

٨ - وأن يبين اسباب السَّبْق ، وأسباب التَخَلُّف ، مع التعمق في
أستقراء ما لكل شاعر من خطرات النفس ، ولفقات القلب ، ونوازع
الوجدان

٩ - وأن يعدّ ما لكل شاعر من المعاني الموضوعية ، التي اقتضاها
زمانه ومكانه ، والمعاني الإنسانية ، التي تصلح لجميع الناس ، على تباين
الأمكنة واختلاف العصور

١٠ - وأن يذكر بعد ذلك كله ما لكل واحد من « الصور
الشعرية » - وسنعود الى هذا المعنى الأخير بالبسط والبيان



ذكر في الاستيفاء
في هذا الموضع
هذا الموضع

البحث الثامن

الصور الشعرية

— ١ —

عند صيد

هذا فن جديد في نقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، أقيمت عنه محاضرة في الجامعة المصرية في سنة ١٩٢١ ، ثم اخترته للمناقشة العلنية في امتحان الدكتوراه ، فساعدني ذلك على تحديده ، وضبط المراد منه ، وكشف ما يعتوره من الغموض . وإلى القارئ البيان

« الصورة الشعرية هي أثر الشاعر المفلق الذي يصف « المراتيات » وصفاً يحمل قارئ شعره ما يدري أيقراً قصيدة مسطورة ، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود ، والذي يصف « الوجدانيات » وصفاً يخيل للقارئ أنه يُناجي نفسه ، ويحاور منميره ، لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد »

والصورة الشعرية لا تكمل إلا حين يحيط الوصف بجميع أنحاء الموصوف ، فليس منها قول أبي نواس في وصف الراح

صهباء تبني حباً بآ كلاً مزجت	كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان
كانت على عهد نوح في سفينته	من حر شحنتها والارض طوفان
فلم تزل تعجم الدنيا وتعجمها	حتى تخيرها للخبء دهقان
فصانها في مغار الارض فاختلفت	على الدفينة أزمان وأزمان
ببلدة لم تصل كلب بها طنباً	ولا خباء ولا عبس وذبيان

ليست لذُهل ولا شيبانها وطناً
أرض تبتى بها كسرى دساكره
وما بها من هشيم العرب عَرْفجة
ولا بها من غذاء العرب، خطبانُ
لكن بها جلتار قد تفرعه
آس وكلله وردٌ وسُوسان.

ولو عُرِضت هذه القصيدة على رجل من أدباء العصر، أو لو أنها
عُرِضت على رجل من الأدباء في الأعراس الخالية، لو صفت على الأقل
بأنها رشيقة الأسلوب، متينة التركيب، ولسكننا سنين أنها قصيدة
جوفاء، لا حظ لها من الروعة ولا نصيب لها من الجمال.

أراد أبو نواس أن يصف الحجر. ولكن هل وضع صورة شعرية
تتنظم ما للخمر من اللون والعبير، وما لها من العبث بالعقول، واللعب
بالنفوس؟ كلا! لم يصنع شيئاً من ذلك، ولكنه ذكر فقط أنها كلما
مزجت تبني حباباً كأنه لؤلؤ يتلوه عقيان، ثم اندفع يذكّر أنها عتيقة
وأن عهداً بالوجود قديم، وقد جره ذلك إلى الإغراب في الكذب
فذكر أنها كانت خير ما شحن في سفينة نوح، وأنها ما زالت تغالب
الدهر، وتصانع الحدثان، حتى ظفر بها دهقان ما كره دفنها في مغار
الأرض، وأخفاها عن عيني الزمان. ولم يكفه ذلك، بل ذكر أن
الأرض التي دفنت فيها هذه الحجر أرض كسروية، لم ينصب فيها خباء
لعيس ولا ذبيان، ولم ينبت بها عرفيج ولا خطبان، بل زينها الجلتار،
والورد، والآس، والسوسان.

إذاً أخطأ أبو نواس، حين غلا في الإشادة بعشق الصبهاء، لأن
عشاقها لا يشعرون بالحاجة إلى إقامة البيئة على أنها من عهد الطوفان،

مهما أحبوا أن تكون قديمة العهد بالوجود ، فقد يكفيهم أن توصف
بالقديم ، وأن تكون لقدمها كما قال ابن الرومي

لطفت فقد كادت تصير مُشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها

أو كما قال ابن المعتز

جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبرأ خلسة السبك
فقد خفيت من صفوها فكأنها بقايا يقين كاد يدركه الشك

ويكاد القساريء لقصيدة أبي نواس يتوهم أنه يقرأ شيئاً غير
وصف الخمر ، ويكاد يحسب أنه يقرأ موازنة بين ما تنبت البلاد العربية
وما تنبت البلاد الفارسية ، إذ يرى الشاعر يشيد بما بنى كسرى من
دساكر ، وما بأرض الفرس من ورد وآس ، ويسخر مما للعرب من طنب
وخباء وما بارضهم من عرفج وخطبان

ولو لم يمتل في يبداء هذا الفضول لكان للغلو في وصف الخمر
بالقدم شيء من الروعة ، أو كان على الأقل مما تسيغه النفوس ، فما نظن
أحداً يستنكر قول البحري في وصف الشمول

بكرت تقدمت الزمان بفرسها إن كان قبل الدهر شيء بفرس

ولنفرض أن أبا نواس أجاد في وصف الخمر بالقدم ، وأنه في ذلك غير
مسبق ، أفيمكن أن يوصف الشيء من ناحية واحدة مهما كان وصفها
سابقاً ليصبح الموصوف وهو ممثل من جميع الجوانب ؟ إن هذا لبعيد !
ولا تنكر أن الصفة الغالبة لشيء من الأشياء قد تصرف الشاعر عما
عداها من الصفات ، وليس قدم الخمر من ذلك في كثير ولا قليل ، فقد

تكون الراح جبارة قهارة ، وهي في مَيْعَةِ الصبا وعنفوان الشباب ، وغيري
عنده الخبر اليقين

- ٢ -

ولننظر قول أبي نواس من كلمة ثانية

دع عنك لوبي فان اللوم إغراء وداوفي بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجره مسته سراء
قامت بإبريقها والليل معتكره فلاح من وجهها في البيت لألاء
فأرسلت من فم الإبريق صافية كأنما أخذها بالعين إغفاء
جفت عن الماء حتى ما يلائمها اطفأة وجفاء عن شكها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها حتى تولد أنوار وأضواء
وهذه صورة شعرية لراح ، ألم فيها الشاعر بصفات المختلفة أو بأشهر
ما لها من الصفات ، وقد بدأ ذلك بنبيذ ملامة اللاتنين ، بل جعل اللوم نوعاً
من الإغراء ، واستصرخ الساقى ليسعفه بالتي كانت الدواء ، لما أورت من
داء ، ثم اندفع يذكر أنها صفراء اللون ، وأن الحزن لا يحل لها ساحة ،
وأن الحجر لو مسها مسته السراء ، وأنها حين قامت بإبريقها هتكت الظلماء ،
بما لوجهها من لألاء ، وأنها حين أرسلت صافية من فم الإبريق أخذت
تلعب بالعيون كأنها الإغفاء ، وأنها لطفت حتى ما تلائم الماء ، ولا يشاكلها
الماء ، فلا سبيل إلى أن تشعشع بالعذب الفرات ، فإن عجز المصطبغ أو المغتبق
عن شربها صرفة فليمزجها بالنور ، فانه لها مزاج ، وهي له لباس ، ومنهما
تولد الأنوار والأضواء

وقد يلاحظ أن هذا الوصف بعيد عن متناول العقول، ونجيب بأنه لا جمال للشعر إلا إذا أُضيف إلى الحقيقة شيء من الخيال، وقد يكون هذا الخيال حقيقة ثانية لا فرق بينها وبين الأولى إلا أن أحدهما في الوصف وآخرهما في الموصوف، ولأن الشاعر لا يصف شيئاً إلا متأثرًا بحسنة أو قبحه فهو حين يذكر الشيء الدميم يذكر بجانبه نقرته من الدمامة، وحين يصف الشيء الجميل يصف بجانبه غرامه بالجمال. وربما خضع الشاعر لمعاطفته، فانتقل من وصف إلى وصف، كأن يترك الحديث عن الراح وينحدر إلى وصف الساقى مثلاً. وهنا لا مندوحة من أن ينتقل الناقد مع الشاعر ليعرف أقصر في وصف ما انتقل إليه أم أجاد، وتكون الصورة الشعرية للموصوف الثاني، مثال ذلك قول ابن عنين:

ومدامة لم يبق طول ثوانها في خدرها الاوميض شعاع
من كف مصقول العوارض أنس يرنو بمقلة جؤذر مرتاع
وقفت عوارض صدغه في خده حيرى وباتت في القلوب سواحي
راضت خلافة العمار وبدلت نزع الصبا بموقر مطواع
وعلماء الأدب يذكرون هذه القطعة في وصف الخمر، وليست من ذلك في شيء، إنما هي تشبيب، ومثلها قول البحري وقد صرعت نديمه الصبياء

ونديم حلو الشماثل كالدي نار محض النجار عذب المصفي
بت أسقيه صفوة الراح حتي وضع الكأس مائلاً يتكفا

قلت عبد العزيز تفديك نفسي ! قال لبيك ! قلت لبيك ألفاً !
ها كها ! قال هاتها ! قلت خذها قال : لا أستطيعها ، ثم أنفني
وهذا النوع من الحوار يسمى عند علماء البديع بالمراجعة ، وليس
جمال هذه الأبيات في ترديد القول كما يظنون ، ولكن جمالها في هذه
الصورة الشعرية البديعة التي تمثل لك رفق النديم ، وجناية السكاس عليه ،
واستسلامه للإغفاء بعد هذا الحوار الرقيق

— ٤ —

وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعنى في نفس القاري ، والسامع ،
الآثر أن قول بعض الاندلسيين
أخاف عليك من عيني رقيب ومن عيني وعينك والزمان
ولو أني وضعتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني
أقل تأثيراً في النفس من قول ابن الرومي
أعاقته والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تداف
والثم فاه كي نزول حرارتي فيشتد ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوي أيرويه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادي ليس يروى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان
لأن ابن الرومي وضع لك هذه صورة شعرية تامة الاجزاء ، وتنقل
بالقاري ، والسامع من حال إلى حال ، وذكر أموراً فطرية يشعر بمثلها كل
متيم مشغوف ، ثم عال شرهه في صبوته بخطره لوعته وفرط جواه .
وتحليل المعنى وتعليله من أقرب الوسائل إلى تمكينه في النفوس ، وفي
تحليل المعاني وتعليلها تتفاوت أقدار الكتاب والخطباء والشعراء

البحث التاسع

اهمية الصور الشعرية

عرف القارىء شيئاً عما أريده من الصور الشعرية ، ولكنه شيء ، يسير لا يغني في إماطة اللثام عن هذا الفن الجديد ، وسأعود بعد قليل الى تحقيق الفرق بين الصورة الشعرية والتمثيل المعروف في علم البيان ، فقد ظن بعضهم أن الصورة الشعرية هي الاستعارة التمثيلية وهو خطأ مبين

والآن أرجع الى توضيح ما ذكرته في الكلمة الماضية من أن فضل الصورة الشعرية إنما هو تمكين المعنى في النفس ، لأن غاية الكلام البليغ من ثر أو شعر إنما هي التأثير ، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية في تحقيق غاية البيان ، ولنضرب لذلك الامثال

- ١ -

من الحسك الماثورة قول أبي الدرداء « مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلُّهُ » يريد أن الصديق لن يكون من كل نواحيه منسكاً لآخيه . هذا هو أصل المعنى ، وتلك هي صورته الأصلية ، فلننظر كيف بسطه بشار بن برد حين قال :

إذا كنت في كل الامور معاتباً	صديقك لم تاق الذي لا يُعَاتِبُهُ
فَإِنْ وَاحِداً أَوْ صِلَ أَخَاكَ فَانَهُ	مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَجُجَاتِيَهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقُدَى	ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِشَارِيَهُ

فاذا وازنت بين هذه الايات وكلمة أبي الدرداء رأيت ان كلمة « من لك بأخيك كله » كلمة مبهمّة لا تقر في النفس إلا بعد التأمل والترديد، ورأيت صاحب هذه الأيات الثلاثة يحاطب عقلك ووجدانك ، إذ يذكر أنك ان عاتبت صديقك في كل الامور فلن تلقى الصديق الذي لا تعاتبه ، لانه يندر أن يخلو صديق من العيوب ، وانك مضطر الى إحدى اثنتين : إما أن ترضى الوحدة ، وإما أن تصل أخاك ، فقد يقارف الذنب مرة ويجانبه مرة أخرى ، وإذ لم تشرب « مراراً » على القذى ظلمت ، وأى الناس تصفو مشاربه في هذا الوجرد ؟

فانت ترى أن كلمة بشار أوقع في النفس ، وأملأ للقلب ، من كلمة أبي الدرداء ، واليك كلمة الشريف الرضى في نفس المعنى :

وكم صاحب كالمح زاعت كعوبه	أبى بعد طول الغمز أن يتقوما
تقبلت منه ظاهراً متباجاً	وأدبج دوني باطناً متجهماً
فأبدى كروض الحزن رقت فروعهُ	وأضمر كالليل الخداري مظلماً
ولو أنني كشفته عن ضميره	أقت على ما بيننا اليوم مأتما
فلا بأسطاً بالسوء إن ساءني يدأ	ولا فاغراً بالذم إن رابني قفا
كمضو رمت فيه الليالي بقادح	ومن حمل العضو الأليم تألماً
إذا أمر الطب اللبيب بقطعه	أقول عسى ضناً به ولعلماً
صبرت على إيلايه خوف نقصه	ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكف مض تركها بعد دأها	وإن قطعت شانت ذراعاً ومعضماً
أراك على قلبي وان كنت عاصياً	أعز من القلب المطيع وأكرماً
حملتك حمل العين لج بها القدى	فلا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى

دع المرء مطوياً على ما ذمته ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحماً ولا دماً
ومن لم يوطن للصغير من الأذى تعرض أن يلقى أجلاً وأعظما
فهذه صورة شعرية يندر أن تجد مثلها في هذا المعنى لغير الشريف
الرضي، وانظر كيف يدلك عن صديقه الذي صبر عليه، وكيف شبهه
بالرح الذي زاغت كعوبه، وأنى بعد طول الغمز أن يتقوم، وكيف تقبل
من ذلك الصديق ظاهره المتباج، وتغافل عن باطنه المتجهم، وكيف
مثل ما أبداه بروض الحزن رقت فروعه، وما أضمره بظلمة الليل، وانظر
كيف راعك حين ذكر أنه لو كشف صديقه عن ضميره لأقام على ما بينهما
مأتما أي مأتم، ومع ذلك لا يبسط يده بالسوء إن ساءه، ولا يفتح فاه
بالذم إن رابه، ثم انظر كيف صور هذا الصديق الذي كثر دغله وساءت
طويته بصورة العضو الذي رمته الليالي بقادح، والذي يؤلم حمله ولكنه
مع هذا مرجو البرء، مأمول الشفاء، ومن ذا الذي يجهل أن داء الكف
مض بغيض، ولكن من ذا الذي يرضى أن يشين بقطعها المعصم والذراع؟
ولم يقف الشريف الرضي عند ذلك، بل مثل صديقه بالعين لج بها
القذى، وهو أفضل من العمى على كل حال، ثم أرسل هذه الحكمة الرائعة
دع المرء مطوياً على ما ذمته ولا تنشر الداء العضال فتندما
إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته على مضض لم تبق لحماً ولا دماً
وهل ينكر أحد بعد هذا التفصيل أن كلمة بشار أولاً، وكلمة الشريف
الرضي ثانياً، أدعى لتمكين المعنى في النفس من كلمة أبي الدرداء، لما فيها
من تحليل المعنى وتعليله، وذلك داعية التأثير، وهو ثمرة الكلام البليغ

رثى مؤيالك المزموم امرأته أم العلاء فقال :

امرز على الجذث الذي حلت به أم العلاء فسادها لو تسمع
أني حلت وكنت جد فروقة بلداً يمر به الشجاع فيفزع
صلى عليك الله من مفقودة إذ لا يلائمك المكان البلقع
فلقد ركت صغيرة مرحومة لم تدر ما جزع عليك فتجزع
فقدت شمائل من لزامك حلوة فتبيت تسهر أهلها وتفجع
واذا سمعت أنينها في ليلاها طفقت عليك شئون عيني تدمع

وهذه قطعة مختارة في بكاء المرأة تحلى طفلها وتروح الى عالم الفناء ، وهي
بعد التحليل ترجع الى فكرتين : الأولى التعجب من قرار هذه المرأة
الهيوب في ذلك المكان البلقع ، والثانية الأسف على ما لقيت طفلها
من فقد شمائلها الحلوة ، وقد سرد الشاعر هاتين الفكرتين بشيء من
الجفاف ، وكان في مقدوره أن يزيد الفكرة الاولى شيئاً من الوضوح ،
وأن يعمد في الفكرة الثانية الى أن يشرك معه القارىء في حزنه وبثه
لأن الغرض من الشعر انما هو التأثير

والى القارىء ما يقوله في هذا المعنى محمد بن عبد الملك الزيات

ألا من رأى الطفل المفارق أمه بُعِيدَ الكرى عيناه تبتهران
رأى كل أم وابنها غير أمه بيتان تحت الليل ينتهجان
وبات وحيداً في الفراش تحته بلابلُ قلب دائم الخفقان
ألا إن سَجَلًا واحدًا قد أرقته من الدمع أو سَجَلَيْنِ قد شَفِيَانِي
فلا تاحيانِي ان بكيت فانما أداوى بهذا الدمع ما تريان

وان مكاناً في الثرى خُطَّ لحدُّه لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزبرة والهوى فهل أتما ان نجتَ منتظران
فهبني عزمت الصبر عنها لاني جليدهُ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الاجر حسبةً

ولا يأتسي بالناس في الحدثنان

*
* *

ألا من أمنيهِ المنى فأعدُّه لعثرة أيامي وصرف زمني
ألا من اذا ما جئت اكرم مجلسي وان غبت عنه حاطني ورعاني
فلم أر كالأقدار كيف يُصِبنني ولا مثل هذا الدهر كيف رماني
فاذا وازناً بين هذه القطعة وبين تلك وجدنا في الاخيرة صورة
شعرية بديمة ، تمثل الطفل المفجع في امه ، والرجل المفجع في زوجه ،
وانظر كيف صور الطفل اليتيم بقوله

رأى كل أم وابنها غير أمه يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيداً في الفراش تحمُّه بلابل قلب دائم الخفقان
وانظر كيف علل جزع الطفل بضعف قواه ، وجهله بالاجر والتأسي
وتأمل كيف فهم قدر الحليلة ، وكيف تغفل في وصف ما للحلائل من
الرفق ، وما للرجل من الأتس بزوجه حين يطارحها الاحاديث بالليل ،
وكيف اعتمد عليها فأعدها لعثرة أيامه وصرف زمانه ، وكم في الايام
من عثرات ، وكم في الدهر من صروف !

وأى كلام أبلغ في وصف الحليلة الرفيقة ، الأمانة ، من قوله في
تلك الفقيدة الغالية

أَلَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي وَانْ غَبْتُ عَنْهُ حَاطِنِي وَرَعَانِي
وَأَحَبُّ لَوْ أَعَادَ الْقَارِي، النَّظَرَ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ
وَإِنْ مَكَانًا فِي التَّرَى خُطَّ لِحْدُهُ لَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
أَحَقُّ مَكَانٍ بِالزِّيَارَةِ وَالْهَوَى فَهَلْ أَتَمَّا إِنْ عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ
فَإِنَّهُمَا غَايَةٌ فِي تَمْثِيلِ الْحَنُوِّ عَلَى الْقَبْرِ الْمَأْهُولِ بِرَفَاتِ الْحَبِيبِ، وَسَقَى
اللَّهُ كُلَّ بَقْعَةٍ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ!

- ٣ -

أَرَادَ الطُّغْرَانِيُّ أَنْ يَسْتَعْطِفَ أَحْبَابَهُ وَانْ يَذْكُرْهُمْ بَانَ فِي صُرُوفِ
الدَّهْرِ مَا يَفْنَى عَنِ الْقَطِيعَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ

وَيَارْفَقَةُ مَرَّتْ بِمَجْرَعَاءِ مَالِكٍ تَوْمُ الْحُمَى أَنْضَاؤُهَا وَالْمَطَالِيَا
نَشَدَتْكُمْو بِاللَّهِ إِلَّا نَشَدْتُمُو بِهِ شُعْبَةٌ أَضَلَّتْهَا مِنْ فُؤَادِيَا
وَفَلْتُمْ لِحْيَ نَازِلِينَ بِقَرْبِهِ أَقَامُوا بِهَا وَاسْتَبَدَّلُوا بِجَوَارِيَا
رَوَيْدَكُمْو لَا تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفِ اللَّيَالِي إِنْ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

وَأَصْلُ هَذَا الْمَعْنَى لِإِيَّاسِ بْنِ الْقَائِفِ إِذْ يَقُولُ

فَأَكْرَمَ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَا عَشْتُمَا مَعًا كَفَى بِالْمَمَاتِ فَرْقَةً وَتَنَائِيَا
إِذَا زَرْتِ أَرْضًا بَعْدَ طَوْلِ اجْتِنَابِهَا فَقَدْتَ صَدِيقِي وَالْبِلَادَ كَمَا هِيََا

وَلِنَنْظُرِ كَيْفَ تَنَاولَ سَعِيدُ بْنُ حَمِيدٍ هَذَا الْمَعْنَى حِينَ قَالَ

أَقْلَلُ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ
لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنِ ذَمَّتْ صُرُوفُهُ إِلَّا بِكَيْتٍ عَلَيْهِ حِينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمْتُ مَدَّةً وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلْتُ نُحُولُ
وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ جَمَاعَةً إِنْ حَصَلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

ولعل أحداث المنية والردى يوماً ستصدع بيننا وتحول
فلئن سبقتُ لتبكين بحسرة وليكنرنَّ عليَّ منك عويلُ
ولتُفجَعنَّ بمخلص لك وامق حبلى الوفاء بحبله موصولُ
ولئن سبقتَ ولا سبقتَ ليمضينَّ من لا يشاكله لدى خليل
وليذهبنَّ بهاء كل مروءة وليفقدنَّ جمالها المأهولُ
وأراك تكلف بالعتاب وودنا صافٍ عليه من الوفاء دليلُ
ودَّ بدا لذوى الاخاء جماله وبدت عليه بهجة وقبولُ
ولعل أيام الحياة قصيرة فعلام يكتر عتبنا ويطولُ

وهذا غاية فى تحليل المعنى وتعليله ، فإننا نراه ابتداءً بشكوى الزمان ،
ونصح صديقه بانتهاج الفرص السوانح ، ثم أخذ يقنع صديقه بأن
الحرف فى الدنيا قليل ، وبأن من الحزم ان لا يتجنى المرء على صديق لا ذنبَ
له ، فقد تصدع بينهما أحداث المنية ، أو عاديات الليالي

وقد بلغ غاية الرفق حين شرع يذكر لصديقه أنه ان سبقه الى
الموت فسيكثر عويله عليه ، وستعظم خبيثته فيه . وهذا اعتراف منه
لصديقه بالوفاء ، وهذا الاعتراف نفسه نوع من التأف والأستعطاف ،
وانظر كيف دق ولطف فى قوله

ولئن سبقتَ - ولا سبقتَ - ليمضينَّ من لا يشاكله لدى خليل
ولعل الجملة الاعتراضية لم تقع موقعاً أدق من هذا ولا أظرف ، وهذه
القصيصة من الصور الشعرية البديعة ، وهى بلا شك أوفى من ابيات ابن
القائف ، وابرع من ابيات الطمراني ، وهى فوق ذلك نص فيما قصد الشاعر
اليه : من ردَّ صديقه الى شرعة الألفة ، وصرفه عن موارد الصدود

اراد العباس بن مرداس السلمي أن ينصف أعداءه ، وهو يفخر
بقومه ، ويذكر صبرهم على الجلاء ، وصدقهم في اللقاء ، فقال :

ولم أر مثل الحي حياً مصبجاً	ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرّ وأحمى للحقيقة منهمو	وأضرب منا بالسيوف القوانيسا
إذا ما شددنا شدةً نصبوا لنا	صدور المذاكي والرماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها	عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

ولهذه الأبيات قيمة أي قيمة . ولكن أتراها تبلغ في تقرير المعنى
وتمكنه في النفس ما يبلغه قول عبد الشارق بن عبد العزى الجهمي

ألا حُيِّت عنا يارُدِّينا	نحيبها وإن كرمت علينا
رُدِّينة لو رأيت غداة جئنا	على أضيأتنا وقد اختويتنا
فأرسلنا أبا عمرو ريثاً	فقال ألا أنعموا بالقوم عينا
ودسوا فارساً منهم عشاء	فلم تغدر بفارسهم لدينا
جاءوا عارضاً برداً وجئنا	كمثل السيل نركب وازعينا
تنادوا يالْبَهْشَةَ إذ رأونا	فقلنا أحسنى ضرباً جهينا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب	فجلنا جولة ثم أروعينا
فلما أب. توافقنا قليلاً	أنحنا للكلاكل فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهماً	مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤمُ زنة برقت لاخرى	إذا جحلوا بأسياف رَدِّينا
شددنا شدةً فقتلت منهم	ثلاثة فتية وقتلت قينا
وشدوا شدةً أخرى فجرؤا	بأرجل مثلهم ورموا جؤينا

وكان أخي جوين ذا حفاظٍ وكان القتل للفتيان زينا
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد أنحنينا
وباتوا بالصعيد لهم أحاح ولو خفت لنا الكلمى سرينا

فهذه صورة شعرية مثل الشاعر بها الموقعة أحسن تمثيل . وانك
لتراه ينتقل من وصف الى وصف في سهولة ورفق ، وتراه في الوقت
نفسه صادقاً فيما يقول ، إذ لم يرد في قصيدته ما يحمل القارى على تكذيبه
أو رميته بالغلو والإسراف ، وانظر كيف اكتفى في رثاء أخيه حين
صرع بهذا البيت السهل المقبول

وكان أخي جوين ذا حفاظٍ وكان القتل للفتيان زينا
وأي فتى لا يتمنى أن يرمى بنفسه في سفير تلك الحرب التى يقول
فيها هذا الفتى النبيل ، وهو فيما يقول غير ظنين

تنادوا يالْبُهْثَة إذ رأونا فقلنا أحسنى ضرباً جهيناً
سمعنا دعوة عن ظهر غيب جُلْنَا جولة ثم أرعونا
فلما أن تواقفنا قليلاً أنحننا للكلال كل فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهماً مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤْ مزنة برقت لأخرى اذا حجلوا بأسياف ردينا

والشاعر الواحد قد يكلف بترديد معنى من المعانى فلا يزال يبدى ،
ويعيد حتى يضع له صورة شعرية يصل بها الى ما يريد ، كالعباس بن
الاحنف في ولوعه بكتمان الوجد ، ووجود الحب ، فقد افتن في هذا
المعنى ووضع له صوراً عديدة ، فتارة يعتذر عن هجره فيقول

الله يعلم ما أردت بهجركم الا مضاعفة العدو الكاشح
وعلمت أن تباعدى وتستري أدنى لوصولك من دنو فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين نوع الصدود

سأهجر إليّ وهجرأها اذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محبٌ ولكننا ندافع عن حبنا بالصدود
وتارةً يُعلّل السكمان فيقول

سأستر والستر من شيمتي هوى من أحب بمن لا أحب
ولا بد من كذب في الهوى اذا كان دفع الأذى بالكذب

وحينما يصف اضطراب الناس في الحديث عن وجده فيقول

قد سحّب الناس أذيال الظنون بنا وفرّق الناس فينا قولهم غرقاً
بجاهلٍ قد رنى بالظن غيركمو وصادقٌ ليس يدرى أنه صدقا

وأظنه لم يبلغ من البيان ما أراد إلا حين قال

كذبت، على نفسي فحدثت اني سلوت لكما ينكروا حين أصدق
وما من قلى منى ولا عن ملالة ولسكني أبقي عليك وأشفق
عطف على أسراركم فكسوتها قيصاً من السكمان لا يتخرق

وللقارىء، أن يحلل هذا المعنى فقد مهّدت له السبيل (١)

(١) ارجع الى هذه المعاني الوجدانية في كتاب (مدامع العشاق)



البحث العاشر

اختلاف الصور الشعرية

- ١ -

وقد نجد للموصوف الواحد صورتين مختلفتين ، لاختلاف العاطفة عند شاعرين . فمن ذلك قول ابن الزيات في برذون أشهب كان المعتصم أخذه منه ، وكان أحمد بن خالد ذكره له ، ووثنى به اليه

قالوا جزعت فقلت إن ^(١) مصيبة	جلت رزيتها وضاق المذهب
كيف العزاء وقد مضى لسبيله	عنا فودعنا الأحم الأشهب
دبّ الوشاة فأبعده وربما	بعد الفتي وهو الحبيب الأقرب
لله يوم غدوت عني ظاعنا	وسلبت قربك أي علق أسلب
الآن اذ مكنت أذاتك كلها	ودعا العيون اليك لون معجب
واختير من سرّ الحداثد خيرها	لك خالصا ومن الحلي الأغرّب
وغدوت طنائف اللجام كأنما	في كل عضو منك صنّيع يضرب
وكان سرجك اذ علاك غمامة	وكانما تحت الغمامة كوكب
ورأى عليّ بك الصديق مهابة	وغدا العدو وصدره يتلّهب
أنساك ؟ لا برحت اذا منسية	نفسى ولا زالت بمثلك تُنكب

وهذه صورة شعرية لفرس انتزع من صاحبه ، فلنذكر صورة شعرية لفرس لم يفجع صاحبه فيه ، كقول البحري

(١) ان - هنا - حرف جواب بمعنى نعم ، ولها شواهد كثيرة ذكرها النحويون

وأغرّ في الزمن البهيم محجل
 كالهيكمل المبني الآ أنه
 وافي الضلوع يشد عقد حزامه
 أخواله للرستمين بفارس
 يهوي كما تهوي العقاب وقد رأت
 ذنبٌ كما سحِبَ الرِّشاء يذب عن
 ذهبٍ الأعلالي حيث تذهب مقلة
 صافي الأديم كأنما عنيت به
 وتراه يسطع في الغبار لهيئه
 هزج الصهيل كأن في نغماته
 ملك العيون فان بدا أعطينه

قد رُحْتُ منه على أغر محجل
 في الحسن جاء كصورة في هيكل
 يوم اللقاء على مُمّ مخول
 وجدوده للتبعين بموكل
 صيداً وينتصب انتصاب الاجدل
 عُرِفَ ، وعُرِفَ كالفناع المسبل
 فيه بناظرها حديدُ الأسفل
 لصفاء نقيبته مداوس صيقل
 لوناً وشداً كالخريق المشغل
 نبراتٍ معبدٍ في الثقل الأول
 نظر الحب الى الحبيب المقبل

والموازنة بين هاتين القصيدتين تتوقف على معرفة السبب الذي قيلت
 فيه القصيدة الاولى والسبب الذي قيلت فيه القصيدة الثانية ، ومتى عرفنا
 أن الشاعر الاول وصف حصانه وهو جازعٌ محزون ، وأن الشاعر الثاني
 وصف حصانه وهو فرحٌ مختال ، استطعنا أن نعرف السبب فيما بين
 القصيدتين من الفروق ، فقد ابتداءً ابن الزيات فشرح حزنه على ذلك
 الحصان المسلوب بما يشبه أن يكون مريئة لعلام نكب به ، وهذا الجزء
 من القصيدة اقتضته «ظروف» ابن الزيات ، فهو في الوصف غير محسوب
 ثم انتقل الى وصف الفرس فابتدأه بأبيات هي أنموذج في الرثاء ، ألا
 تراه يقول :

الآن اذ كَلَمْتُ أدانك كلها ودعا العيون اليك لون معجب

واختير من سر الحدائد خيرها لك خالصاً ومن الحلي الاغرب
وغدوت طنان اللجام كأنما في كل عضو منك صنيج يضرب
وهذا النمط في التعبير كان شائعاً في الرثاء ، لذلك العهد ، ومنه قول
بعض الشعراء

الآن لما صرّت أكل من مشى واقترب نأبك عن شبابة القارح
وتكاملت فيك الشمائل كلها وغدوت ربّ مدائح ومنايح
ويدلك على أن ابن الزيات إنما يصف حزنه على ذلك الجواد أنك
تراه يُطنب في وصف المظاهر الأخاذة التي تبهر الناظرين ، ليكشف
عن سر النسيمة التي رزأها ابن خالد عدوه اللدود ، وإلا فما معنى قوله
وكان سرجك اذ علاك غمامة وكأنما تحت الغمامة كوكب
ورأي على بك الصديق مهابةً وغدا العدو وصدره يتلهب
وكان ذلك لأن ابن الزيات محقق معيظ لا يفكر في عتق فرسه
أكثر مما يفكر في نكبته بذلك العدو الذي سد عليه طريق الخيلاء
حين أغري المعتصم بأخذ برذونه الجميل

وجملة ما وصف به ابن الزيات برذونه أنه كامل الأداة ، وأنه يروق
العيون ، وأنه اختار له من الحديد سره ومن الحلي أغربه ، وأنه طنان
اللجام ، وأن سرجه كالغمامة وهو من تحته كالسكوكب ، وأنه يكبت
العدو ويسر الصديق

وهذه أوصاف لا ثمائل ولا توازن بأوصاف البحتري لجواده ،
فقد ذكر أنه أغر محجل ، وأنه في تكوينه

كالهيكل النبي إلا أنه في الحسن جاء كصورة في هيكل

وأنه وافي الضلوع ، وأنه أصيل : أخواله في بلاد الأكاسرة ،
وأجداده في بلاد التبابعة ، وأنه بهوى هوى العقاب حين ترى الصيد ،
ثم ينتصب أنتصاب الاجدل ، وأنه برآق الجواب : تتوهم في جبينه
البدر ، وفي أرساغه الجوزاء ، وأن ذنبه لطوله كالرداء المسحوب ، وأنه
صافي الأديم كأنما سهرت على لونه الصياقل ، وإنك تحسب بريق سنا بكة
في الغبار ناراً يعلوها دخان ، وأنه هزج الصهيل حتى لتحسب في نفثاته
نبرات معبد في صوته الرخيم ، وأنه ملك العيون ، حتى لتنظر إليه نظر
الحب الى الحبيب المقبل

وليس عجباً أن يحمد البحري هذه الاجادة في وصف جواد كان
يَهْتَمُّ بغرته ظلمة الليل ، وينحدر به في الغضاء ، كما تنحدر الصخره
الصماء ، عن القمة السماء . أما ابن الزيات فهو حبيب سليل ، لم يذ كر
من جواده غير شياته الظاهرة ، التي أججت في صدر حسوده نار
العداوة والبغضاء

ذلك هو اختلاف الصورة الشعرية ، وفي مقدور الناقد أن يتبين
الصورة الموحدة عند شاعرين ، ثم يوازن بين براعتهما في التصوير ،
ولنضرب المثل بوصف الحمامة الباكية ، فقد أكثر منه الشعراء ، فنجد
قول أبي محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ،
وقد كبرت سنه ، وطالت غربته :

وأزقني بالرَّيِّ نوح حمامة	فَنُحْتُ وذو الشجو الغريب ينوحُ
على أنها ناحت ولم تذر دمة	وَنُحْتُ وأسراب الدموع سُفوحُ

وناحت وفرخاها بحيث تراها
ونجد قول ابن الدمينه
ومن دون أفراسي مهمه فيح

ألا يا حمامات اللوى عدن عوده
فعدن فلما عدن كدن يمتنني
وكدت باشجاني لهن أئين
بكين ولم تذرف لهن عيون
فلم تر عيني مثلهن بواكيا
ونجد قول ديك الجن

حمام وُرُق في حى وُرُق خضر
تكلفن إسعاد الغريبة ان بكت
لها حرق لو أن خنساء أعولت
فقلت لنفسي هاهنا طلب الأسي
ولحن اذا تأملنا أبيات أبي محم وأبيات ابن الدمينه وأبيات ديك
الجن لم نجد فيها صورة شعرية ، ويظهر الفرق واضحا اذا قابلناها بقول
الطغرائي من قصيدة طويلة

أيكيه صدحت شجوا على فني
ناحت وما فقدت إلها ولا فجمت
طليقة من إسر الهم ناعمة
تشبهت بي في وجدي وفي طربي
ما في حشاها ولا في جفنها أثر
ياربة البانة الغناء تحضنها
ان كان نوحك اسعادا لمغترب
فقارضيني اذا ما اعتادني طرب

فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
فذكرتني أوطاري وأوطاني
أضحت تجدد وجد الموثق العاني
هيات ما نحن في الحالين سيان
من نار قلبي ولا من ماء أجفاني
خضراء تلتف أغصانا بأغصان
ناء عن الاهل ممنو بهجران
وجدا بوجد وسلوانا بسلوان

أولا فقصرَكَ حتى أستعين بمن يعنيه شأني ويأسو كَلَمَ أحزاني
 ما أنت مني ولا يعنيك ما أخذت مني الهموم ولا تدرين ما شأني
 كلي إلى الغم إسماعدي فإن له دمعاً كدمعي وإرنا ناكاً كإرنا ناي
 وهذه صورة شعرية بديعة تمثل حال المومع الحزين ، وقد هاجته
 الحمامة الباكية ، وإنك لترى الشاعر يوازن بين حاله وبين حال تلك
 الايكية الساجعة موازنة دقيقة تروع القلب ، وتهيج الوجدان ، وانظر
 كيف يقول:

طليقة من إسمار الهم ناعمةً اضحت تجدد وجد الموثق العاني
 وهذا غاية في وصف الحزن ، واليأس من السلوان ، فان وصف
 الحمامة بالتصنع في بثها وشجاها أدل على لوعة الشاعر وأساء ، ولا كذلك
 الاقتناع بحزن الحمام الشاديات ، فان فيه شيئاً من الراحة لأنس
 الحزين بالحزين

ولك أن تذكر أن هنا شيئاً من اختلاف الصورة : فان أبا محم
 يأسى لغرفته ، ويتفجع لبعده اطفاله . في حين أن الحمامة تبكي وقد جمع
 بينها وبين أفرأخها غصن واحد ، فاذا تبغى وقد وقأها الله تبديد الشمل
 وفرقة الاحباب :

وابن الدمينية يراجع حمامات اللوى ، ويسألهن العودة ، ثم يذكر
 انه كاد يفصح عن أسرارهِ حين بكين بجانبه ، وان لم تذرف لهن عيون ،
 وديك الجن يردد معنى قريباً من معنى ابن الدمينية ، أما الطغرائي فقد
 أتى بفكرة طريفة ، وسلك مسلكاً يدل على عنايته بتحديد ما يقول
 وأريد بهذا الفصل الوجيز أن الفت نظر الناقد الى ما يجب عليه

من اختبار الصور الشعرية وادراك ما بينها من دقائق الاختلاف
والاختلف . فان الموازنة نوع من الوصف وبيان ما بين الصور من
مختلف الفروق

البحث الحادي عشر

الصور الشعرية في القرآن

ولقد رأيت من رجال الأدب من يحسب الصورة الشعرية نوعاً
من الاستعارة التمثيلية ، وفي تصحيح ذلك اخطأ نسوق هذا الحديث

— ١ —

الاستعارة التمثيلية هي ضرب من التشبيه يكون فيه المشبه والمشبه
به هيئة منزعاً من عدة أمور متحققة أو متخيلة ، ومن هذه الاستعارة
يتكون أكثر الأمثال السائرة ، فيكون لبعضها موارد حقيقية ،
ولأكثرها موارد خيالية

والأمثال كما قال المرحوم استاذنا المهدي أربعة ضروب :

الاول - ماله مورد حقيقى كواعيد عرقوب في قول كعب بن زهير
كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدها إلا الأباطيل
الثانى - اخیالى الممكن ، وهو ما نُسب الكلام والعمل فيه إلى
عاقل كما جاء في أمثال لقمان ان صبيّاً كان يستحم في نهر ، ولم يكن يحسن
السباحة ، فأشرف على الفرق ، فاستغاث برجل عابر في الطريق ، فأقبل
عليه وجعل يلومه على نزوله الى النهر ، فقال الصبي «يا هذا ! خلّصني من
الموت ثم لمني !»

الثالث — الخيالي المستحيل ، وهو ما جاء على أسنة الحيوان والجماد
 للاعتبار به ، كما فعل نصر بن منيع ، وكان خارجاً على المأمون ، فسير إليه
 جيشاً ظفر به ، فلما مثل بين يدي المأمون أمر بضرب عنقه ، فقال :
 يا أمير المؤمنين ! أسمع مثلاً خطر على بالي ؟ فقال قل ، فانشأ يقول
 زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور برّ ساقه التقدير
 فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
 إني لملك لا أتمم لقمة ولئن شويت فاني لحقير
 فهاون الصقر المدل بصيده كرماً وأقلت ذلك العصفور

الرابع — الخيالي المختلط من الممكن والمستحيل ، وهو ما جمع بين
 الناطق وغيره ، كحديث الحية والأخوين ، فقد زعموا أن أخوين هبطا
 بغنمهما وادياً فيه حية تحميه ، وبينما كان أحدهما يرعى غنمه إذ نهشته الحية
 فقتلته ، فقال أخوه : والله ما في الحياة خير بعده ، ولا طلبة الحياة ! فلما
 لقيها وهم بقتلها قالت : ألا ترى اني قتلتها وندمت على ما كان مني ! فهل
 لك في الصالح ، فأدعك في هذا الوادي آمناً ، وأعطيك دية أخيك كل
 يوم ديناراً ؟ فصالحها على ذلك ، وحلفت له وحلف لها ، وما زالت تعطيه
 حتى كثر ماله . فلما أحس الغنى قال : كيف ينفعني هذا العيش ، وأنا
 أرى قاتل أخي ! فعمد إلى فأس فأحدها ثم انتظر . فلما مرت به ضربها
 فشجّها وأخطأ مقتلها . فقطعت عنه الدينار وتوعدته بخاف شرّها وقال :
 هل لك أن تتعاهد على المودة كما كنا ؟ فقالت : لا ! لأنك كلما نظرت
 إلى قبر أخيك وجدت عليّ . وكلما ذكرت الشجرة التي في رأسي وجدت
 عليك ! وفي ذلك يقول النابغة الذبياني من قصيدة يعاتب بها بني مرة

وانى لألقى من ذوى الضغن منهمو

وما أصبحت تشكو من الوجد ساهرة

كما لقيت ذات الصفا من حليفها	وما أنفكت الأمثال في الناس سائرة
فقلت له أدعوك للعقل وافيًا	ولا تغشيني منك بالظلم بادره
فوائتقها بالله حين تراضينا	فكانت تدين المال غيبًا وظاهره
فلما توفي العقل إلا أقله	وجارت به نفس عن الحق جائرة
تذكر أني يحمل الله فرصة	فيصبح ذا مال ويقتل واتره
فلما رأى أن ثمر الله ماله	وأثل موجوداً وسد مفارقة
أكب على فأس يحد غرابها	مذكرة متن المعاول بآرة
فقام لها من فوق حجر مشيد	ليقتلها أو تخطف الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه	ولبر عين لا تغمض ناظره
فقال تعالني نجعل الله بيننا	على مالنا أو تنجزني في آخره
فقلت يمين الله أفعل انني	رأيتك ندأراً يمينك فاجره
أبي لي قبره لا يزال مقابلي	وضربة فأس فوق رأسي فافره

— ٢ —

وفي القرآن أمثال كثيرة لها موارد خيالية ، من ذلك قوله تعالى « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي ، إني تبنت اليك وإني من المسلمين ، أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم

في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ، والذي قال لو ائذيه
أَفَ لَكُمَا أَعْدَانِي أَنْ أَخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ، وهما يستغيثان
الله ويملك آمَنَ إِنْ وَعَدَ اللهُ حَقَّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ،
أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتِ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ » فان هذا تشبيه وتمثيل يراد به تصوير
حال الأبرار والفجار ، وما لهؤلاء من الخزي ، وما لأئلك من النعيم
وأصرح من هذا قوله تعالى « إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ
ظَلُومًا جَهُولًا » فانه لم يحصل عرض ولا إباء ولا إشفاق ، وإنما المراد
تصوير التكاليف وما فيها من المشقة ، وتصوير الإنسان وما يغلب عليه
من الغرور والجهل بحقائق الأشياء

وكذلك قوله عز شأنه (قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ
فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا . ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ
مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاطَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءً لِلْأَسْوَاطِ . ثُمَّ
اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا
قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) فان الغرض تصوير القدرة الإلهية وما لها من
السلطان المطلق في الارض والسما

وتظهر قيمة هذا التصوير إذا نظرنا في الآيات التي قصد بها
الترغيب والترهيب كقوله تبارك اسمه (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ
قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ

بالنبيين والشهداء وقُضيَ بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون) فانك تراه يصور ما سيكون بصورة الواقع الخفيف ، ثم تراه يُتبع ذلك بقوله (وسيق الذين كفروا الى جهنم زُمرًا حتى اذا جاءوها فُتحت ابوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين)

هذا في الترهيب ، ثم انظر قوله في التشويق الى دار النعيم (وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زُمرًا حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوء من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) قال صاحب الطراز : ومن التمثيل الرائق قوله تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه) وقوله (وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشى عنهم لا يبصرون) فهم لا عراضهم عن الدين ، وإصرارهم على المخالفة لما جاء به الرسول ، وبلوغ الغاية في الصد والتكوص ، ممثّلون بحال من جُمِلَ على قلبه كِذاب فهو لا يفقه ما يقال له ولا يرعوي لقبوله ، وبحال من ضرب بينه وبين مراده بسد من بين يديه ومن خلفه فهو لا يهتدي اليه ، ولا يمكنه الوصول الى بغيته بحال

والتمثيل تشبيه حالة بحالة كقوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) فان الشبه كما قال عبد القاهر الجرجاني منتزع من أحوال الحمار وهو أنه يحمل الاسفار التي هي أوعية العلوم

ومستودع ثمر العقول ، ثم لا يُحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأعمال التي ليست من العلم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى أنه يثقل عليه ويكد جبينه ، فهو كما ترى مقتضى أمور مجموعة ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها الى بعض - (راجع أسرار البلاغة)

وعلماء البيان كلام كثير في الفرق بين الاستعارة والسكنية والتمثيل وإنما يعني أن يعرف القارىء أن هذا النوع من التعبير ليس من الصور الشعرية التي أسلفت عنها الحديث ، وإن كان في ذاته نوعاً من التصوير لما فيه من روعة الخيال **لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ أَحْسَنِ إِلَهٍ**

ويمكن أن يقال إن الاستعارة التمثيلية صورة للمعنى ، أما الصورة الشعرية فهي مثال للغرض ، فقوله تعالى « والسما مطوياتٌ بيمينه » تمثيل يراد به تقرير معنى خاص : هو قدرة الله ، أما تصوير الغرض بصورة شعرية فكقوله تعالى في آخر سورة المائدة

« وإذ قال الله : يا عيسى بن مريم ! أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ! إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »

فانه لا شك في أن هذا تصوير للغرض ، لا المعنى ، والمعنى جزء من الغرض ، فان هذا الحوار البديع الذي جرى بين رب العزة وبين عبده ورسوله عيسى عليه السلام يمثل غرضاً كلياً يشتمل على طائفة من المعاني الجزئية ، فتصوير المعنى الجزئي هو الاستعارة أو التمثيل ، وتصوير الغرض الكلي هو الصورة الشعرية التي يراد بها الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من التأثير الذي هو غاية البيان

— ٤ —

ومن الصور الشعرية قوله تعالى في تحديد موقف المسلمين أمام أعدائهم من المشركين

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فان تبتم فهو خير لكم ، وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتكم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فاتموا إليهم عهدكم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة غفلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم ، وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون المشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون .

اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدّوا عن سبيله أنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون وإن نكبوا أيماهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدء، وكم أول مرة ، اتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم . أم حسبكم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خير بما تعملون »

وأحب أن يذكر القارىء أني أتكلم عن القرآن من الوجهة الأدبية بغض النظر عما في مثل هذه الآيات من أحكام القتال ، وما قد ينظر فيه الفقيه من وجوه النسخ وضروب التأويل ، وأقرر أن هذه الصورة تكاد تكون خطبة في الدعوة إلى الجهاد

وتمتاز الصور الشعرية في القرآن بثبوت المعنى وثبات كيدته حين يقتضي المقام ذلك ، والقرآن لا يرى غضاضة في التكرار حين يحتاج إليه ، بل يراه واجباً محتوماً الأداء ، وإنك لتجد في هذه الآيات بُدْيًى ، ويعيد في لَعْنِ المشركين وتحقيرهم ، والدعوة إلى تعذيبهم ، وإذلالهم ، وتقتيلهم ، إذ كان ذلك من أغراضه الإيساسية . ألا تراه يُوصي بالرفق حين يقول « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم

أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » ثم يصرخ صرخة الغضب تنفجر من جوانبه الدماء ، فيقول « كيف يكون المشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون » ثم لا يكفيه هذا بل يقول « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون » ثم لا يكفيه هذا بل يقول « لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » ثم يعود فيقول « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهوا باخراج الرسول وهم بدوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين » ثم يثور فيقول « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزئهم وينصرهم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » وأود أن يذكر القارىء أن العهد الذي نزل فيه القرآن كان عهد فتنة وعماية وضلال ، وكانت هذه الغضبة التي تفيض بها جوانب القرآن غضبة طبيعية ، لا إثم فيها ولا عدوان ، أقول ذلك ليعرف القارىء السر في أنني أجعل من القرآن صوراً شعرية ، وإن لم يكن النبي عليه السلام من الشعراء ، فليس القرآن من السكتب التي يراد بها التشريع المحض ، وإنما هو يذكر القوانين في بساطة وسهولة ، ثم يدعو الى تأييدها وتنفيذها بالقوة والجبروت

حياته دس الخاتم كسر

ومن الصور الشعرية البديعة التي وردت في القرآن قوله عز شأنه
 « واتل عليهم نبأ إبراهيم : اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا
 نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم
 أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون : قال أفرأيت ما كنتم
 تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون ، فانهم عدو لي إلا رب العالمين ، الذي
 خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين
 والذي يميتني ثم يحييني ، والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ،
 رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، وأجعل لي لسان صدق في
 الآخرين ، وأجعلني من ورثة جنة النعيم ، واغفر لأبي انه كان من
 الضالين ، ولا تخزني يوم يبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من
 أتى الله بقلب سليم »

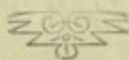
اتل هذا أيها القاري ، مرة وثانية وثالثة ، وحدثني أتجد أعذب من
 هذا الحديث الممتع ، وهل تجد أخف منه على السمع ، وأحب منه الى
 القلب . وأرفق منه بالنفس ، ألا ترى الحسن يجري في هذا الحديث كما
 يجري السحر في الطرف الكحيل ، ويتغلغل الايمان في قلب قارئه كما
 يتغلغل الحب في صدر الوالد يرفق به أبنه الوحيد ؟

ومن الصور الشعرية الرائعة قوله تبارك اسمه :
 « كذبت عاد المرسلين : اذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ، إني
 لكم رسول أمين ، فاتقوا الله واطيعون . وما أسألكم عليه من أجر

ان أجريَ الا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون
مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله واطيعون ،
واتقوا الذي امدكم بما تعلمون : امدكم بانعام وبنين ، وحنّات وعيون ،
إني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن
من الواعظين ، إن هذا إلا خلق الأوائين ، وما نحن بمعتدين ، فكذبوه
فاهلكناهم ، ان في ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك
لهو العزيز الرحيم »



وانا استطيع ايراد المئات من الصور الشعرية في القرآن ، لو سمح
الوقت ، ولكن هيهات ! فليكتف القاري بذلك ، وليعلم ان في هذا
المنهج غناءً اى غناءً ، لمن يريد الموازنة بين الكتاب والخطباء ، فان
التأثير يرتكز على ما في الخطب والرسائل من الصور الشعرية التي تفعل
ما تفعل بالعقول والقلوب ، وكم في خطب علي ابن أبي طالب ورسائل
الجاحظ من الصور الفتانة ، التي تسكن اليها شوارد النفوس



البحث الثاني عشر

المعاني والأغراض

قد رأيت حين حدثناك عن الصور الشعرية في القرآن أننا فرقنا بين المعنى والغرض . والآن نعود الى إيضاح هذا الرأي ، الذي نرجو أن يكون له شيء من النفع في عالم البيان

- ١ -

كان النقد يرتكز على وحدة البيت ، في نقد الشعر ، وعلى وحدة الفقرة في نقد النثر ، بغض النظر عن وحدة الغرض الذي سيق من أجله الكلام ، وكانوا يقولون فيمن يندر له بيت : لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس !

ونحن في تعويلنا على « الصور الشعرية » التي تمثل الأغراض ، لا ننكر أهمية الألفاظ المختارة ، والأخيلة الرائعة ، التي تأتي في تضاعيف

المنظوم والنثر فتمثل المعاني اصدق تمثيل
أما اللفظ المختار فكقول كثير

بأبي وأمي أنت من مظلومة طين العدو لها فغير حالها (١)
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إلي بصرم عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها
وهذه أبيات عادية ، ولكن كلمة « موفق » في قوله

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند مَوْفَقٍ لقضى لها
 كلمة دقيقة بارعة تمثل مراد الشاعر أصدق تمثيل، لأنه يريد أن يخيّل
 اليك أن عزة كالشمس في الحسن والإِشراق، وأنها لو خاصمت الشمس
 في الحسن لاشتبه الأمر على من يفصل في هذه الخصومة، وأنه لا بد
 من التوفيق ليحكم بتفوق هذه المحبوبة على الشمس، ولا يحتاج الحكم
 الى التوفيق الا حين يلتبس الحق ويتعذر الفصل، وحسب هذه الحسنة
 أن تفتن الناظر، وأن تكون في نفس النصف أولى من الشمس بالجمال
 وأما الخيال الرائع فكقول النابغة الذبياني في وصف الليل

تطاول حتى قلت ليس بمنقضى وليس الذي يرعى النجوم بأب
 فقد صوّر النجوم بصورة الإبل تسرح وتمرح في أديم السماء،
 وصوّر الصبح بالراعي الغائب الذي يخشى أن لا يثوب، وفي أوبته صرّف
 هذه النجوم

اذكر هذا ثم تعال ننظر أهذا هو الغرض الذي سيق من أجله
 الحديث؟ كلا! فإن الغرض أوسع من ذلك، وغرض النابغة أن يشكو
 الى محبوبته هجوم الهم على صدره في ظلمة الليل، وقد أفصح عن هذا
 الغرض في هذه الأبيات

كَلَيْنِي لَهْمَ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ السَّكَاكِبِ
 تطاول حتى قلت ليس بمنقضى وليس الذي يرعى النجوم بأب
 وصدر أراح الليل عازب همي تضاعف فيه الحزن من كل جانب
 وهذه صورة شعرية لتمثيل الغرض الذي قصد اليه الشاعر في مطلع
 قصيدته، فقد تحدث عن هم الممض الموضع، وليله الذي طال بطوله به

وشجاء ، وصدره الذي أراح الليل ما عذب من همه ، وهذا أيضاً خيال رائع : فقد صور الهموم بصورة الإبل تسرح نهاراً ثم تُراح ليلاً إلى الحظيرة ، وكذلك يشغل المرء عن همومه بالنهار ، فإذا انشغلت شواغله بالليل دبت الهموم إلى صدره فاحتلته من جديد

وهذا المعنى أروع من قول أمريء القيس

الا ايها الليل الطويل الا انجلي بصبح وما الا صباح منك بأمثل وإن قال العتيبي بغير ذلك في الحديث الذي ذكره صاحب زهر الآداب (ص ١٦٦ ج ٢)

وفي مثل هذا الغرض الذي افصح عنه النابغة يقول حندج بن

حندج المري

في ليل صول تناهى العَرَضُ والطولُ	كأنما ليله بالليل موصولُ
لا فارق الصبح كفى ان ظفرت به	وان بدت غرة منه وتحجيل
لساهر طال في صول تَمَلُّمُهُ	كأنه حيّة بالسوط مقتولُ
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله	والليل قد مَزَّقَتْ عنه السراويلُ
ليلٌ تحير ما ينحط في جهة	كأنه فوق متن الارض مشكولُ
نجومه ركذ ليست بزائلة	كأنما هنّ في الجو القناديلُ
ما أقدر الله أن يذني على شحط	من داره الحزن من داره صولُ
الله يطوى بساط الأرض بينهما	حتى يرى الربع منه وهو مأهولُ

وفي هذه القصيدة يظهر الفرق واضحاً بين المعنى والغرض ، ففي كل

بيت معنى خاص ، ومن مجموع هذه المعاني يتكون الغرض ، فليس هناك ريب في ان قوله

لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به وإن بدت غرة منه وتحجّل
فيه معنى جميل ، وخيال رائع ، ولكنه لا يمثل الغرض الذي قيلت
من أجله القصيدة ، وكذلك قوله :

ليلٌ تحيّر ما ينحطّ في جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول
فيه خيال يخلب العقول ، وأيّ خيال أروع من حيرة الليل ،
وتقييده فوق متن الأرض بشكال ؛ ولكن هب الشاعر قال هذا
البيت مفرداً لاسابق له ولا لاحق ، فأى تأثير يكون له في النفس ،
وهو في ذلة اليتيم !

وكذلك قول أشجع بن عمرو السلمي في رثاء محمد بن منصور بن زياد

أنمي فتى الجود الى الجود ما مثل من أنمي بموجود

أنمي فتى مصّ الثرى بعده بقية الماء من العود

وانثلم المجد به ثلعة جانبها ليس بمسدود

فالآن تحشى عثرات الندى وصوله البخل على الجود

ففي كل بيت معنى جميل ، وفي كل بيت خيال رائع ، ولكن الصورة
الشعرية لا تتم الا بضم هذه المعاني بعضها الى بعض ، ومنها يتكون
الغرض ، وهو ذهاب المجد بفقد هذا الجواد

على ان الغرض قد يتشعب حين يوجد ما يقتضي ذلك ، فقد ذهب

الشكل برشد طريف ابن أبي وهب العبسي فقال يرثي أبته بهذه الكلمات

الموجعة التي اصبحت لذهوله كثيرة الاغراض

أرابع مهلاً بعض هذا وأجملي ففي اليأس ناهٍ والعزاء جميل

فان الذي تبكين قد حال دونه تراب وزوراء المقام دَحُول
نحاه للحد زبرقان وخالد وفي الأرض للاقوام قبلك غول
وأي فتى واروه تمت أقبلت أكفهو تحشو معاً وتهيل
وظلت بي الأرض الفضاء كأنما تصعد بي أركانها وتجول
وشدّ الي الطرف من كان طرفه بعهد عبيد الله وهو كليل
لئن كان عبد الله خلي مكانه على حين شبي بالشباب بديل
لقد بقيت مني قناة صليبة وإن مس جلدي نهكة وذبول
وما حالة إلا ستصرف حالها إلى حالة أخرى وسوف تزول
فقد تنقل الشاعر من معنى الى معنى . ومن غرض الى غرض ، تحت
وطأة الحزن الذي مشى به من العزاء الى الجزع ، ومن الجزع الى العزاء ،
فانك تراه يروض نفسه على الصبر حين يقول
أربع مهلا بعض هذا وأجملي ففي اليأس ناه والعزاء جميل
ثم تراه يغري بنفسه ثائرة الحزن حين يقول
وشدّ الي الطرف من كان طرفه بعهد عبيد الله وهو كليل
ثم يعود فيقول
وما حالة الا ستصرف حالها الى حالة اخرى وسوف تزول
وكذلك يضطرب المحزون فلا يستقر على حال

والنثر كالشعر في المعاني والأغراض ، وعندنا كتاب بديع الزمان
الهمذاني ، الى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد في شكوى أبي بكر الحيري ،

وفيه طائفة من الصور الشعرية بقدر ما فيه من الاغراض ، وانظر قوله في وصف العلم :

« والعلم اطال الله بقاء القاضي شي : كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد بالسهم ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للثام ، وزرع لا يزكو في كل ارض حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيداً ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ، ومن الصبر سقياً نافعاً ، والعلم علق لا يباع ممن زاد ، وصيد لا يألف الا وغان ، وشئ لا يدرك الا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب الا باقتراش المدر ، واستناد الحجر ورد الضجر ، وركوب الخطر ، وادمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، واعمال الفكر ، ثم هو معتاص على من زكا ذرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه ، فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء ، وافرغ جده على الكيسر وهزله على الكاس ؟ والعلم نمر لا يصاح الا للغرس ، ولا يغرس الا في النفس ، وصيد لا يقع الا في البذر ، ثم لا ينشب الا في الصدر ، وطائر لا يخذعه الا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله الا شرك الحفظ ، وبحر لا يخوضه الملاح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يتسّم الا بخطا الفكر ، وسما لا يُصعد الا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس الا بيد المجد ، أي كفى ان يصبح المرء بين الزرق والعود ، ويمسى بين موجيات الحدود ، حتى يتم شبابه ، ويشيب اترابه ، ثم يلبس دينته ، ليخلع دينته ، ويسوى طيلسانه ، ليحرف يده ولسانه ، ويقصر سبيله ، ليطيل

حباله ، ويبدى شقاشقه ، ليغطي مخارقه ، ويبيضَ لحيته ، ليسودَ صحيفته
ويظهر ورعه ، ليخفي طمعه ، ويفشي حرا به ، ليملاً جرابه ، ويكثر دعاءه
ليحشو وعاءه ، ويرجو ان يخرج من بين هذه الاحوال عالماً ، ويقعد
حاكماً !!! هذا اذا المجد كالوه بقفزان !!!

فهذه طائفة من المعاني ترجع الى غرض واحد : هو أن العلم شيء
عزيز لا يناله بعد الجهد الا كرام النفوس ^(١)

ويمكن للنقاد ان يجد في بعض هذه المعاني شيئاً من الضعف ، ولكنه
لن ينكر على الكاتب انه افصح عن غرضه وبلغ دعوته ، بل وصل بها
الى قرار القلوب ، واهمية الصور الشعرية كما اسلفنا القول ترجع الى تمكين
المعاني في النفس ، والوصول الى التأثير الذي هو غاية البيان

وانظر قول بدیع الزمان في وصف هذا القاضي ووصف قومه :
« وأقسم لو ان اليتيم وقع في انياب الأسود ، بل الحيات السود ،
لكانت سلامته منهما أحسن من سلامته إذا وقع بين غيابات هذا
القاضي وأقاربه ، وما ظنك بقوم يحملون الامانة على متونهم ، وبأكلون
النار في بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم من مال اليتامى ، وتسمن أكفاهم
من مال الايامي ، وما ظنك بدار عمارتها خراب الدور ، وعطلة القدور ،
وخلاء البيوت ، من الكسوة والقوت ؟ وما قولك في رجل يعادي الله
في الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، ومن حاكم يبرز في ظاهر اهل
السمت ، وباطن اصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، واكله الحرام السمحت
وما رأيك في سوس لا يقع إلا في صوف الايتام ، وجراد لا يسقط الا
(١) وهذا لا ينافي ان غرض الكاتب هو التحريض على كبت عدوه الحيري

على الزرع الحرام، وإلص لا ينقب إلا خزانة الاوقاف، وكردى لا يُغير
الا على الضعاف، وذئب لا يقتس عباد الله الا بين الركوع والسجود،
ومحارب لا ينهب مال الله الا بين اليهود والشهود؛ او ما زلت ابغض حال
القضاة طبعاً وجبلةً، حتى ابغضتهم ديناً وملةً، والعنهم دُرْبَةً، حتى
لعنهم قُرْبَةً، بما شاهدت من هذا الحيرى وقاسيت، وعانيت من
خطبه وخبطه ما عانيت

وهذه صورة شعرية تمثل الظالمين من القضاة في جميع الأقطار،
وفي جميع العصور، لأن نزعات الانسانية واحدة، أو كأنها واحدة، في
الخير والشر، والوصف الصادق يعذب ويُستمتع في كل قطرو في كل جيل

— ٤ —

ولك أن تتخطى النثر المحبّر الى الكلمات الماثورة التي جاءت بها
البديهة، لترى كيف تكون المعاني والأغراض

فمن ذلك ما ذكره الجاحظ عن تميمي يزيد الرقاشي، وقد تمني بحضرة
قوم فقال: أتمنى كما تمنيتم؟ قالوا: تمني! قال: «ليتنا لم نخلق، وليتنا إذ
خلقنا لم نعص، وليتنا إذ عصينا لم نمت، وليتنا إذ متنا لم نبعث، وليتنا
إذ بعثنا لم نحاسب، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذب، وليتنا إذ عذبنا لم نخلد»
وفي مثل هذا المعنى يقول الحجاج «ليت الله إذ خلقنا للآخرة
كفانا أمر الدنيا، فرفع عنا الهم بالماكل والمشرب والملبس والمنكح،
أوليته إذ أوقفنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة، فرفع عنا الاهتمام
بما ينجي من عذابه»

وفي هاتين الأُمْنيتين وصف دقيق لحيرة النفس الانسانية التي

ما زالت تسكد وتسكدح في استكناه أسرار الغيب ، ثم سَقَطَتْ صريعة الإعياء ، بعد مرارة الإخفاق .

وأحب أن لا يغفل القارىء عن دقة الترتيب في هذه الصورة الشعرية ، وأريد بالترتيب السير مع حركات النفس ، فقد ابتدأ الرقاشي بهذه الصرخة « ليتنا لم نخلق ! » وهي أول نفثة يجود بها المسكروب ، ثم أخذ يُجِيل نظر الحيرة ، ويتمنى إذ خُلِقَ لو وقاه الله المعصية ، ويتمنى إذ عصا لو نجا من الموت ، الى آخر ما قال

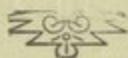
وقيل لبعض العرب : أي شيء تمنى وأي شيء أحب اليك ، فقال : لوائه منشور ، والجلوس على السرير ، والسلام عليك أيها الأمير ! وهذه صورة يبسم لها القارىء ، ولكنها على ذلك صورة صادقة لكثير من النفوس . وأدق منها قول الآخر وقد قيل له : أجزعت من الموت وقد صلي ركعتين فأطال ، وكان أمر بقتله ، فأجاب « إن أجزع فقد أرى كفناً منشوراً ، وسيفاً مشهوراً ، وقبراً محفوراً » وهذه صورة دقيقة لذلك الموقف الرهيب !

وقال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه . قال : هاته يا أعرابي فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غيبته ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً ، الناصح جيئاً . قال : فاني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى : انه قد أكتنفتك رجالاً أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للأخرة ، وسلمٌ للدنيا ، فلا تأمنهم على ما

اِثْمَنَكَ اللهُ عَلَيْهِ ، فَانْهَم لَمْ يَأْلُوا الْإِمَانَةَ تَضْيِيعًا ، وَالْإِمَانَةَ كَسْفًا وَخَسْفًا
وَأَنْتَ ^{مُسْتَوَلٍ} عَمَّا أَجْتَرَمُوا وَلَيْسُوا مُسْتَوَلِينَ عَمَّا أَجْتَرَمْتَ ، فَلَا تَصْلَحْ
دُنْيَاهُمْ بِفَسَادِ آخِرَتِكَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ غَبْنًا مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا
غَيْرِهِ ! فَقَالَ سَلِيمَانُ : أَمَّا أَنْتَ يَا أَعْرَابِي فَقَدْ سَلَّتَ لِسَانَكَ وَهُوَ سَيْفُكَ
قَالَ : أَجَلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَكَ لَا عَلَيَّ !

وَفِي هَذَا الْحَوَارِ كَمَا يَرَى الْقَارِئُ طَائِفَةً مِنَ الْمَعَانِي يَتَكُونُ مِنْهَا غَرَضٌ
وَاحِدٌ . وَكَذَلِكَ نَسْتَطِيعُ حِينَ نَوَازِنُ بَيْنَ الْكِتَابِ وَالْخُطْبَاءِ وَالشُّعْرَاءِ
أَنْ تَفْرُقَ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ
وَارْجُو أَنْ أَوْفَّقَ فِي الْإِبْحَاثِ الْآتِيَةِ إِلَى مِرَاعَاةِ مَا وَضَعْتَهُ مِنَ
الْقَوَاعِدِ الْأَصُولِ

القاضي والامير
كل من ضل عن الحق



البحث الثالث عشر

الحصري وشوقي

بيننا في الأبحاث الماضية ما يجب أن يتوفر في الناقد الموازن من الشروط، وبسطنا القول في نظرية الصور الشعرية التي نعتمد عليها في النقد بعد مراعاة ما عُنِيَ به الأقدمون من اختيار الألفاظ والأساليب، والآن ندخل في بحث جديد لم يسلكه أحد من قبل: وهو الموازنة بين القصائد المشهورة التي جرت مجرى المعارضة والمماثلة، كما فعل ابن المعتز في معارضة الحسين بن الضحاك، وابن عبد ربه في معارضة مسلم بن الوليد، وابن درّاج في معارضة أبي نواس، والبارودي في معارضة أبي فراس. الخ ولهذا البحث أهمية كبيرة، لأنه سيمكننا من دراسة عرائس الشعر دراسة منظمة دقيقة، وسيرينا كيف تتصاؤل العقول، وكيف تتسابق القرائح، إذ كانت معارضة الشاعر للشاعر نوعاً من السباق في عالم البيان

ولنبداً بالموازنة بين دالية الحصري «يا ليل الصب متى غده» ودالية شوقي «مضناك جفاه مرقد» فإن لهاتين القصيدتين أثرًا في أندية الأدب ومجالس الغناء، ومن الخير أن نميط اللثام عما فيهما من مواطن الحسن، ومظان الضعف، وأن نبين أي الشاعرين أبرع لفظًا، وأشرف معنيًا، وأسعى خيالًا

والحصري - بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة وبعدها راء

مهمله - هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقرئ، الضرير القيرواني وهو ابن خالة أبي اسحق الحصري صاحب كتاب زهر الآداب. وقد ذكر ابن بسام في الذخيرة أن أبا الحسن الحصري كان بحراً بارعاً، ورأس صناعة، وزعيم جماعة، وأنه طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان، والآداب بأفق الأندلس يومئذ نافق السوق، معمور الطريق، فتهاواه ملوك الطوائف تهادي الرياض بالنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأئس المقيم

ولكنه فيما نقل لم يطمئن هناك، فاحتمل على مضض بين زمانه، وبعد قطره، ثم اشتملت عليه مدينة طنجة بعد خلع ملوك الطوائف وتوفي بهار حمة الله، سنة ٤٨٨ هجرية

وله قصيدة طويلة في قراءات نافع، وله ديوان شعر، (١) وهو القائل
أقول له وقد حياً بكأس لها من مسك رقتة ختام
أمن خديك تعصر؟ قال كلاً متى عصرت من الورد المدام
ويقول ابن بسام في وصفه «على أنه كان فيما بلغني منيقي العطن، مشهور الأسن، تلتفت إلى الهجاء، تلتفت الظمان إلى الماء، وكنا نود لو حفظ لنا التاريخ صورة مضبوطة لأخلاق هذا الشاعر المجيد، فإن كلمة ابن

بسام لا تفيد غير الظن، وأين الظن من اليقين !

ويمكن الحكم بأنه كان خبيراً بأسرار اللغة العربية، فإن التأليف في علم القراءات يدل على ذلك، ويمكن الحكم أيضاً بأنه كان بصيراً بشئون الحياة، فإن في الاغتراب وصحبة الملوك عوناً على فهم دقائق الوجود

أما شوقي فشاعر معروف في مصر والشرق ، وله كلف بمعارضة
القدماء ، وهو كذلك خبير بأسرار اللغة العربية ، وبصير بشئون الحياة ،
وهو كالحصري افتتح قصيدته بالنسيب ، واختتمها بالمديح ، ولكني سأقتصر
في الموازنة على صدر القصيدتين إذ كان النسيب هو السبب فيما يرجي
لهما من الخلود ، وإن كان لهذا العالم حظ من الخلود

٧

(قصيدة الحصري)

يا ليل الصب متى غده	أقيام الساعة موعده
برقد الشمار وأرقه	أسف للبين يردده
فبكاه النجم ورق له	مما يرعاه ويرصده
كلف بغزال ذي هيف	خوف الواشين يشرده
نصبت عيناى له شركا	في النوم فمز تصيده
وكفي عجباً أني قنص	للسرب سباني أغيده
صنم للفتنه منتصب	أهواه ولا أتعبده
صاح والخمر جنى فيه	سكران اللحظ معر بده
ينضو من مقلته سيفاً	وكان نعاساً يُغمده
فُريق دم العشاق به	والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت	عيناه ولم تقتل يده

* *

يا من ججدت عيناه دمي	وعلى خديّه تورده
خداك قد اعترفا بدمي	فعلام جفواك تجحده
اني لأعيذك من قتلي	وأظنك لا تتمعه

بالله هب المشتاق كرى فلعل خيالك يُسعدده
ماضرك لو داويت ضني صبّ يديك وتبعده
لم يُبق هواك له رَمَقاً فليبك عليه عودده
وغداً يقضي أو بعد غد هل من نظر يتزوده

* *

يا أهل الشوق لنا شرق بالدمع يفيض موردده
يهوى المشتاق لقاءكمو وصروف الدهر تبعده
ما أحلى الوصل وأعذبه لولا الأيام تنكده
بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلده

(قصيدة شوقي)

مضناك جفاد مرقده وبكاه ورحم عودده
حيران القلب معذبه مقروح الجفن مسهده
أودى حرقاً إلامقاً يُبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوّهه ويذيب الصخر تهده
ويتاجي النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعده
ويلعلم كل مطوّه شجنًا في الدّوح تردده
كم مدّ لطيفك من شرك وتأدّب لا يتصيده
فعساك بغمض مُسغفه واهل خيالك مُسعدده
الحسن حلفت بيوسفه والسورة أنك مُفردده
قد ودّجالك أو قبساً حوراء الخلد وأمرده
وتنّت كل مقطعة يدها لو تبعث تشهده

جحدت عيناك زكي دي أ كذلك خدك يحجده
 قد عز شهودي اذ رمتا فأشرت خدك اشهده
 وهممت بجيدك أشركه فاني واستكبر أصيده
 وهزرت قوامك أعطفه فنيا وتمنع أمليه
 سبب لرضاك أمهده ما بال الخصر يعقده
 بيني في الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده
 ما بال العاذل يفتح لي باب السلاوان وأوصده
 ويقول تكاد تجن به فاقول وأوشك أعبد
 مولاي وروحي في يده قد ضيعها سامت يده
 ناقوس القلب يدق له وحنايا الا ضاع معبده
 حسادي فيه أعذرهم وأحق بعذري حسده

* *

قسما بئنايا لؤلؤها قسم الياقوت منضده
 ورضاب يوعد كثره مقتول العشق ومشده
 وبخال كاد يحج له لو كان يقبل أسوده
 وقوام يروي الغصن له نسباً والريح يفنده
 وبخصر أوهن من جلدي وعوادي الهجر تبدده
 ماخنت هوائك ولا خطرت سلوى بالقلب تبرده

(الموازنة)

ولنذكر أولاً ما في القصيدتين من الأغراض ، وانا لنجد الحصري
 تكلم عن طول الليل ، وطيف الخيال ، وخر الرضاب ، وسيف المقلّة ،

وجناية العين ، وجمرة الخلد ، واستعطاف الحبيب ، وفناء الحب ، ونجد
شوق تكلم عن لوعة الماضي ، وطيف الخيال ، وجمال المحبوب ، وجناية العين
وحسن القد والجيد ، ودقة الخصر ، والصبر على الوشاة ، وتقديع الحبيب
والرفق بالحساد ، والحرص على الحب ، والبراءة من السلوان ، فقصيدة
شوق إذا أحفل بالأغراض

✕ (مواطن الحسن)

ولنوازن بين المطالع . وأنا لنجد الحصري يقول

المواطن بين المطالع
يا ليل الصب متى غدهُ أقيام الساعة موعدهُ
رقد السمار وأرقهُ أسفٌ للبين يردده
+ فبكاه النجم ورق لهُ مما يرعاه ويرصده
ونجد شوق يقول

مضناك جفاه مرقدهُ وبكاه ورحم عوده
حيران القلب معذبةُ مقروح الجفن مسهده
أودي حرقاً إلا رمقاً يبقيه عليك وتنفده
يستهو الورق تأوههُ وينذيب الصخر تنهده
+ ويناجي النجم ويتبعهُ ويُقيم الليل ويُقعهده
ويعلم كل مطوقة شجنًا في الدوح تردده

المطلع في رأينا هو أول صورة شعرية ، لا أول بيت ، ومطلع
شوقي أوفى وأروع من مطلع الحصري ، وخطاب الحبيب في قول شوقي

مضناك جفاه مرقدهُ وبكاه ورحم عوده

أرق من خطاب الليل في قول الحصري

يا ليل الصب متى غدهُ أقيام الساعة موعده
وقول شوقي في حيرة الحب وعذابه وفنائه

حيران القلب معذبهُ مقروح الجفن مسهده
أودى حرقا الارمقا يبقيه عليك وتنفده
يستهوى الورق تأوّهه ويذيب الصخر تنهده

هذه الايات أو في وأمتع من قول الحصري
رقد السمار وأرقهُ أسفَ للبين يردده
وقول شوقي

ويناجي النجم ويتبعه ويقيم الليل ويقعه
أقرب في صدره الى الواقع من قول الحصري
فبكاه النجم ورق له مما يرعاه ويرصده
وقول الحصري في تصيّد الطيف

نصبت عيناى له شركا في النوم فعزّ تصيّدّه
وكفى عجباً انى قنصن للسرّ سباني اغيده

أبرع من قول شوقي

كم مد لطيفك من شرك وتادب لا يتصيّده
فعساك بغمض مسعفه ولعل خيالك مسعده

لان الحصري حدثنا عن حقيقة صادقة وهي تمنع الطيف : فليس

في طوق الحب ان يظفر بطيف حبيبه كلما مدّ له الاشراك

ولا يعجبني « تادب » شوقي في قوله

كم مد لطيفك من شرك وتادب لا يتصيّده

لان التأدب هنا ضعف ، ولو ذكر أنه يهاب أن يتصيد له حمدنا له
هيمه الحسن ، وإن الحسن لمهيب الجناح !

ويروني قول شوقي

مولاي وروحي في يدهِ قد ضيعها سلّمت يدهِ
ناقوس القلب يدق لهِ وحنايا الأضلع معبدهِ
حسادى فيه أعذرهم وأحق بعذرى حسّدهِ

فان فيه صورة للوعة الحب يشفق بمحبوبه ويخنو عليه ، في ظلمه
وعُدوانه ، ولم يعرض الحصرى لمثل هذا المعنى البديع ، وأخلق بهذه
الايات ان تكون ملاءةً للحسن ، ان قضي الله ان نعصى له ، كما يصلى
فريق للشمس عند الشروق ، والهوى كما قيل إله معبود ، وما أرفق
شوقي وأرقه حين يقول

قد ودّ جالك أو قبساً حوراء الخلد وأمردهِ

فان الحسن لا يُعبد بأرق من هذا الوصف ، وهل العبادة الا وصف
المعبود بالتفرد والجلال

وقول الحصرى

صاح والخمر جنّى فيه سكران اللحظ معربدهِ
أروع وأبدع من قول شوقي ورضاب يوعد كثره
ومقتول العشق ومشهدهِ

وأرى من الظلم أن نوازن بين هذين البيتين ، فان بيت الحصرى
بيت فذّ نادر المثال ، وفيه وحده صورة شعريّة رائعة ، وما رددته الا فتنت

به فتنة جديدة ، وظهر لي منه معنى جديد ، كالوجه المشرق لانهاية حسنه ،
ولا حد لقدرته على تصريف القلوب

ولك أن تتأمل كلمة « جني » في قوله

صاحٍ والخمر جني فيه سكران اللحظ معربد

وما هذه العربدة يا صاح ؟ انها الأشرار التي يقيدك بها اللحظ ،
وأنت تنهل من ورده العذب الجميل !

وقول شوقي

ججدت عيناك زكي دمي اكدلك خدك يحجده

قد عز شهودي اذ رمتا فأشرت لخدك أشهده

أرق من قول الحصري

يا من ججدت عيناه دمي وعلى خديه تورده

خدك قد اعترفا بدمي فعلام جفونك تججده

لأن الاستفهام في قول شوقي أعطى المعنى شيئاً من الحسن ، وزاده

تمكيناً في النفس ، على ما فيه من الابتذال

وقد أجاد الحصري في استعطاف الحبيب اذ يقول

لم يبق هواءك له رمقاً فليبك عليه عوده

وغداً يقضي أو بعد غد هل من نظر يزوده

ولا نجد هذه النعمة المحزنة في قصيدة شوقي ، وانما لتذكرنا بهذا

البيت الحزين

وأرى الأيام لا تُدني الذي أرتجي منك وتدني أجلي

(مظان الضعف)

واني لا أستثقل الصنم المنتصب في قول الحصري

صنم للفتنة منتصب أهواه ولا أتعبد

لان كلمة «الصنم» كلمة غير شعرية ، والعرب تستملح «الدمية»

في وصف المرأة الجميلة ، والدمية هي الصورة المنقشة من الرخام ، والجمع دُمى ، قال بعض الاعراب

واني لا أهدي بالأوانس كالدمى واني باطراف القنا للمعوب

واني على ما كان من عنجبهتي ولوثة أعراييتي لا ذيب

وكذلك أستضعف قول الحصري

ما أحلى الوصل واعذبه لولا الايام تنكده

بالبين وبالهجران فيا لفؤادي كيف تجلده

وأضعف منه قول شوقي

بيني في الحب وبينك ما لا يقدر واش يفسده

ما بال العاذل يفتح لي باب السلوان وأوصده

ولا أدري ما قيمة التعجب في البيت الثاني من هذين البيتين ،

وهو لا يزيد شيئاً عن الصوت العامي المشهور «كيد العواذل كايدي ،

بس اسمع شوف» وكذلك لا قيمة لقوله

ونحصر أو هن من جلدى وعوادي الهجر تبدده

وهي مبالغة مردودة ، لأن الذي يستملح الخصر الدقيق لا يرضيه

أن يكون أو هن من صبر المحب تعدو عليه عوادي الصدود

وقد ظلم شوقي نفسه حين قال

وقوام يروي الغصن له نسباً والرحم يفنده
كما أساء الحصرى الى شعره إذ قال
اني لا عيذك من قتلي وأظنك لا تتعمده
فان هذا خيال فقهاء ، لا خيال شعراء ؛
(روعة الخيال)

وانه ليجمل بنا بعد هذا أن نوازن بين ما للحصري وشوقي من الخيال
الرائع ، وانا لنستجيد قول الحصري

ينضو من مقلته سيفاً وكأن نعاساً يغمده ^{كأن}
فيريق دم العشاق به والويل لمن يتقلده
كلا لا ذنب لمن قتلت عيناه ولم تقتل يده

رأى القيس

وان البيت الاول لمن وثبات الخيال ، وفي البيت الثاني ضعف
والثالث مع ضعفه مستلمح مقبول . ونستجيد كذلك قول شوقي
ناقوس القلب يدق له وحنايا الاصلع معبده ^{كأن}

وللقارىء أن يارمنا في استجادة هذا البيت وان يذكر أن هذا
ايضاً خيال فقهاء ، لا خيال شعراء ، ولنا أن نذكر القارىء بأن المعابد
والنواقيس من الالفاظ التي استملحها العرب ، لكثرة ما تحدث عنها
الشعراء وهم يتغنون بمعالم اللهو وملاعب الشباب ، ولهم في الاديار شعر
ممتع عنيت بتفصيله في غير هذا الحديث ^(١) وكذلك ظرف شوقي حين
تحدث عن المعبد والناقوس ، وكان خياله قريباً في الحسن من خيال
الحصري ، إذ توهم اللحظ سيفاً يكاد يغمده النعاس ، واني لمفتون بهذا الخيال

(١) نجد هذا البحث في كتاب « أثر الشعر في ربط الشعوب »

(البراعة في تناول المعاني)

وانا لثري شوقي أبرج من الحصري في تناول المعاني ، ومن السهل ان
نعلل هذا ، فان الحصري لم يجر في قصيدته إلا على الفطرة ، وكان من
ذلك أن رَضِيَ بِعَفْوِ الْخَطَايا ، أما شوقي فعارض من هم أن يظفر بالسبق ،
وكان من ذلك أن عَيَّيَ بِتَرْتِيبِ الْمَعَانِي ، واختيار الالفاظ ، وتنوع الاغراض .
على ان هذا التكلف لم يعض بلا عيوب ، فانه لا معنى لقول شوقي
وبخال كاد يحج له لو كان يقبل أسوده
ولا رونق لقوله :

وتمنت كل مقطعة يدها لو تبعت تشهده

(الحكم) ✓

وللقارىء - إن شاء الحكم - ان يرجع الى ما أسلفنا القول عنه
من مواطن الحسن ، ومظان الضعف ، ومواقع الخيال ، ليرى أى الشعراء
أولى بالسبق ، وأيهما أرجح في الميزان ، وحسبه أن دللناه على ما في
القصيدتين من المحاسن والعيوب ، فاننا لا نعني بالاشخاص ، وإنما نعني
ان ندرس الشعر وان نقف على ما فيه من القوة والضعف ، والحسن
والقبح ، وكذلك ندرس البيان ونحن نوازن بين الشعراء



البحث الرابع عشر

(البحتري وشوقي)

فلنا إن لشوقي كلفاً بمعارضة المتقدمين من الشعراء ، ووازنا بين
داليته ودالية الحصري في الكلمة السابقة ، والآن نوازن بينه وبين البحتري ،
فقد عارض سينته في وصف إيوان كسرى بقصيدة سينية وصف بها
قصر الحمراء ، ولها تين القصيدتين قيمة كبيرة ، ومن الخير أن نوازن
بينهما موازنة دقيقة ، ليقف القاري على ما فيها من براعة الوصف

وحسن البيان

ولنذكر أولاً أن شوقي متأثر البحتري منذ بعيد ، ويود لو ظفر
شعره بتلك الديباجة البحترية ، التي ضربت بها الأمثال

ولننظر كيف يقول في خطاب « أم الحسين »

النيل فجر مشرعين وعيلاً وتفجرت يملك خمسة أبحر
أحييت في فضل الملوك وعزم مامات من أم الخليفة جعفر
إن الذي قد ردّها وأعادها في بردتيك أعاد في البحتري

وسنرى كيف يقول وهو يطوف بقصر الحمراء

وعظ البحتري إيوان كسرى وشفقتي القصور من عبد شمس

(حياة البحتري)

وُلد أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري في سنة ٢٠٦ هـ بمنجع بين

حلب والفرات

ومنيج - بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم -
 بلد قديم طيب الهواء ، ولد فيه جماعة من فرسان البلاغة : منهم
 البحري وأبو فراس ، ومن قبلهما عبد الملك بن صالح الذي قال له الرشيد
 لما دخل منيج : أهذا منزلك ؟ قال : هو لك ، ولي بك يا أمير المؤمنين
 قال : كيف بناؤه ، قال دون منازل أهلي ، وفوق منازل الناس ، قال :
 وكيف ذلك ، وقدرك فوق أقدارهم ؟ قال ذلك خلُقُ أمير المؤمنين .
 أتأتمى به ، وأقفو أثره ، وأحذو حذوه ، قال : فكيف طيب منيج ؟
 قال عذبة الماء ، طيبة الهواء ، قليلة الادواء ، قال : فكيف ليلاها ؟ قال :
 سحر كله !

وفي التشوق إلى منيج يقول ابراهيم بن المدبر وقد خلى بها شعبة
 من فؤاده

وليلة عين المرج زار خياله فهبج لي شوقاً وجدد أحزاني
 فأشرقت أعلى الدير أنظر طامحاً بالمح آماق وأنظر إنسان
 لعل أرى آيات منيج رؤية

تسكن من وجدي وتكشف أشجاني

فقصر طرفي واستهلّ بعبرة وفديت من لو كان يدري لفدائي
 ومثله شوق اليه مقابلي ونالجاه عني بالضمير ونالجاني
 وإنما ذكرنا لك هذه الكلمات عن منيج لتدرك بعض السر في رقة
 البحري وجمال شعره ، فإن للبلد الطيب الهواء ، العذب الماء ، القليل
 الأذواء ، أثراً كبيراً في تكوين نفس الشاعر ، والسكران ، والخطيب ، ولأن
 البحري كان كثير الحنين إلى منيج ، وكان كثيراً ما يشيد بها في شعره ،

ولننظر كيف يقول في خطاب أبي جعفر محمد بن حميد الطوسي
 لا أنسين زمننا لديك مهذباً وظلال عيش كان عندك سحسج
 في نعمة أوطنتها وسكنت في أفيائها فكأنني في منبع
 (بداية حياته)

شبّ البحرى وترعرع في منبع ، وكان يمدحها فيما يقولون أصحاب
 البصل والبادنجان !! قالوا « وكان منه ما كان في علوة التي شبب بها في
 كثير من أشعاره ، وهي بنت زريقة الحلبية ، وزريقة أمها ، ويظهر
 من هذه الكلمة أن زريقة الحلبية أم علوة كان لها شأن في عالم الجمال ،
 وأن البحرى حين أغرم بعلوة لم يرم فؤاده إلا بين يدي فتاة لعوب ،
 نشأت في مهد المراح ، وتقلبت فوق أعطاف الدلال . ولو أن العرب
 لم ينصرفوا عن التصوير لخلقوا لنا دمية لعلوة ، وأرونا كيف كانت هذه
 الفتاة التي أضرمت نار الوجد في صدر الوليد ، وعلمته كيف تكون
 الشكوى ، وكيف يكون الانين ! وإن الشعر لمدين لهذه الإلهة التي
 أوحى إلى البحرى أن يقول بعد أن خلاها بالشام وسكن العراق

أعيدي في نظرة مستثيب	توخي الأجر أو كره الأثاما
تري كبدًا محرقه وعينًا	مؤرقة وقلبًا مستهاما
ألام على هواك وليس عدلاً	إذا احببت مثلك ان ألاما
لقد حرمت من وصلي حلالا	وقد حلت من هجري حراما
تناءت دار علوة بعد قرب	فهل ركب يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبًا علينا	فما يعتادنا إلا لماما
وربت ليلة قد بت أسقى	بعينها وكفيها المداما

قطعنا الليل لثماً واعتناقاً وأفنيناه ضماً والتزاماً
 لئن أضحت محلتنا عراقاً مشرقة وحلتها شاماً
 فلم أحدث لها إلا وداداً ولم أزد بها إلا غراماً
 وهناك نفس ثانية كان لها على قلب البحترى سلطان . ومن الوفار
 أن لا نعرض لها في هذا الحديث ، وقد بسطنا عنها القول في كتاب
 « مدامع العشاق » ويكفي أن نذكر أنموذجاً من شعره في وصف تلك
 النفس ، وإنه ليقول

هل لي سبيل إلى أنظهر أن من حلب ونشوة بين ذاك الورد والآس
 أم دكني لأخذ الكاس من رشاً وحاجتي كلها في حامل الكاس
 بقرب أنفاسه أشفي الغليل اذا دنا فقرَّبها من حر أنفاسي
 (اتصاله بأبي تمام)

ولعل أظهر حادث نقل البحترى من عهد إلى عهد ، هو اتصاله
 بأبي تمام أمير الشعراء في ذلك الحين ، فقد صار إليه وهو بمحضر وعرض
 عليه شعره ، وكان أبو تمام يجلس فلا يبق شاعر إلا قصده ، وعرض عليه
 شعره ، فلما سمع شعر البحترى أقبل عليه ، وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا
 قال له : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا إليه خلة ، فكتب
 إلى أهل معرة النعمان يشهد له بالحق ويوصيهم بإكرامه . قال البحترى
 « فأكرموني بكتابه . ووظفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكانت أول
 مال أصبته » وقال البحترى : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري ، فأشادني بيت
 أوس بن حجر

إذا مقيمٌ منا ذرى حدّ نابه تخمط فينا ناب آخر مكرم

وقال : نعت إلى نفسي ! فقلت : أعيدك بالله من هذا ! فقال
ان عمرى ليس يطول وقد نشأ لطي ، مثلك . أما علمت أن خالد بن صفوان
المنقرى رأى شبيب بن شبة وهو يتكلم ، وهو من رهطه ، فقال يا بني ،
نعي نفسي إلى إحسانك في كلامك ، لأننا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب
إلا مات من قبله ، قال : مات أبو تمام بعد سنة من هذا
وهذه بالطبع وسوسة من أبي تمام ، ولكنها شاهد على حسن رأيه
في شعر البحتري ، وقد كان أبو تمام من أعلم الناس بالشعر ، حتى قالوا إنه
في اختياره أبلغ منه في شعره

وقال البحتري : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حميد وصلت
به إلى مال له خطر ، فقال لي « أحسنت ، أنت أمير الشعراء بعدي »
فكان قوله أحب إلي من جميع ما حوته

ولا يفرتما أن نذكر وصية أبي تمام للبحتري ، فقد نوّه بها ابن رشيق ،
وساقها صاحب زهر الآداب ، وهي تدلنا على رأي أبي تمام في نظم الشعر
وذوقه في اختيار الأوقات ، وتدلنا كذلك على أسلوب البحتري في حياته
الأدبية ، فقد ساس نفسه بما أوصاه به أستاذه ، وفيها أيضاً نوع من
انترية نحب أن نسجله في هذا الحديث

قال البحتري : كنت في حدائتي أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه
إلى طبعي ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضابه ، حتى
قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه إليه ، واتكلت في تعريفه عليه ، فكان
أول ما قال لي : يا أبا عبادة ، تخير الأوقات ، وأنت قليل الغموم ، صفر
من الغموم ، واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان

لتأليف شيء، أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس قد أخذت
حظها من الراحة، وقسطها من النوم. وإن أردت التشبيب فاجعل اللفظ
رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه من بيان الصبابة، وتوَجُّع الكآبة،
وقلق الأَشواق، ولوعة الفراق، فإذا أخذت في مديح سيد ذي أياذ،
فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وأبّن معالمه، وشرف مقامه، ونصّد المعاني،
واحذر المجهول منها، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الرديئة، ولتكن
كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد، وإذا عارضك الضجر
فأرح نفسك، ولا تعمل شعرك إلا وأنت فارغ القلب، واجعل شهوتك
إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين، وجملة الحال أن
تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين، فما استحسن العلماء، فاقصده،
وما تركوه فاجتنبه، ترشد إن شاء الله

قال المحترى: فأعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة (١)
ولهذه الوصية أغراض، يرجع بعضها إلى رياضة النفس، تأهباً
للقريض، ويرجع بعضها إلى جوهر الفن، أما فيما يرجع إلى رياضة النفس
فأبو تمام مسبوق بطائفة من الشعراء والخطباء، أوصوا باختيار الأوقات
التي تصفو فيها النفس، ويلطف الحس، ويستيقظ الوجدان، ومنهم
من دعا إلى الاستنجاد بالمياه الجارية، والرياض الحالية، والأما كن الخالية،
إلا أن أبا تمام - مع أنه مسبوق - وُفِّقَ كل التوفيق حين قال «واجعل
شهوتك إلى الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين»
وهذه كلمة فاصلة في حياة الفنانين على الإطلاق، سواء كانوا شعراء أم

كتاباً أم مصورين أو مثالين ، لأن الاجادة في الفنون تتوقف على الشهوة ، وأكاد أحكم بأن الفنان لا يبدع ولا يجيد ، إلا إن كان له من فنه معبود جديد

وأما فيما يرجع الى جوهر الفن فأبو تمام قصر وصيته على العناية بالنسيب والمديح ، وسكت عن بقية الأغراض التي يهتم بها الشعراء ، فلم يتكلم عن الرثاء ، ولا الهجاء ، ولا الفخر ، ولا الوصف ، مع أن الوصف من أهم ما يعني به الشعراء ، ولعله اكتفى بهذه الكلمة العامة التي تنطبق على كل موضوع اذ قال « ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجساد » وهي كلمة دقيقة على ما فيها من الابتذال

ولا يحسن القاري ، أن في إقبال البحري على ما أوصاه به استاذاه دليلاً على أن شعر أبي تمام وشعر البحري من نمط واحد . . كلا ! فان أبا تمام في وصيته يمثل الاستاذ ، ولا يمثل الشاعر ، لأننا لو حاكنا شعره الى وصيته لراعنا ما بين المنزعين من الفرق البعيد ، ولا سيما فيما يتعلق بالتشبيب فان أبا تمام لم يتغن بالحسن الا قليلاً ، وحظه من صدق اللوعة ضئيل

وهما يكن من شيء ، — كما يعبر استاذنا الدكتور طه حسين — فان في عناية البحري بوصية استاذاه بياناً لاسلوبه في رياضة نفسه وتهذيب شعره ، فلننظر بهذه المناسبة ، كيف يروض شوقي نفسه ، وكيف يهذب شعره ، وكيف يتناول ما يقصد الى نظمها من شتى الأغراض ، فقد صحبنا شوقي وعاصرناه ، وهو بحمد الله يعيش معنا في مدينة واحدة ، وقد نقرأ عليه سينيته في قصر الحمراء قبل أن نضعها في الميزان ، وادنا نرن بالقسطاس المستقيم ! —

صاحب شوقي ، إن شئت ، فسترأه قليل الحديث ، وستعجب كيف يكون هذا الصيت الذائع ، لهذا الرجل الصموت ، وقد تصفه بالتواضع كما وصفه كثير من المتأدين ، ولكنني وقد عرفت شوقي ، أحكم بأن هذا الرجل مجنون جديد من مجانين ليلي . وليلاه هي الشعر ، وهو بالشعر مجنون ، لا مغرم ولا مفتون ، فان الغرام والفتنة من أيسر ما يعرض لأرباب القلوب

يحدثك شوقي حديثاً عادياً لا روعة له ، ولكنه لا ينفك يدور بنظرته الحائرة ، وكأنه يبحث عن شيء في لفائف قلبه ، وحنانيا نفسه : وأعماق ضميره - دخلت عليه وهو يتأهب لرثاء الصوفاني بك ، فأخذ يحدثني عن الجامعة المصرية ونظامها الجديد ، ثم بغتني بهذه الكلمة : « الصوفاني بك معضلة من العضلات ، هو تمثال اخلاص ، ولكن هل له عقل الفلاسفة والزعماء » فعرفت أن الرجل في واد آخر غير الحديث عن الجامعة المصرية ، وأن قلبه ، ونفسه ، وحسه ، ووجدانه ، في شغل بما يعمده لرثاء الصوفاني بك « تمثال الإخلاص » وعرفت أنه لا بد أن يقول شيئاً في تحديد تلك الشخصية ، ثم انتظرت يوم التأين فاذا هو يقول عن أثر الفقيه في المجالس النيابية

ما كان قُساً ولا زياداً ولا بسحر البيان جاء

لكن إذا قام قال صدقاً وجانب الزور والرياء

وقد وصفه الاستاذ خليل مطران وصفاً صادقاً حين قال « ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم ، وينظم في الركبة ، وفي السكة الحديدية وفي المجتمع الرسمي ، وحين يشاء وحيث يشاء ، ولا يعرف جليسة أنه

ينظم الا إذا سمع منه باديء بدء غنمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد،
ثم رأى ناظره وقد برقاً وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بصر به وقد
رفع يده إلى جبينه، وأمرها عليه إمراراً خفيفاً هنيئة بعد هنيئة — فاذا
قوطع في خلال النظم انتقل إلى أي بحث يباحث فيه حاضر الذهن صافيه،
جميل البادرة، كعادته في الحديث — ثم إذا استأنف ذلك المنظوم ولو
بعد أيام طوال عاد اليه كأنه لم ينقطع عنه مستظهِراً ما تم منه حافظاً لبقية
المعنى الذي يضره، يكتب القصيدة بعد تمامها وربما تمت ونسيها شهراً،
ثم ذكرها فكتبها في جلسة واحدة — يكلف أحياناً بمعارضة المتقدمين
ولا يندر عليه أن يبرهن — لا يجهد فكره ولا يكده في معنى أو مبنى،
فأما المعنى فيجيبه على مرامه أو على أبعده من مرامه، ولا ينضب عنده
لأنه يستخلصه من عقل قوار الذكاء، ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب
في لغات الأفرنج والأعراب، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ، وغرائب
السير التي يحفظ منها غير يسير، إلى مشاركات علمية، وتنبيهات
فنية، استقاهها من مطالعته في صنوف الكتب، واتخذها من ملحوظاته
ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب. وأما المبنى فله فيه أذواق
متعددة بتعدد مقامات القول، ترى فيه من نسج البحتری، ومن صياغة
أبي تمام، ومن وثبات المتنبي، ومن مفاجآت الشريف، ومن مسلسلات
مهيار، وفي المجموع تجد صفة عامة للنظم وهي أنه نظم شوق، ذلك شعر
العبترية والتفوق»

وإذ ذكرنا عادة البحتری وشوق في عرض الشعر، فلنذكر كذلك
أنهما يشتركان في العناية بالآداب العربية، فقد ترك البحتری كتاباً سماه

«معاني الشعر» وترك كتاباً آخر في الحماسة كالذي تركه أبو تمام، ولكنه يمتاز عنه بسهولة اللغة وتنوع الموضوعات. وشوقي: وإن لم يصنف كتباً في الآداب، يقرأ ويدرس بشراسة تفوق الوصف، ويتعقب الحركة الأدبية بنشاط عجيب. ويختلفان في انشاد الشعر والإشادة به، فقد كان البحري يحثي بانشاد شعره، ويسلك في ذلك مسلك التلحين والتطريب كان يطيل النظر في وجوه الحاضرين، ليرى مبلغ إعجابهم به، وإكبارهم له، حتى نفر الناس منه، وعبت به أهل السفه وأصحاب المجون. أما شوقي: فقلما يتحدث عن شعره، وقلما ينشده، وإنما يوكل بانشاده من يتوسم فيه حسن الفهم، وحسن الأداء. وهذا المسلك، مع ما فيه من دلائل الحياء، أو الشعم، غير مأمون العواقب، وكثيراً ما آذى الشاعر وعاد عليه بالضرر البالغ، وعفا الله عن فلان وفلان!

(وفاء البحري وشوقي)

ولقد كانت الشاعرية، ولا تزال، دالة على سمو النفس، ويقظة الوجدان، والحوادث هي التي تميز عناصر النفوس، وقد وقع للبحري وشوقي من كبار الحوادث ما ظهر معه ما لهما من قوة النفس، ومتانة الخلق، وكرم العنصر، ولم يحن الوقت لتدوين ما وقع لشوقي! فلنكتف بهذا التاميم، ولنذكر ما صير البحري مثلاً في الوفاء.

كان المتوكل - كما ذكر صاحب زهر الآداب - عقد لولده المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد، ثم تغير على المنتصر دون أخويه، وكان يسميه المنتظر، ويقول له: أنت تمتنى موتي، وتنتظر وقتي، ويأمر الندماء أن يعبثوا به، إلى أن أوغر صدره، وأقل صبره، فلما كانت ليلة الأربعاء،

لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين ، كان المتوكل يشرب مع الفتح في قصره المعروف بالجعفري ، ومعه جماعة من الندماء والمغنين ، وكان المنتصر معهم ، فلما انصرف ثلاث ساعات من الليل ، قال لزرافة التركي : ألا تسمعي ساعة حتى أشكو اليك ما يمر بي ؟ قال يا . وجعل يماطله ويطاوله ، وغلق بَغَا الشرابي الأبواب كلها إلا باب الماء ، ومنه دخل الذين قتلوا المتوكل ، وقد ضربوه ضربة قطع بها جبل عاتقه ، وتلقاه الفتح بنفسه فأكب عليه ، فقتلا جميعاً ، وبويع المنتصر من ساعته ، قال الحصري « وكانت مدة المنتصر في الخلافة مدة شيرويه بن كسرى حين قتل أباه ستة أشهر » - وللظالم الويل !

كانت هذه القتلة الشنيعة التي تردى بها خليفة من خلفاء المسلمين وكان هذا الخليفة ولي نعمة البحري ، وكان استبداد المنتصر اذ ذاك كافياً في ردعه عن رثاء مولاه ، ولكنه رثاه بقصيدة وصفها أبو العباس ثعلب بقوله « ما قيلت هاشمية أحسن منها ! وقد صرح فيها تصرّح من أذهلت المصائب ، عن تخوف العواقب » وفيها يقول :

تغيّر حسن الجعفري وأنسه	وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءه	فأضت سواء دوره ومقابره
ولم أر مثل القصر إذ ربيع سربه	واذ دُعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صبح فيه بالرحيل فهتكت	على عجل أستاره وستاره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسي	وقد كان قبل اليوم يهيج زائره
فأين عميد الناس في كل نوبة	تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره
تخفى له مقتاله تحت غرة	وأولى لمن يغتاله لو يجاهره

صريع تقاضاه السيوف حُشاشة
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى
وهل يُتجى أن يطاب الدم طالب
فلا ملبّي الباقي تراث الذي مضى
يجود بها والموتُ حُمره أظافره
دماً بدم يجري على الأرض مائره
مدى الدهر والموتور بالدم وآثره
ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ونظرة واحدة إلى ما كان يجري في تلك العصور من الظلم والاضطهاد:
تريك أن البحتري كان من أشجع الناس وأوفاهم بهذه القصيدة، على أنه
لم يقف عند هذا الحد، بل كان يرتاح في كثير من شعره إلى ذكر
المتوكل والفتح بن خاقان، وانظر كيف يفيض شعره بالأسى وهو يقول
لبعض من يمدحه:

تداركني الإحسان منك ونالني
ودافعت عني حين لا الفتح يُرتجي
وما أوجع ما يقول من كلمة ثانية
على فاقة ذاك الندى والتطوّل
لدفع الأذى عني ولا المتوكل

ومضى جعفر والفتح بين مؤسّد
أطلب أنصاراً على الدهر بعد ما
وبين قتييل في الدماء مضرّج
نوى منهما في التراب أوسي وخزرجي
وانظر كيف يقول وقد بان بعض من هوى

عسى آيس من رجعة الوصل يوصل
أيا سكنناً فات الفراق بنفسه
أنعجب لما لم يفعل جسمي الضنا
فقبلك بان الفتح عني مودعاً
ودهرٌ تولى بالأحبة يُقبل
وحال التعادي دونه والتزليل
ولم يخترم نفسي الحمام المعجل
وفارقني شفعا له المتوكل
ولا فعل الوجد الذي خلت يفعل
وما كل أدواء الصبابة تقتل
وما كل نيران الجوى تقتل الحشا

تلك هي نفس البحترى ، الذي عذبتة علوة في بداية حياته ، وصهره
الحزن على المتوكل في أخريات أيامه ، وقد عرف القارئ عنه شيئاً فيه
بعض الغناء ، وعرف كذلك ما بينه وبين شوقي من الاختلاف والاشتراك
ومن الواجب أن يعرف من هذين الشعارين في بكاء الممالك ، والتفجع
لنكبات الشعوب ، قبل أن يرى كيف وصف البحترى إيوان كسرى ،
وكيف وصف شوقي قصر الحمراء

البحث الخامس عشر

« بكاء الممالك عند البحترى وشوقي »

كانت عواطف الشعراء عواطف فردية ، لا اجتماعية ، فكان
الشاعر يبكي وجده ونعيمه ، وهو يندب الرسوم ويتوجع للطلول ، ولم
يهم العرب بكاء الممالك ، والتفجع للشعوب ، إذ كانوا في بداية الحياة ،
وكان الرجل منهم قلماً يُعنى بغير نفسه ، وأهله ، وذويه ، فكانوا في شغل
بأنفسهم عن بلايا الإنسانية ، التي تصرخ من حولهم وهم عنها غافلون
ثم جاء القرآن فسلك في الحديث عن الممالك البائدة ، مسلك التخوين
والترهيب ، فلم يعطف عليها بكلمة ، ولم يستر لها عورة ، لأن القرآن
لم يكن كتاب شعر ، يرمي إلى روعة الفن وجل الخيال ، وإنما كان
كتاب حكمة وعظة ، فكان من حقه أن يقول بحزم ورزانة « أو لم
يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ؟
كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان
لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا

فأخذهم الله ، إنه قوى شديد العقاب « ولولم يكن الزجر والردع من أغراض القرآن الأساسية ، لكان له شأن غير هذا الشأن ، وهو يتحدث عن فرعون وإبليس ، ومن اليهم من الجبابة والطغاة ، فقد جرى حديثه عنهم مجرى السماتة ، وكانوا ينبوع سحر لا ينضب ولا يفيض ، لو كان القرآن كتاب فن وكتاب خيال

على أن العرب لم يغفلوا عن الإشادة بما طوى الدهر لهم من حضارة ولم يفهم التغني بما كان لأسلافهم من ضخامة المدنية ، وإن شابوا ذلك بالتحسر على ما درس من معالم اللهو ، وانتعزق لما عفا من ملاعب الشباب ، فمن ذلك قول الأسود بن يعفر النهشلي :

نام الخلي وما أحس رقادي	والهم محتضر لدى وسادي
من غير ما سقم وليسكن شغني	هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبالك اني	ضربت على الأرض بالأسداد
لا أهتدى فيها لموضع تلة	بين العراق وبين أرض مراد
ولقد علمت سوى الذي نبأني	ان السبيل سبيل ذى الأعواد
إن المنية والحتوف كلاهما	يوفي الخارم يرقبان سوادى
لن يرضيا مني وفاء رهينة	من دون نفسي طارفي وتلادى

ثم يقول في بكاء من ساد من الذاهيين :

ما ذا أوئل بعد آل محرق	تركوا منازلهم وبعد إباد
أهل الخورتق والسدير وبارق	والقصر ذى الشرفات من سنداد
أرض تخيرها لطيب مقيلبها	كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم	فكأنما كانوا على ميعاد

ولقد غَنَوَا فِيهَا بِأَنْعَمِ عَيْشَةٍ فِي ظِلِّ مَلِكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقَرَةَ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ مَاءُ الْفَرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
فَإِذَا النِّعَمِ وَكُلِّ مَا يُلْهِى بِهِ يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَيْلٍ وَنَفَادِ
ثُمَّ عَادَ إِلَى بَيْكَاءِ شَبَابِهِ فَقَالَ :

إِمَّا تَرِينِي قَدْ بَلَيْتُ وَغَاضَنِي مَا نِيلَ مِنْ بَصْرَى وَمِنْ أَجْلَادِي
وَعَصَيْتُ أَصْحَابَ الصَّبَابَةِ وَالصَّبَا وَأَطَعْتُ عَاذَاتِي وَلَانَ قِيَادِي
فَلَقَدْ أُرْوَحَ عَلَى التَّجَارِ مَرْجَلًا مَذَلًا بِمَالِي لَيْنًا أَجْيَادِي
وَلَقَدْ لَهَوْتُ وَلِلشَّبَابِ لَذَاذَةٌ بِسَلَافَةٍ مَزَجَتْ بِمَاءِ غَوَادِ
مَنْ خَرَذَى نَظْفَ أَغْنَى مُنْطَقَ وَافَى بِهَا لِدِرَاهِمِ الْأَمْجَادِ
يَسْعَى بِهَا ذُو تَوَمَتَيْنِ مَشْمَرِ قَنَاتِ أَنْأَمَلُهُ مِنَ الْفِرْصَادِ
وَالْبَيْضُ يَرْمِي الْقُلُوبَ كَأَنَّهَا أُدْحِي بَيْنَ صَرِيمَةٍ وَجِمَادِ
يَنْطَقْنَ مَعْرُوفًا وَهَنْ نَوَامٍ بَيْضُ الْوُجُوهِ رَقِيقَةُ الْأَكْبَادِ

وَنَحْنُ هَذَا النَّحْيُ مَتَمُّ بِنُورَةِ فِي عَيْنَيْهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنِّي لِلْحَادِثَاتِ فَهْلُ تَرِينِي أَجْزَعُ
أَفْنِينَ عَادًا ثُمَّ آلَ مُحْرَقِ فَتَرَكْنَهُمْ بَدَدًا وَمَا قَدْ جَمَعُوا
وَلَهْنُ كَانَ الْحَارِثَاتِ كَلَاهَا وَلَهْنُ كَانَ أَخُو الْمَصَانِعِ تَبَعُ
لَا بَدَّ مِنْ تَلَفٍ مُصِيبٍ فَاتَنْظُرِ أَبَارِضَ قَوْمِكَ أَمْ بِأُخْرَى تَصْرَعُ
وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمَ مَرَّةٍ يُبْعِثُكَ عَلَيْكَ مَقْنَعًا لَا تَسْمَعُ
وَكَذَلِكَ نَجِدُ فِي خُطْبِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ شَذَرَاتٍ فِي التَّوَجُّعِ لَمَّا
أَنْقَرَضَ مِنَ الْمَمَالِكِ وَالشُّعُوبِ ، وَلِسْكَهَا لَا تَمَثِّلُ الْوَقْفَاتِ الْفَنِيَّةُ الَّتِي تَشَدُّ

اليها الرحال ، كوقفة البحترى عند رسوم الإيوان ، ووقفة شوقي عند
أطلال الحمراء .

(إيوان كسرى)

وقد يحمل أن نذكر أن إيوان كسرى ، الذي استلم البحترى أحجاره ،
وطاف بأركانه ، كان مضرب المثل عند الأعراب ، فقد قيل لأعرابي :
كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار ، واتعل كل شيء ظله ؟ فأجاب
وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشي أحدنا ميلا فيرفض عرقا كأنه الجمان ،
ثم ينصب عصاه ، ويلقي عليها كساءه ، وتقبل الرياح من كل جانب فكأنه
في إيوان كسرى ، وقد حكى فيما نقل ياقوت أن المنصور لما أراد بناء
بغداد استشار خالد بن برمك في هدم الإيوان وإدخال آله في عمارة
بغداد ، فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ! فقال : أبيت إلا التعصب
للفرس ! فقال ما الأمر كما ظن أمير المؤمنين ، ولكنه أثر عظيم يدل
على أن ملة ودينا وقوما أذهبوا ملك بانيه ، لدين وملك عظيم ، فلم
يصنع إلى رأيه وأمر بهدمه ، فوجد النفقة عليه أكثر من الفائدة بنقضه
فتركه . فقال خالد : الآن أرى يا أمير المؤمنين أن تهدمه ، لئلا يقال إنك
عجزت عن خراب ما عمره غيرك ، ومعلوم ما بين الخراب ، والعمارة !

وقد تكون هذه الحكاية صحيحة وقد تكون خرافة تناقلها الناس ،
ولكنها على كل حال دليل على منزلة الإيوان في صدور العرب لذلك العهد
أما قصر الحمراء الذي بكاه شوقي فهو من قصور الأندلس ، والأندلس
هي الفردوس المفقود ، الذي يبكيه المسلمون ، ولنتظر فسيحدثنا شوقي
عنه أصدق الحديث

(نفسية البحري)

وأريد بنفسية البحري ذلك الخاطر الذي استولى عليه حين لم بوصف
الايوان ، وقد رأيناه يذكر لذلك علتين : إحداها في بداية القصيدة ،
والثانية في النهاية ، أما الأولى فهي الهرب من الهموم ، ومن ظلم الاقارب ،
بالفرع إلى طول الايوان ، ينسى في أكنافها حزنه وبثه ، ويستودعها
أساه وشجاءه ، وذلك حيث يقول :

صنّت نفسي عما يدنس نفسي	وترفعت عن جدا كل جبن ^(١)
وتماسكت حيث زعزعني الدهر	رالتماسا منه لتعسي ونكسي
بلغ من صباة الميش عندي	طففتها الأيام تطفيف بجس
وبعيد ما بين وارد رفه	علل شربه ووارد خمس ^(٢)
وكان الزمان أصبح محموا	لا هواه مع الأخس الآخر
واشترائي العراق خطة غبن	بعد بيعي الشام بيعة وكس
لا ترزني مزاولا لاختباري	عند هذي البلوى فتنكر مسي ^(٣)
وقديما عهدتني ذا هنات	آيات على الدينيا شمس
ولقد رايتني نبو ابني عمي	بعد لين من جانبيه وأنس
وإذا ما جفيت كنت حريّا	أن أرى غير مصبح حيث أمسي

ثم انتقل الى الموضوع مباشرة فقال :

حضرت رحلي الهموم فرجه ————— إلى أبيض المدائن عني
أنسلي عن الحظوظ وآمي ————— لحل من آل ساسان درمن
ذكر تنهيم الخطوب التوالي ————— ولقد تذكر الخطوب وتنسي

(١) الجيس : هو الذي الجبان (٢) الخمس : شر الاظماء (٣) لا ترزني : لا تمنحني

وزراه في نهاية القصيدة يذكر أنه بكى الايوان وليست الدار داره
ولا الجنس جنسه ، لأن لأهله نعى عند أهله ، ولأنهم أيدوا مملكتهم
وشدوا قواه ، بما أمدوهم به من الكتاب في أيام القتال ، وذلك حيث يقول
عُمِّرَتَ للسرور دهرًا وصارت للتعزى رباعهم والتأني
فلها أن أعينها بدموع مؤففات على الصبابة جنس
ذاك عندي وليست الدار داري باقتراب منها ولا الجنس جنسي
غير نعى لأهلها عند أهلي غرسوا من ذكائها خير غرس
أيدوا ما مكننا وشدوا قواه بكماة تحت السنور خمس (١)
وأعانوا على كتاب أريا ط بطمن على النحور ودعس
وأراني من بعد أكلف بالاشرا في طرا من كل سنخ وأس
وفي هذا البيت الأخير يذكر أنه يكلف بالاشراف من كل جنس ،
ويكي المجد الذاهب وإن تقطعت بينه وبين أهله الأسباب

(نفسية شوقي)

أما شوقي فقد حدثنا عن خاطره حين هم بوصف الحراء ، فترك لنا
قطعة منشورة تصف لنا حسه ووجدانه وهو يطوف بذلك البيت . وقد
سلك شوقي هذا المسلك غير مرة ، فانا نراه تقدم قصيدته في وصف رومة
برسالة بعث بها الى أستاذنا الجليل اسماعيل بك رافت ، ونجده فعل مثل
ذلك حين قدم للاستاذ مرجليوث قصيدته في وصف النيل . وإلى القاري ،
كلمته عن رحلته إلى وطن ابن خفاجة وابن زيدون
« لما وضعت الحرب الشؤمي أوزارها ، وفضحها الله بين خلقه

وهتك إزارها ، ورم لهم ربوع السلم وجدد مزارها ، أصبحت واذا
 العوادي مقصرة ، والدواعي غير مقصرة ، واذا الشوق الى الاندلس
 أغلب ، والنفس بحق زيارته أطلب ، فقصدته من برشلونة ، وبينهما
 مسيرة يومين بالقطار المجد ، والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى
 الخارجة من المحيط ، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت
 النفس بمرآة الأرب ، وكملت العين في ثراه بآثار العرب ، وانها لشتى
 المواقع ، متفرقة المطالع ، في ذلك الفلك الجامع ، يسرى زائرهما من حرم
 الى حرم ، كمن يمسى بالسكنك ويصبح بالهرم ، فلا تقارب غير العتق
 والكرم ، طليطة تطل على جسرهما البالي ، واشبيلية تشبل على قصرها
 الخائي ، وقرطبة منتبذة ناحية بالبيعة الغراء ، وغرناطة بعيدة مزار الحمراء ،
 وكان البحترى رحمه الله رفيقي في هذا الترحال ، وسميرى في الرحال ،
 والأحوال تصلح على الرجال ، كل رجل لحال ، فإنه أبلغ من جلبي الاثر
 وحياً الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، ومن قام في ماتم على الدول
 الكبير ، والملك البهايل الغرر ، عطف على الجعفرى حين تحمل عنه
 الملا ، وعطل من الحلي ، ووكلي بعد المتوكل للبلى ، فرفع قواعده في السير ،
 وبني ركنه في الخبر ، وجمع معاملة في الفكر ، حتى عاد كقصور الخلد
 امتلات منها البصيرة وان خلا البصر ، وتكفل بعد ذلك لكسرى
 بايوانه ، حتى زال عن الأرض الى ديوانه . وسينيته المشهورة في وصفه ،
 ليست دونه وهو تحت كسرى في رصه وورصفه ، وهي تريك حسن قيام
 الشعر على الآثار ، وكيف تتجدد الديار في بيوته بعد الاندثار . قال
 صاحب الفيح القسي في الفتح القدسي ، بعد كلام « فانظروا الى ايوان

كسرى وسينية البحتری في وصفه ، تجددوا الايوان قد خرت شعفاته ،
وعفرت شرفاته ، وتجددوا سينية البحتری قد بقي بها كسرى في ديوانه ،
أضعاف ما بقي شخصه في ايوانه » وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جبس

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله :

والمنايا موائل وأنوش

وان يزحى الصفوف تحت الدرفس (١)

فكنت كلما وقفت بحجر ، أو طفت بأثر ، تمثلت بأبياتها ، واسترحت

من موائل العبر إلى آياتها ، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي

وعظ البحتری إيوان كسرى وشفقتي القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروي ، وأعالجه على هذا الوزن ،

حتى نظمت هذه القافية المهلهلة ، وأتممت هذه الكلمة الرقيقة ، وأنا

أعرضها على القراء ، راجياً أن يلحظوها بعين الرضاء ، ويسحبوا على عيوبها

ذيل الإغضاء »

وهذه الكلمة تمثل نثر شوقي ، فهو يسجع ولا يكاد يُبين ، غير أنه

قد يوفق إلى تشابهه مبتكرة تسير مسير الأمثال ، كقوله في وصف آثار

العرب في بلاد الأسبان « يسري زائرها من حرم الى حرم ، كمن يمشي

بالكرنك ويصبح بالهرم »

وتلك والله عبادة صريحة لآثار الفراعنة على ضفاف النيل

وهي كذلك تمثل رأيه في شعر البحتری : فهو عنده « أبغ من جلي

(١) الدرفس : العلم وهي كلمة فارسية

الأثر ، وحيا الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، وتصور لنا تلك الكلمة
ما كان يحول في نفس شوقي ، وكيف كان روح البحتري لطيف به وهو
يطوف بالجرء

ولا ندري من هم الذين يذكر شوقي أنهم اتفقوا على أن البديع الفرد
من قصيدة البحتري قوله

والمنايا موائل وأنوشر

وان يزجى الصفوف تحت الدرفس

وكنا نحب لو تنبه لقوله في وصف الإيوان

ليس يُدرى أصنع إانس لجنٍ سكنوه أم صنع جن لانسٍ
وقوله في بكائه

لو تراه علمت أن الليالي جعلت فيه مأتماً بعد عرس

ولشوقي رأيه ، فقد يختلف النقد أحياناً باختلاف الأذواق



البحث السادس عشر

« بين البحري وشوقي »

قد رأيت في الكلمة الماضية أن البحري ابتداءً سينيته بالتبرم بالعيش
وشكوى الزمان ، والتنكر لظلم الأقرين ، وكان ذلك لأن نزعته لم
تكن اجتماعية ، وإنما كانت فردية ، أما شوقي فقد ابتداءً سينيته بقطعة
وجدانية ، تفيض بالحنين إلى مصر ، وترخر بالشوق إلى النيل ، وهو كما
يتكلم عن نفسه ، ويحدث الناس عن شجونه ، ولكنه في الواقع يتوجع
لما يعاني وطنه من وطأة الظلم ، ويتفجع لما تقاسي بلاده من قسوة
الاضطهاد ، وأنه ليكي ملاعب شبابه ، وعهود صباه ، حين يقول في
مطلع هذه السينية

اختلاف النهار والليل يُنسي	فاذكري لي الصبا وأيام أنسي
وصيفا لي ملاوة في شباب	صُورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا للعب ومررت	سنة حلوة ولذة خلّس

ثم يأخذ في الحديث عن مصر فيقول:

وملا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسي
كلما مرت الليالي عليه رق والمهد في الليالي تقسي
مستطاره إذا البواخر رنت أول الليل أو غوت بعد جرس
ولا أحب أن أتقل إلى خطاب شوقي للباخرة قبل أن أنبه القاري ،
إلى روعة الحسن في قوله

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسّي
فقد جعل حبه لبلاده أعز من أن تنال منه الليالى ، وجعل جرحه
في هوى مصر أعضل من أن يطب له الزمان ، وانظر كيف وصف
قلبه حين قال :

كلما مرت الليالى عليه رِق والعهد في الليالى تقسي
مستطارت اذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بعد جرس
وهو هنا لم يذكر أن قلبه كان يخفق كلما أومض البرق ، أو هب
النسيم ، كما كان يتحدث الاغراب ، وإنما يصف ما يحسه الغريب على
شواطئ المحيط وأين وميض البرق ، وهبوب الريح ، من أصوات
البواخر في غسق الليل ؟ ثم قال :

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ما له مولعاً بمنع وحبس
أحرام على بلبله الدو حلال للطير من كل جنس
كل دار أحق بالأهل الا في خبيث من المذاهب رجس
والقارى ، يتلقى هذه الايات الآن بشيء من الطمأنينة ، أما الذين
قرأوها يوم قالها شوقي فلم يفهم فيها رأي ، ومن كان في ريب من هذا
فليذكر الاحكام العرفية ، لا قدر الله لها رجعة ، ولا كتب لها أوبة .
فقد كنا نتغنى بقول شوقي

أحرام على بلبله الدو حلال للطير من كل جنس
ثم تتمثل مصر في صورة الشجرة الوريقة ، نُفرت عنها البلابل
المفردة ، ثم صارت مأوى للبوم ، ومقيلاً للغربان . وكذلك كانت مصر
في ذلك الحين ، فكان شهيد الحرية محمد بك فريد ، يرسل الاماني عساها

تقبّل ثرى مصر ، وتنهل من سلسبيل النيل ، ثم لا تجاب له طلبه ، ولا يدنو منه مأمول ، في حين أن بلاد الفراعنة كانت مفتحة الابواب لكل أثيم القلب ، وقاح الوجه ، خبيث اللسان !! وسيظل قول شوقي

أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس

سيظل هذا البيت مشاراً للشجى والاسى ، حتى تغدو تلك الشجرة ذات الظلال والافنان ، وهي للبلابل مأوى وللطواويس مقيل ، أما قوله

كل دار أحق بالاهل الا في خبيث من المذاهب رجس

فهو رمية مسددة في صدر الظلم ، ونحر الاستبداد ، وسيظل عصاة

يشجى بها بعض الخلق — ثم قال في خطاب الباخرة

نفسى مرجل وقلبي شرع بهما في الدموع سيري وأرسي

واجعلي وجهك «الفنار» ومجرا لك يد «الشعر» يزرمل ومكس

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في اخلد نفسي

وهنا بالفؤاد في سلسبيل ظمأ للسواد من عين شمس

شهد الله لم يقب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسى

يصبح الفكر والمسلة ناديه وبالسرحة الزكية بمسي

وأي نفس يمثاها شوقي في هذا الشعر البديع ، انه والله يمثل النفس

المصرية ، وحسبى ان أقول النفس المصرية (وهل في الدنيا — ولولا التي

لأضفت اليها الآخرة — وطن خليق بان يعذب في سبيله أبناءه مثل

وادي النيل ؟

ان الذي يعيش في مصر ، وله ذوق شوقي واحساسه ، ليس بكثير

عليه ان يقول

شوقي
يخلد
المسألة

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني اليه في الخلد نفسي
وهفا بالفؤاد في سلسبيل ظمأ للسواد من عين شمس
شهد الله لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخل حسني
ولقد كانت مصر ، ولا تزال ، باباً من الفتنة لكل من عسي وله فيها
رأي مطاع ، وبفضلها يقول فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الانهار
تجري من تحتي أفلا تبصرون » ولقد يذكرون أن المأمون قال لجنوده
وهو يشاهد الاهرام « أبهذه كفر فرعون بربه ! » فقال له احد وزرائه
يا امير المؤمنين ان الله يقول « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما
كانوا يعرشون » فاذا كانت هذه بقايا ما دمر الله فلفرعون المذر ان غلب
عليه الضلال

وطغيان ملوك مصر دليل على ما تورث أهلها من العزة ، وتغرس
فيهم من الجبروت ، كالسيف الصقيل يحمل صاحبه على الفتك ، ويحبب
اليه العدوان ، وسبحان من لو شاء لرزقنا قسطاً من أسباب الفتنة في
هذه البلاد

ثم يقول شوقي وهو ي تمثل الجزيرة والنيل :

وكانني أرى الجزيرة أيقا نعمت طيره بأرخم جرس
هي بلقيس في الحماثل صرح من عباب وصاحب غير نكس
حسبها أن تكون للنيل عرساً قلبها لم يحزن يوماً بعرس
لبست بالأصيل حلة وشي بين صنعاء في الثياب وقس^(١)
قدّها النيل فاستتحت فتواتر منه بالجرس بين عري ولبس

(١) قس : بالفتح موضع بين العريش والفرماء من ارض مصر تنسب اليه الثياب القسية

وأرى النّيل كالعقيق بواديهِ وإن كان كوتر المتحسي
ابن ماء السماء ذو الموكب الفخيم الذي يحسر العيون ويخسي
لا ترى في ركابه غير مثنى يحميل أو شاكر فضل غرس
وهذا خيال وادع جميل، ولكن شوقى لم يصبر عليه، بل عاد الى
هجيراه من النوح على مجد خوفو ورمسيس وأخذ يقول

وأرى الجيزة الحزينة ثكلى لم تفق بعد من مناحة رمسي^(١)

اكثرت ضجة السواقى عليه وسؤال اليراع عنه بهمس

وقيام النخيل صفرت شعراً وتجردن غير طوق وتسلس^(٢)

وكان الاهرام ميزان فرعو ن يوم على الجبار نحس

أو قناطره تألق فيها ألف جاب وألف صاحب مكس

روعة في الضحى ملاعب جن حين يغشى الدجى حماها ويغشى

وكذلك يحسب شوقى، وهو يندب مجد الفراعنة، أن مافي الطبيعة

من ماء ونبات وجاد ييكى معه ذلك الملك الذى بطش به القدر وعدا

عليه القضاء. والشاعر حين يرضى بحسب الكون يبتسم لا بتسامه، ^(الزمام)

وحين يغضب يحسب الكون يكتئب لا كتئابه، ولعل هذه السذاجة

هي أظرف مافي الشعراء، إذ كانت سمة من سمات الطفولة البريئة، وم

في الطفولة من معان تسكن اليها شوارد النفوس

ثم انتقل شوقى الى الحديث عن أبي الهول فقال :

ورهن الرمال أفطس الا أنه صنع جنة غير فطس

(١) يريد رمسيس

(٢) السلس بالفتح الخيط ينظم فيه الخرز الأبيض، او هو القرط

تتجلى حقيقة الناس فيه سبعُ الخلق في أسارى إنسي
(١) لعب الدهر في ثراه صبيًا والليالي كواعبًا غير عُنس
رَكبت صيْدَ المقادير عينه لنقد ومخليبه لفرس
فأصابت به الممالك كسرى وهرقلاً والعبقري الفرنسي

وهذا أيضاً خيال شعراء ، فهو يتوهم ان المقادير ركبت عيني أبي الهول
لنقد الحوادث ، وأعدت مخليبه لافتراس الطغاة . ولكن هيهات لما يظن
هيهات ، والويل لامة تنتظر في خمود ، حتى يثار لها قعيد الصحراء !
على أن من الحق ان نبين أن شوقى لم يسق هذه الخرافة ، وهو
يحسبها حقيقة ، انما هو الفن يقضى على صاحبه باستغلال موارد الخيال ،
وأبو الهول - رضي الله عنه ان كان وليا وجل جلاله ان كان
إلهًا - معبود قديم طالما قدمت له القرابين ، ولا يزال المصريون يقيمون
بما كان يقيم به آبائهم من قبل ، ويتشاءمون مما كانوا يتشاءمون منه ،
كما لا يزال العرب يحسبون حساب السامح والبارح ، أسوة بما كان يفعل
آباؤهم الاقدمون ، ولولا اتقاء الفتنة لذكرت نماذج من اساطير الاولين
ترينا كيف كان « هداة الام » يثيرون ما ركذ فيهم من العواطف بالاشادة
بما عرف لهم من المعبودات ، وعلى هذا المنهج جرى شوقى فسيح بحمد
أبي الهول في جملة من قصائده الخالدة ، والشاعر كالخطيب لاتهم العقول
اذا ظفر بالقلوب

(١) عنس : جمع عانس وهي الفتاة يطول مكثها في دار ايها بعد ادراكها حتى
تخرج من عداد الابكار

ثم عاد شوقى إلى قلبه ، وقد غمره الحزن ، فاخذ يناجيه بهذا الترجيع
المعلس الحزين ، وانظر كيف يقول

يا فؤادي ! لكل أمر قراره فيه يبدو وينجلي بعد لبس
عقلت لجة الامور عقولا كانت الحوت طول سبج وغس^(١)
غرفت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشموس نهارة ويسوم البدور ليلة وكس
ومواقيت للامور اذا ما بلغتها الامور صارت لعكس
دول كالرجال مرتهنات بقيام من الجدود وتمس
وليل عن كل ذات سوار لطمت كل رب روم وفرس
سددت بالهلل قوسا وسلت خنجرأ ينفذان من كل ترس
حكمت في القرون خوفو ودارا وعفت واثلا وألوت بعبس
أين مروان في المشارق عرش أموي وفي المغرب كرمى

— وقفة قصيرة —

لاحظنا ان شوقى تحدث عن نفسه قليلا في بداية القصيدة ، ثم
اندفع في الحديث عن شوقه الى مصر ، وتفجعه لما تقاسى من عادات
الخطوب ، فرأيناه بصور الجزيرة ، ويمثل استحياءها حين قدها النيل ، ثم
رأيناه يذكر ان الجيزة لا تزال في اثواب الحداد على رمسيس ، وأن
السواقي لا تبرح ترسل على ذكره الدموع والانين ، وان النخيل تجردت
في الحزن عليه ، فلم يبق عليها غير الشعور والاطواق ، ورأيناه كذلك

(١) الفس مرادف للسبج

يتكلم عن أبي الهول وعن الاهرام ، ويتخيل ابا الهول قارعة عتيده لا هلاك
الطغاة . ثم رأيناه وقد عاوده القلق على مصر ، ولم يقنعه السكون الى
الخيال ، فأخذ يزفر من جديد ويقول

يا فؤادي ! لكل أمر قرارٌ فيه يبدو وينجلي بعد لبس
وأين هذا القرار ، يا بلبل النيل : هاته ، هاته ، وخذ من أرواحنا

ما تشاء

ثم شرع يصف القدر بهذه الصورة الشعرية البديعة وهو يقول
عقلت لجة الامور عقولاً كانت الحوت طول سبج وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاخ لحس
فلك يكسف الشمس نهاراً ويسوم البدور ليلة وكس
ولم تظفر النفس الانسانية برناء أبرع من هذا الرناء ، ولا وجدت
العقول من يذرف عليها مثل هذه الدمعة ، وهي في جبروتها ألوعة القدر
وأضحوكة القضاء ، ومن ذا الذي وقف على القبر الذي ثوت فيه آمال الامم
المعذبة ، ثم جاد عليها بمثل هذه الدمعة الغالية ، يذرفها مثل شوق على تلك
العقول التي عقلتها لجة الخطوب ، والتي غرقت حيث لا يصاخ لحس ،
ولا يصاح بطاف أو غريق

ولقد كانت هذه النفثات مقدمة جميلة لرثاء الحمراء ، فقدمه شوقي
لوقفته على أطلالها تمهيداً هو غاية الغايات في إعداد النفس لبكاء المجد
الذاهب ، والملك السليب ، والنفس المصرية يذكرها مجد الفراعنة بمجد
العرب ، كما يذكرها ملك العرب بملك الفراعنة ، والشجى يبعث الشجى ،
وهذا كله قبر مالك ، لو يعلم اللاعنون !

ولم يصنع البحري هذا الصنيع ، وإنما حدثنا عما طففت الأيام من
صنابة عيشه ، وما كان من غبنه حين باع الشام واشترى العراق ، وكيف
رأه نُبُوُّ ابن عمه بعد أن كان أنيس المحضر ، لين الجانبين ، ثم قال :

✓ حضرت رحليَ الهموم فوجهت إلى أبيض المدائن عنسي
أُتسلى عن الحظوظ وآسى لحل من آل ساسان درس

وهذا هو عين الاقتضاب ، ولا يبعد عندي أن يكون الزمن قضى
على جزء من هذه القصيدة ، وإن لم يوجد ما يؤيد هذا الظن ، فقد كانت
هذه القصيدة بلا ريب موضع عناية الرواة ، ولسكن المريب هو أن يقلع
البحري عن عادته في حسن التخلص وهو يحبر قصيدة من أروع قصائده
إن لم تكن أجمل مآقال ، وكان من عادته كذلك أن يتخير للبداية ما يمت
بصلة وثيقة إلى ما سينتقل إليه ، وأشهر ماله في هذا الأسلوب قصيدته
الميمية في عتاب الفتح بن خاقان فقد ابتدأها بقطعة من النسيب هي أيضاً
عتاب ، وذلك حيث يقول :

يهون عليها أن أبيت متيماً أعالج شوقاً في الضمير مكنياً
وقد جاوزت أرض العراق وأصبحت حمى وصلها مذجأورت ابرق الحمى
بكت حرقه عند الفراق وأردفت سلواً أنها الاحشاء إن تتضرما
فلم يبق من معروفها غير طائف يلم بنا وهنا إذا الركب هوماً
وفي هذه القصيدة يقول :

وأعرف الذنب الذي سؤتني له فأقتل نفسي حسرة وتندماً
ولو كانت ما خبرتة أو ظننته لما كان غرواً أن ألوم وتكرما
أذكرك العهد الذي ليس سؤدداً تناسيه والود الصحيح المسهما

أقر بما لم أجنه متصلاً اليك على اني إخالك ألوما
لي الذنب معروفاً وان كنت جاهلاً به ولك العُتي عليّ وأنما
ومثلك إن أبدى الفعل أعادهُ وان صنع المعروف زاد وتما
نقول ان البحري لم يؤثر التخلص في قصيدته السينية وإنما أثر
الاقتضاب، ولا كذلك شوقي. فقد اخذيتكم عن ويلات الممالك ونكبات
الشعوب، ثم دخل في الموضوع برفق وهو يقول
أين مروان في المشارق عرش أموي وفي المغارب كرسى
سقطت شمسهم فرد عليها نورها كل ثاقب الرأي نطس
ثم غابت وكل شمس سوى ها تيك تبلى وتنطوي تحت رمس
وعظ البحري إيوان كسرى وشفقتي القصور من عبد شمس
نقرر هذا، ثم نذكر أن البحري لا لوم عليه في أن خلت قصيدته
من مثل المقدمة الممتدة التي افتتحت بها قصيدة شوقي، لأن ظروف
البحري وقد ضاق به عيشه، وظلمه أهله، غير ظروف شوقي وهو
يحاول العودة الى وطن أسير تحالفت عليه الرزايا وتنكر له الزمان، وأصله
أهله نار العقوق، وهو قد خالف في هذا الوطن أحلام شبابه وأوهام
صباه، وترك فيه ما يملك من أسباب الحياة، ثم هو لا يدري اذا عاد
أيقّر قراره فيلقى عصا التسيار، أم تعصف به وشاية جديدة، تحمله الى
المنفى من جديد.. ولو كان للبحري مثل هذا القلب المشرد وهو يشد
رحاله الى الايوان، لكان له شأن آخر، ولكانت شكواه مضرب
الامثال، والسكن الشاعر له « رسالة » يؤديها الى أهل عصره، ولا مفر
له من أدائها مادام له قلب ووجدان، وكانت « رسالة » شوقي حين قال

سنيته أن يصف ما يلاقي أهل مصر من السكد ، وهم يودعون كل يوم
فريقاً من أبنائهم الأحرار ، ويستقبلون بالرغم منهم ما يلقي اليهم البحر
من نفايات الأم وأوشاب الأقطار ، وكان له في ذلك هذا البيت الذي
يصالح لكل أمة ولكل جيل

أحرام على بلبله الدو حُ حلال للطير من كل جنس

وفي مقابله يقول البحتري وهو يتحدث عن نفسه

واشترائي العراق خطة غبن بعد يمي الشام يعة وكس
ولكن أين هذا من ذاك ؟ ! وأين قول البحتري في عنف
الدهر وجوره

وكان الزمان أصبح محمواً هوامع الأخص الأخص

من قول شوقي في المعنى نفسه

عقلت لجة الأمور عقولا كانت الخوت طول سبيح وغس
غرقت حيث لا يصاح بطاف أو غريق ولا يصاح لحس
فان هذه صورة شعرية نادرة المثال

ومطلع البحتري

صنعت نفسي عما يندس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس
فيه ضعف وانحلال ، وليس بقاطع الدلالة على الإباء ، وخير منه

مطلع شوقي

اختلاف النهار والليل ينسى فاذكرا لي الصبا وأيام أنسي

وان كنا لا ندرى بمن يستنجد ، وقد نسي أيام صباه ، ورحم الله

ابن الأحنف إذ يقول :

نرف البكاء دموع عينك فاستعر عيناً لغيرك دمعها مدرارُ
من ذا يعيرك عينه تبكي بها أرايت عيناً للدموع تُعارُ
ويذكرون أن اللورد كرومر حضر عرساً مصرياً وسمع المغني يقول
« حبيبي غاب . هاتوه لي يا ناس » فلما سأل المترجم عن معنى هذا الصوت
ووقف على مدلوله قال : « إن المصري لكسول ، وإنه ليطلب حتى من يعينه
على رد محبوبه الغائب » وكذلك يطلب شوقي من يحدثه عن أيام الانس
في عهد الشباب ، وإنه لمطاب عجيب !

البحث السابع عشر

بين البحترى وشوقي

ولقد أخذ البحترى ، بعد مقدمته الوجيزة ، يتكلم عن إيوان
كسرى ، ويتحدث عن بناته ، ويعرض بسكان القفار من الأعراب ،
فيقول :

أُتسلى عن الحظوظ وآسى	لحل من آل ساسان دَرسِ
ذَكَرْتُ نبيهم الخطوب التوالى	ولقد تَذَكَّرَ الخطوب وتُنسى
وهو خافضون في ظل عال	مشرف يحسر العيون ويخسي
مغلق بابهُ على جيل القبة	ق الى دارقي خلال ومكسِ
حِلل لم تكن كاطلال سعدي	في قفار من البساس ملسِ
ومساع لولا المحابة مني	لم تطقها مسعاة عنس وعبسِ
نقل الدهر عهدهن من الجدة	ة حتى غدون أنضاء ابسِ

فكان الجرماز من عدم الازس وإخلاقه بنية رمس
لو تراه علمت ان الليالى جعلت فيه مأتماً بعد عرس
وهو يُنييك عن عجائب قوم لا يشاب البيان فيهم بلبس
وهذا البيت الاخير تمهيد مباشر لوصف ما في الايوان من النقوش
والتهاويل ، ولنا اليه عودة ، فلنلاحظ الآن ان البحترى يتحبس وهو
يبين عن أثر الايوان في نفسه ، ويتوقف وهو يفصح عما بين العرب
والفرس من شتى الفروق ، وترجع هذه الحبسة الى اتقاء الفتنة ، وكبح
ما يمح عن هذه المقارنة من شهوة التنافر وإثارة الاحقاد ، ولهذا يقول
في هدوء :

حل لم تكن كاطلال سعدى في قفار من البسابس ملس
ومساع لولا المحابة مني لم تطقها مسعاة عنس وعبس
وقد صدق ، وان جرح الايوان ، وإلا فما هي اطلال سعدى ،
ورسوم ليلي ، ونوى عفراء ! ولم يجد شوقى ما يضطره الى مثل هذه
المواربة ، إذ كان يتكلم عن مجيد المسلمين والعرب ، في بلاد اسلامية
بجموعة الاهواء . ومن هنا نراه يقول في وضوح وجلاء ،

رب ليل سریت والبرق طرفى وبساط طويت والريح عنسى
أنظم الشرق فى (الجزيرة) بالغر ب وأطوي البلاد حزناً لدهس
فى ديار من الخلائف درس ومنار من الطوائف طمس
وربى كالجنان فى كنف الزيتو ن خضر وفى ذرى الكرم طلس
لم يرعنى سوى ترى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمسى
ياوقى الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسى

قرية لا تعد في الأرض كانت تمسك الأرض أن تميد وترسي
 غشيت ساحة المحيط وغطت لجة الروم من شرع وقلس
 ركب الدهر خاطري في ثراها فأتى ذلك الحى بعد حدس
 فتجلت لي القصور ومن فيهما من (الغر) في منازل قُوس
 ماضت قط في الملوك على نذ ل المعالي ولا تردت بنجس
 ومن الخير أن ندل على الايات المختارة هنا وهناك . ونحن نستعيد
 قول البحري

ذ كرتهم الخطوب التوالى ولقد تذكروا الخطوب وتنسى
 ولا يحز هذا البيت مغزى بديع ، ونستعيد كذلك قوله
 نقل الدهر عهد من الجد ة حتى غدون أنضاء لبس
 فكان الجرماز من عدم الانس وإخلاقه بنية رمس
 وفي هذين البيتين دقة وخيال ، وللقارئ أن يتأمل كيف صارت
 هذه الحلال « أضناء لبس » وكيف أمسى الجرماز وكأنه « بنية رمس »
 فأما قوله

لو تراه علمت أن الليالى جعلت فيه مأتما بعد عرس
 فهو غاية الغايات في بكاء المعاني ، يتحكم فيها البلى ، وتبطلش
 بها ايدي المعاء

ونستعيد قول شوق
 لم يرعني سوى ترى قرطبي لمست فيه عبرة الدهر خمسي
 ولمس العبرة من المعاني الدقيقة ، وقد بلغ غاية الرفق ، وهو يقول
 في تحية هذا الثرى

يا وقي الله ما أصبح منه وسقى صفوة الحيا ما أمسي
ونستجيد كذلك قوله :

ركب الدهر خاطري في تراها فأتى ذلك الحلى بعد حدس
يصف تلك البقعة بالدروس ، ويدكر أنه ضل ولم يهتد إلا بعد أن
ركب خاطره الدهر ، ومع هذا لم يصل إلا بعد توهم وحدس ، وتلك وثبة
من وثبات الخيال

ثم أخذ البحري يصف ما في الايوان من صور المعارك فقال :

فإذا ما رأيت صورة انطاكية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنوشروان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح وملح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحياء لهم بينهم إشارة خرس
يفتلي فيهم ارتياي حتى تتقراهمو يدای بلرس

وهذه القطمة من أدق ما قيل في الوصف ، يذكر أنه شهد في الايوان
صورة كسرى وهو يحاصر انطاكية وأنتك لو رأيت هذه الصورة لارتعت
من حملة الفرس على الروم ، وكيف يرتاع المرء وهو يشاهد صورة على
الحائط ؟ هذا هو وجه الحسن . فهو يذكر أنك حين ترى هذه الصورة ،
لا يخطر ببالك أنها صورة ، وإنما تحسب لصدق التصوير أنك في ميدان
القتال ، والمنايا موائل أمامك ، وأنوشروان يزجي الصفوف تحت اللواء ،
ولم يفته أن يصف ما على الجنود من ألوان الثياب ، وما هم عليه من إيثار

الرس

الخفوت ، بين مُشِيح بالرح ، ومُليح بالسنان ، وأنظر كيف يقول :
تصف العين أنهم جد أحياء ، لهم بينهم اشارة خرس
يقتلي فيهم ارتياني حتى تتقراهمو يداي بلمس
فهو يراهم جد أحياء ، وان لم يُسمع لهم صوت ، لأن في ملماتهم
ما يدل على اكتفائهم بالاشارة كما يكتب في الخرس ، ثم يعود الى نفسه
فيذكر أنه أمام صورة ، ثم يُغلب على حسه ، فيرتاب فيما يراه ، فيلمس
الصورة بيده ليعرف حقيقة هي أم خيال . والمصور الحاذق هو الذي
يُسبغ على صورهِ أثواب الحياة ، ولقد أذكر اني شهدت في اطلال
الفراغنة بالاقصر صورة سمكة ، ولم أكداً ملأ منها عيني حتى خلتها تنقلب ،
وكذلك يسحر الفن الجليل

ولقد نحا شوقي منحى البحري في الوصف ، وإن اختلف الموصوف ،

فقال وقد تجلت له تلك القصور

وكأنني بلغت للعلم بيتاً	فيه مال العقول من كل درس
قد سافر في البلاد شرقاً وغرباً	حجة القوم من فقيه وقس
وعلى الجمعة الجلالة والنسابة	صر نور الخميس تحت الدرس
ينزل التاج عن مفارق (دون)	وبحيي به جبين (البرنس)
سنة من كرى وطيف أمان	وصحا القلب من ضلال وهجس
واذا الدار ما بها من انيس	واذا القوم ما لهم من محس
ورقيق من البيوت عتيق	جاوز الأمان غير مذموم حرس
أثر من (محمد) وراث	صار (لروح) ذي الولاء الأمس
بلغ النجم ذروة وتناهى	بين (شهان) في الأساس و(قدس)

مرمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ألفات الوزير في عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطورها ما اكتسى الهدب من فتور ونفس
ويجها كم ترينت لعليم واحد الدهر واستعدت الخمس
وكان الرفيف في مسرح العيم من ملاء مدبرات الدمقس
وكان الآيات في جانبيه يتزان من معارج قدس
منبر تحت (منذر) من جلال لم يزل يكتسيه أو تحت قوس
ومكان الكتاب يغريك رياً ورده غائباً فتدو المس
وهذه القطعة على طولها لا تسمو الى ما وصلت اليه تلك النفثة

البحترية من فتنة القلب والوجدان ، ولعل السر في هذا ان البحترى
وجد في الايوان صورة الحرب بين الفرس والروم ، وصورة الحرب تهز
النفس ، وتثير ما كمن فيها من عناصر القوة والفتوة ، أما شوقي فقد وجد
بالقصر آيات من القرآن ، لم يذكر أكانت في وصف الجنة ، أم في الدعوة
الى القتال .. والفن الذي يستمد قوته من الاصول الدينية ، الوادعة الهادئة ،
لا يصلح الا للسكحول ، والويل للام اذا لم تغلب عليها نزعات الفروسية ،
ولم يستبد بها ما في الشباب من نشاط وجنون . وما أبعد الفرق بين قول البحترى
والمناي موائل وانوشر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
وبين قول شوقي

وعلى الجمعة الجلالة والناس صر نور الخمس تحت الدرفس
وشوقي يصف ما رآه ، فلا لوم عليه ولا ترتيب ، وصدق من قال :
قلو أن قومي انطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

وقد لا نجد في هذا العصر من يسمح بأن توضع في المساجد والمعابد
صور المعارك والحروب ، ولم يظلم أحدٌ أهل الشرق ، ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون ، فقد حولوا جهودهم العلمية والفنية الى الآخرة ، كما
بيننا ذلك في كتاب « الاخلاق عند الغزالي » وتركوا الدنيا لمن هم أحق
بها من شياطين الغرب ، وحيا الله أوائلك الشياطين ، فهم ملائكة هذا
الجيل ، وإن رذائل القوة خير من فضائل الضعف ، لو يعلم الشرقيون
ولشوقنا نذكر ان جلالة الدين كانت لذلك العهد من أقوى البواعث
على حراسة الملك ، ولم تكن صورة رسمية يستبق اليها طلاب الرزق ،
وللرزق أبواب !! يدل على هذا قوله :

سنة من كرى وطيف أمان وصحا القلب من ضلال وهجس
وإذا الدار ما بها من أنيس وإذا القوم ما لهم من محس
فهو يأسى على أن تبين أن ذلك الحرم ومن فيه من الملوك ، وما فيه
من آثار العقول ، ليس الا سنة من الكرى ، وطيفاً من الاماني
ويعجبني قوله في وصف القصر

رمر تسبح النواظر فيه ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ألفت الوزير في عرض طرس
وان كان تشبيه سوارى القصر بألفات ابن مقلة فيه شيء ، من الضعف
إذ كانت جمال الخط لا تتعدى الحسن الى الجلال ، والفرق بعيد بين
الحسن الفاتن ، والجمال الرائع ، فجمال النهر في الليالي القمرية فيه حسن
وفتنة ، وفيه أيام السرار روعة وجلال
وقول شوقي

ومكان الكتاب يغريك ريا ورده غائباً فتدنو للمس
 مأخوذ من قول البحري
 يغتلي فيهم ارتياني حتى تتقراهمو يداي بامس
 ويبت البحري أجود في معنهم، وهو كذلك يقتضيه السياق، أما
 بيت شوقي فهو في مكانه غريب
 وقول شوقي بعد ذلك الوصف
 صنعة (الداخل) المبارك في الغر ب وآل له ميامين شمس
 فيه ضعف، وكأنه لم يقله الا على سبيل التكملة، وما أغنى الشعر
 عن مثل هذا التذييل !!

البحث الثامن عشر

الفصل بين البحري وشوقي

رأينا كيف وصف البحري ما رآه في الايوان من رسم الموقعة
 بين الفرس والروم، ونذكر اليوم انه انتقل من ذلك الوصف الى الحديث
 عن تلك الكأس الروية التي اصطبج بها في الايوان، فقال:
 قد سقاني ولم يصرد أبو الغو ث على العسكرين شربة خلس
 من مدام تقولها هي نجم أضوا الليل أو مجاجة شمس
 وراها اذا اجددت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسي
 أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس
 وتوهمت ان كسرى ابرو ز معاطي والبلهذ انسي
 حلم مطبق على الشك عيني أم امان غير ظني وحدي

وهذه القطعة لا تبد ما يقابلها في سينية شوقي ، لان صاحب الشوقيات لم يزر اطلال الجراء ليفرق همومه هناك في اكواب الشمول كما فعل البحري وهو يزور الايوان ، فكان لنا ان ندرس هذه الابيات على سبيل الاستطراد ، اذ لا تقتضيها الموازنة ولا يدعو اليها التفضيل ، ونحن نستملح قوله

من مدام تقولها هي نجم أضواء الليل أو مجاجة شمس
ووصف الخمر بمجاجة الشمس فيه شيء من روعة الخيال ، وعجز هذا البيت يشفع لصدره ، وقد تدخل اللفظة في شفاعة اللفظات ، ويمر البيت في خلال الابيات ، كما يقول صاحب زهر الآداب ، وكذلك نستعيد قوله في وصف تلك الصهباء

وتراها اذا اجدت سروراً وارتياحاً للشارب المتحسى
أفرغت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس
ولك ان تتأمل كيف يرنو الشارب المتحسى الى المدام ، ثم يخالها
أفرغت في الزجاج من كل قلب ، ولا تنس انه يقول (من كل قلب) وانها
لذلك (محبوبة الى كل نفس) فان لهذا الشمول والتعميم معنى يروع
اصحاب الازواق من علماء المعاني .. وانظر كيف دارت الخمر بعد ذلك
برأس البحري فتوهم — ومن ذا الذي لا يتوهم وهو في مثل حاله ! — ان
كسرى نديمه ، والبلهيد أنيسه ، وكيف تاب الى رشده ، وأخذ يفكر
أهو في حلم أطبق عينيه على الشك ! أم هي أمان غيرن ظنه وخذسه ! وفي
هذا التردد ما فيه من تمثيل الحيرة والارتياب في رأس المتعقل النشوان .
ثم عاد الى وصف الايوان فقال :

وكان الإيوان من عجب الصنعة جوب في جنب أرعن جلس
يتظنى من الكآبة أن يبـدو لعيني مصبح أو ممس
مزجاً بالفراق عن أنس إلف عزاً أو مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظه الليالى وبات الـمشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلا كل الدهر مرسي
لم يعبه أن يز من بسط الديـباج واستل من ستور الدمقس
مشمخراً تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فأتتـ صر منها إلا فلائيل برس
لئس يدرى أصنع أنس لجن سكنوه أم صنع جن لانس
غير أني أراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس
وفي هذه القطعة نجد البحترى يتمثل الإيوان في صورة الحب
أترعت الليالى كأسه بأنس أليفه ثم أزجته بالفراق ، والعروس أصفاه
الدهر حلاوة الوصل ثم أرهقه بالطلاق. ويراه يتظنى من الكآبة أن يبـدو لعيني
من يطالعه عند الصباح أو عند المساء ، وكيف لا يكون كذلك وقد عكست
حظه الليالى ، فأصبح مثار الشجى ، ومبعث الأسى ، بعد أن كان من
مراع الغزلان ، وملاعب الحور الحسان !! وانظر كيف يقول

فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلا كل الدهر مرسي
وفي هذا البيت صورة رائعة لذلك الإيوان الذي صوره البحترى
« كائنات حياً » أناخ الدهر عليه بكلكله ، وأراه كيف تكون مضاضة
الذل ، بعد نضارة العزة ، وكيف يكون العدم بعد الوجود ، وللشاعر
في الديار الخالية وقفات تبعث ميت الوجد ، وتثير دفين الاحساس. فإن

كنت في ريب من ذلك فخدني أي شيطان ، أو أي ملاك ، أوحى إلى
البحثري أن الايوان أصبح — وقد استلمت منه ستور الدمقس وبسط
الديباج — شبيهاً بالغادة الحسناء نزع عنها البؤس ما تملك من بالي الثياب ،
فأضحت متجردة تدعوك إلى الرحمة حيناً وتغريك بالفتون أحياناً ؟
ونحن نعيذ القارىء من أن يرمينا بالغلو والاسراف ، فهذا والله ما نفهمه
من قول البحتري

لم يعبه أن يزمن بسط الديبا ج واستل من ستور الدمقس
وكذلك نزع الدهر ما كان بالايوان من عارض التهاويل ، وخلاه
كالغادة المتجردة لا تدري أكان تجردها من قسوة الفقر ، أم من سكر
الدلال ... وما نريد أن نزيد ؛ وللقارىء أن يتأمل حسن الاداء في قوله
عكست حظه الليالي وبات المشتري فيه وهو كوكب نحس
فانه لم يقل « بات المشتري فيه كوكب نحس » وإنما قال « بات
المشتري فيه وهو كوكب نحس » وكلمة « وهو » لها ما لها من الفضل في تأكيد
المعنى وتقريره ، عند علماء المعاني .. وكذلك قوله فيما صارت إليه
شرفات الايوان

لابسات من البياض فما تبصر منها الافلاكل برس
فان كلمة « من » لها هنا موقع جميل ، وهي أدل على التقليل من
التنوين ... أما قوله

ليس يدري أصنع إنس الجن سكنوه أم صنع جن لانس
فهو من عيون هذه القصيدة ، والعرب ينسبون إلى الجن
صنع كل عجيب ، وهي خرافة قديمة ، تزخر بها الاساطير ، وهي كذلك

مورد من موارد الخيال — وكان من المستهجن ان يعقب البحترى هذا البيت الفرد بقوله

غير اني اراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس
وهو بيت ضعيف يئنه وبين سابقه بون بعيد... وقد عاد الى وصف ما في الايوان فقال

فكأنني أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حسي
وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسط المقاصير يرجحن بين حو وأمس
وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس
وكان الذي يريد اتباعاً طامع في لحوقهم صبح خمس
عمرت للسرور دهرأ وصارت للتعزى رباعهم والتأسي
فلها أن أعينها بدموع موقوفات على الصبابة حنس
ولهذه الايات روعة يحسها من شهد من التصوير الصادق مثل
ما شهد البحترى في اعطاف الايوان. والبحترى بهذا الوصف فنان؛ يقول
على علم ويعرف ما يعني، ولك أن تتأمل كلمة « كان » وموقعها الجميل
في قوله

وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وقوله :

وكان القيان وسط المقاصير يرجحن بين حو وأمس
وقوله :

وكان اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس

وقد دلت القارىء على مواطن الحسن في هذه القصيدة فلينهل
بعد ذلك من رحيقها كما يشاء

— نفثة شوقي —

أما شوقي فقد اخذ يبكي الحمراء بعد وصفها فقال

من الحمراء جللت بنجار الدهر	ر كالجرح بين برء ونكس
كسنا البرق لو محا الضوء لحظاً	لحتها العيون من طول قبس
حصن غرناطة ودار بني الـ	مر من غافل ويقظان ندس
جلال الثلج دونها رأس شيرى	فبدا منه في عجائب برس
سرمد شبيه ولم ار شيئاً	قبله يرجى البقاء وينسى
مشت الحادثات في غرف الحمراء	مشي النحي في دار عرس
هتكت عزة الحجاب وفضت	سدة الباب من سمير وانس
عرصات تخلت الخيل عنها	واستراحت من احتراس وعس
ومغان على الليالى وضاء	لم تجد للعشى تكرار مس
لا ترى غير وافدين على الله	اربخ ساعين في خشوع ونكس
نقلوا الطرف في نضارة آس	من نقوش وفي عصارة ورس
وقباب من لا زورد وتبر	كالرني الشتم بين ظل وشمس
وخطوط تكفلت المعاني	ولا انفاظها بأزين لبس
وترى مجلس السباع خلا	مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا	يتزائن فيه اقار أنس
مرمر قامت الاسود عليه	كلّة الظفر لينات المحس
تنثر الماء في الحياض جمائاً	يتنزى على ترائب ملس

وفي هذه الكلمة نرى شوقي يتمثل الحمراء وهي مجللة بغبار الدهر،
 وهذا خيال رائع، ولكنه ليس بكثير على شوقي، فقد ألف الحديث
 عن اسرار الحياة وطبائع الوجود، وكلف منذ بعيد بالابانة عن عدوان
 الحوادث، والافصاح عن عسف الخطوب، ويكاد يستنطق الموت
 وهو يتحدث عن مصير من استراحوا من دار الختل والنفاق..
 وانظر كيف يذكّر ان الحمراء أصبحت كالجرح بين برء ونكس، وهذا
 اصدق تصوير لذلك الاثر الذي يحج اليه احفاد بناته، فيعدونه
 ويمنونه، لو تنفع الاماني أو تصدق الوعود، ومن ذا الذي لم يفكر في
 نكبة الحمراء، ولم يتمن لو يصبح وهو خليفة ابن زياد. ولكن أين فتوة
 العرب، وأين شباب الزمان !

وللقاريء ان يتصور كيف مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي
 النعي في دار عرس، فهذا أيضاً خيال رائع، وهو مأخوذ من قول أبي نواس
 فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم
 وما لنا ولهذا التكلف، فقد ذكر النقاد ان أبا نواس كذلك مسبق،
 على ان تشبيه هتك الحوادث لاستتار الحمراء بهتك النعي لدار العرس،
 أروع من تشبيه أثر الحمر في مفاصل الندامى باثر البرء في جسم السقيم،
 وقول شوقي

مشت الحادثات في غرف الحمراء مشي النعي في دار عرس
 هتكت عزة الحجاب وفضت سدة الباب من سمير وأنس
 فيه روعة، وفيه جلال، فهو يصور بطش الحوادث بالحمراء،
 ويصور مع هذا ما كان للحمراء من عزة وسلطان... أما قوله

وترى مجلس السباع خلاء مقفر القاع من ظباء وخنس
لا الثريا ولا جوارى الثريا يتنزلن فيه أقمار انس
فهو وصف انقرد به ، ولم يعرض لمثله البحري ، وكان عجباً ان يغفل
عن ابراده ، فان النقصور الخالية تذكر الانسان فيما تذكر بمن كان يرتع
فيها ويلعب ، من كل ممشوقة القد ، مجدولة الخلق ، مصقولة الجبين
(خروج العرب من الجنة)

وقد انفرد شوقي كذلك بالحديث عن خروج العرب من الجنة ، ولا
أعبر بغير ذلك ، فقد كان شعراء الاندلس يتغنون بذلك الفردوس ويرونه
حسبهم من نعيم الآخرة والاولى ، ولقد نظر شوقي الى خروجهم نظرة
مملوءة بالدمع حين قال

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وخرس
فترها تقول راية جيش	باد بالامس بين أسر وحبس
ومفاتيحها مقاليد ملك	باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم في كتائب صم	عن حفاظ كوكب الدفن خرس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت	تحت آبائهم هي العرش أمس
رباً بان لهادم وجموع	لمشت ومحسن للخص
إمرة الناس همة لا تأتى	لجبان ولا تسنى لجبس
واذا ما أصاب بنيان قوم	وهي خلق فانه وهي أس

ومع ان شوقي أشار كما ترى في هذه الايات الى ان ضعف العرب
في أخريات أيامهم كان السبب في خروجهم من تلك البلاد - إذ كانت
إمرة الناس لا تسنى لجبس ولا تتأنى لجبان - فقد أشار كذلك برفق

الى أن عهدهم لم ينقض الا بعد عرك من الزمان وضرر . والحق ان فتح العرب للاندلس كان من الاحداث الخطيرة ، وكان من الطبيعي ان تدور عليهم الدائرة ، وان يحل بهم ما حل بالفرس والروم . ولا تذكر ماشب في صدورهم من نار العداوة والبغضاء ، ولا ما شجر بينهم على الملك من خلاف ، ولا ما انغمسوا فيه من اللذات والشهوات ، ولكن اذكر أنهم كانوا يحتلون بلاداً لا يزال أهلها يفكرون في الحرية ويحملون بالاستقلال ، والامة الضعيفة لا تضرب عليها الذلة والمسكنة أبد الآبدين ، كما يتوهم الفاتحون ، وانما يظل ضعفها يفتك بالفاصلين في خفاء ، كما تفتك في ضعفها الجراثيم ، ثم ينتفض هذا الضعف فجأة فاذا هو قوة جارفة تسقط من بأسها الممالك وتطيح من هولها العروش . فان كنت في ريب من ذلك فخذني ماذا صنع العرب بالشعوب التي ملكوها باسم الدين : ألم تثار تلك الشعوب لنفسها من الدين ؟ ألم يهجموا عليه بجيش من الوسواس والخرافات والاضاليل والاباطيل حتى صبروه كالخرقة البالية لا تصلح لزيينة ، ولا ستر ، ولا وقاية ؟ اسمع يا صاح : القوة هي كل شيء في هذا الوجود ، والقوة فوق الحق ، فان أردت ان تحيا فتسلح لهذه الحياة ، والقوة هي السلاح ، ومن قال بغير ذلك فهو في حاجة الى استشارة الطبيب ! وكذلك كان العرب ، فقد ركبوا البحر وهم أقوياء ، فكان عرشاً ، وركبوه وهم ضعفاء ، فكان نعشاً ، وما تغير البحر ، ولكن تغير الناس ، ركبوه أول مرة وهم فاتحون ، ثم ركبوه آخر مرة وهم هاربون ، وما أبعد الفرق بين الفتح والفرار !

ثم قال شوقي في توديع تلك الديار

يا دياراً نزلت كالخلد ظلاً وجنى دانياً وسلسال أنس
محسنت الفصول لا ناجرته فيها بقيظ ولا جمادى بقرنس
لا تحس العيون فوق رباها غير حور حو المراشف لغس
كسيت أفرخي بظلك ريشاً وربا في ربك واشتد غرسي
هم بنو مصر لا الجميل لديهم بمضاع ولا الصنيع بمنسي
من لسان على ثنائك وقف وجنان على ولائك حبس
حسبهم هذه الطلول عطات من جديد على الدهور ودرس
واذا فاتك التفات إلى الما ضي فقد غاب عنك وجه التأسى

وما أريد الخوض في تحليل هذه الايات ، فقد طال الحديث ، انما
اذكر اننا غنمنا هذه القصيدة من حياة شوقي في الاندلس ، وغنمنا معها
« قطعة خشب » من قصر الحمراء تجدها في متحف الشاب المذهب حسين
شوقي ، وبأيتنا نحرص على ما بقي في أيدينا من ملك العرب والمسلمين .. !

*
* *

وسيدكر القارىء بعد هذا كله اني أوازن بين البحري وشوقي ،
وسيسأل أهما أشعر ، وأنا ارجوه ان يراجع الموازنة ليحكم بما يشاء ،
أما أنا فقد حكمت ، والسلام

البحث التاسع عشر

(البوصيري وشوقي)

للوصيري قصيدة مشهورة تسمى «البردة» عارضها شوقي بقصيدة سماها «نهج البردة» وقد رأينا أن نوازن بين هاتين القصيدتين لنقف على مبلغ البوصيري وشوقي من العلم بأسرار الاسلام ، فقد عني هذان الشاعران بدرس الشريعة لاظهار ما فيها من المحاسن ، ودرء ما يوجه اليها من الشبهات ، وسيكون موقفنا في درس هاتين القصيدتين موقف المؤرخ ، وقد تؤرخ الأفكار كما يؤرخ الاشخاص . وحسبنا أن ندل القاري على مواطن الضعف فيما صبغ من الافكار بصبغة اسلامية ، وللقاري بعد ذلك رأيه ، فان شاء مضى في البحث والتنقيب ، وان شاء رضي واكتفى بما عليه عامة الناس ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(حياة البوصيري) ^{سابع فصول}

هو محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بن صنهاج . كان أحد أبويه من (ابو صير) والآخر من (دلاص) فركبت له منهما نسبة وقيل : (الدلاصيري) لكنه اشتهر بالبوصيري . وكان يعانى صناعة الكتابة والتصرف ويباشر الشرقية ببلييس (راجع قوات الوفيات) (١) والبوصيري شاعر مصرى ظريف من شعراء القرن السابع تجري

(١) توفي البوصيري سنة ٦٩٥ هـ ، وله قبر مشهور في الاسكندرية يتصل به مسجد كبير تدرس به العلوم الدينية

في شعره التكت المستملحة . وله في شكوى حاله والتذمر من الموظفين قصائد رشيقة تجلو صدأ النفوس ، وفي شعره وصف للحالة الاجتماعية في عصره ، وأحسبه من الصادقين ، فهو يذكر ان الموظفين كانوا يسرقون الغلال ، وانهم لولا ذلك ما لبسوا الحرير ، ولا شربوا الخمر ، وان من الكتاب طائفة تنسكت وعدت من الزهاد مع أنها تملأ بطونها بالسحت وتأكل مال الايتام ، ويذكر ان القضاة خانوا الامانة ، وبرروا خيانتهم بتأويل القرآن والحديث ، ويذكر ان المسلمين والاقباط كانوا مختلفين ، فكان المسلمون يقولون : لنا بمصر حقوق ونحن أولى الآخذين ، وكان القبط يقولون : نحن ملوك مصر ومن سوانا هم الغاصبون ، وكان اليهود يستحلون مال الطوائف اجمعين . وفي ذلك يقول

فقدت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهمو حراً أميناً
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم	مع التجريب من عمري سنيماً
فكتاب الشمال هو جميعاً	فلا صبحت شتاهم اليمناً
فكم سرفوا الغلال وما عرفنا	بهم فكانهم سرقوا العيوناً
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً	ولا شربوا خمر الاندريناً
ولا ربوا من المردان مرداً	كأغصان يملن وينحنيناً
وقد طلعت لبعضهمو ذقون	واكن بعد ما خلقوا ذقوناً
واقلام الجماعة جائلات	كأسياف بأيدي لاعيناً
وقد ساومتهم حرفاً بحرف	وكل اسم يخطوا منه سيناً
أمولاي الوزير غفلت عما	يتم من اللثام الكاتبيناً
تنسك معشر منهم وعدوا	من الزهاد والمتورعيناً

وقيل لهم دعاء مستجاب
تفقهت القضاة فخان كل
وما أخشى على أموال مصر
يقول المسامون لنا حقوق
وقال القبط نحن ملوك مصر
وحملت اليهود بحفظ سبت
وما ابن قطيبة الا شريك
أغار على قرى (فاقوس) منه
وصير عينها حملاً ولكن
وأصبح شغله تحصيل تبر
وقدمه الذين لهم وصول
وفي دار الوكالة أي نهب
فقام بها يهودي خبيث
إذا ألقى بها موسى عصاه
وشاهدتم إذا اتهموا يؤدي

وقد ملؤا من السحت البطونا
أمانته وسموه الأئمة
سوى من معشر يتأولونا
بها ولنحن أولى الآخذينا
وان سواهمو هم غاصبونا
لهم مال الطوائف أجمعينا
لهم في كل ما يتخطفونا
بحجور يمنع النوم الجفونا
لمنزله وغلتها خزينا
وكانت رائد من قبل نونا
فتم تقصه صلة اللذينا
فليتك لو نهبت الناهيينا
يسوم المسامين أذى وهونا
تلقفت القوافل والسفينا
عن الكل الشهادة واليمين

وهذه القطعة ذكرها صاحب فوات الوفيات من قصيدة طويلة
يذكر أنها كانت مشهورة، وشهرتها فيما لا نرى ترجع الى قيمتها الأدبية
لأنها قصيدة ضعيفة يغلب عليها الابتذال، وانما ترجع شهرتها الى ما فيها
من التنديد بالموظفين، والناس يبغضون الموظفين حين يعرفون بالطمع
والاستبداد. وهذه القصيدة قيمتها من الوجهة التاريخية، فهي شاهد على
اختلاف الطوائف في مصر وعلى ما كان يجري اذ ذاك بين المسلمين

والنصارى واليهود ، وهي كذلك شاهد على عيوب الادارة في ذلك الحين ؛
ومن شعر البوصيري فيما يجري مجرى الدعابة قوله في الحديث عن
جارية راودها عن نفسها فأنكرت عليه الشيب والضعف

أهوى والمشيب قد حال دونه	والتصابي بعد المشيب رُعوته
أبت النفس أن تطيع وقالت	ان حي لا يدخل القنبنة
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي	بالهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضة خدر	ذات حسن كالذرة المسكونه
سمتها قبلة تسرُّ بها النفـ	س فقالت كذا اكون حزينه
قلت لا بد أن تسيري الى الدا	رفقالت عسى ! أنا مجنونه !
قلت سيري فاني لك خير	من أب راحم وأم حنونه
انا نعم القرين ان كنت تبغي	ن حلالاً وأنت نعم القرينه
قالت اضرب عن وصل مثلي صفـ	حكا واضرب الخل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسني يد شيخ	كيف أرضى به لطشتي مشينه
قلت اني كثير مال فقالت	هيبك أنت المبارز القارونه

وهذا أيضاً شعر ضعيف ، ولكن فيه « حكاية ظريفة » من حكايات
مولانا الشيخ رضي الله عنه وأرضاه ؛ وأظرف من هذه القطعة أبياته التي
بعث بها الى ناظر الشرقية ، وكانت له حمارة استعارها منه الناظر فأعجبته ،
فكتب على لسانها اليه :

يا أيها السيد الذي شهدت	اخلاقه لي بأنه فاضل
ما كان ظني يبيعني أحد	قط ولكن صاحبي جاهل
لو جرسوه على من سقه	اقلت غيظاً عليه يستاهل

أقصى مرادى لو كنت في بلدى أرعى بها في جوانب الساحل
وبعد هذا فما يحل لكم اخذى لآني من سيدى حامل
وقد استظرف ناظر الشرقية هذه الايات ، وردّ اليه الحماره ، ولم
يكن فيها من الزاهدين !

ونحن نستملح كذلك قصيدته التي بعث بها الى احد الوزراء في
شكوى حاله ، وهي قصيدة طريفة ، يذكر فيها انه فقير ، وان ابنائه لا
يجدون ما يأكلون ، وانهم يتحسرون لفقد الكعك ايام الاعياد ، وأن
امراته زارت أختها وشكت اليها سوء الحال ، فأشارت عليها بضربه ،
وتنف ذقنه شعرة شعرة ؛ وفي تفصيل ذلك يقول وهو يخاطب ذلك الوزير

اليك نشكو حالنا إتنا	حاشاك من قوم اولى عُسرَه
في قلة نحن ولكن لنا	عائلةٌ في غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذي	جرى لهم بالخيطة والابرة
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن أبصرهم عبده
ان شربوا فالبئر زيرٌ لهم	ما برحت والشربة الجرّه
لهم من الخبز مسلوقة	في كل يوم تشبه النشرة
اقول مهما اجتمعوا حولها	تزهوا في الماء والخضرة
وأقبل العيد وما عندهم	قمحٌ ولا خبز ولا فطرة
فارجمهم وان عاينوا كعكةً	في كف طفل أوراوا تمره
تشخص ابصارهم نحوها	بشهقة تتبعها زفرة
كم قائل يا أبتنا منهمو	قطعت عنا الخبز في كره
ما صرت تأتينا بفلس ولا	بدرهم ورق ولا نقره

وأنت في خدمة قوم فهل تخدمهمو يا أبتِ سُخره
ويوم زارت امهم اختها والاخت في الغيرة كالضرة
واقبلت تشكو لها حالها وصبرها منى على العشرة
قالت لها كيف تكون النساء كذا مع الأزواج يا عُرّه !
قومي اطلي حقك منه بلا تخلف منك ولا فتره
وان تأني نخذي ذقنه أو اتفيا شعرة شعره
قالت لها ما هكذا عادي فان زوجي عنده ضجره
أخاف ان كلمته كلمة طلقني قالت لها بعره
وهوأت قدري في نفسها بغاات الزوجة مجتره
فقاتلني فهددتها فاستقبلت رأسي بأجره
وحق من حالته هذه أن ينظر المولى له أمره

وفي هذه القصيدة كثير من التعابير المصرية ، ولا تزال بقاياها
موجودة في بلييس دائرة الاستاذ فكري اباضه :

— قصيدة البردة —

تعد قصيدة البردة أول قصيدة قيّمة في مدح الرسول عليه السلام ،
ولم تكن المداخل النبوية مما يتكلم فيه الشعراء ، والبوصيري هو الذي
ابتكر هذا النوع ، أو هو الذي بسطه وأطال فيه القصيد ، فان قصائد
الكهيت بن زيد في مدح آل البيت تعتبر نواة لهذا الفن الذي أكثر
منه المولدون ، وقد مدح الرسول في حياته ، مدحه كعب بن زهير
بلاميته المشهورة التي يقول في أولها

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ متمٍ إثرها لم يفد مكبولٌ
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا إلا أغنُ غصيص الطرف مكحول
ومدحه الاعشي بدليته التي يقول فيها

فأقسمت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجى حتى تلاقي محمدا
نبي يرى ما لا يرون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
ويرتاب استاذنا الدكتور طه حسين في قصيدة الاعشي ، ويظنها
من وضع الرواة ، وهي على فرض صحتها ليست من المدائح النبوية ، وكذلك
بانت سعاد ، لان المدح الذي جرى على لسان كعب والاعشي لا يزيد
شيئاً عن غيره من المدح الذي جرى في ذلك العهد ، موجهاً الى الملوك ،
أما المدائح النبوية فتمتاز بعد شمائل النبي وسرد ما في الرسالة من المحاسن
الباقية ، ودفع ما وُصِمَ به الرسول من النقائص والعيوب . وهي فوق
هذا كله تقال وتنشد تقرباً الى الله ، وهي عند الصوفية من جملة الاوراد
وقد حدثنا البوصيري عن سبب وضعه للبردة فقال « كنت قد
نظمت قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما كان
اقرحه عليّ الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير . ثم اتفق بعد ذلك
أن اصابي فالج أبطل نصفي ، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها ،
واستشفعت به الى الله تعالى في أن يعافيني ، وكررت انشادها ودعوت
وتوسلت ، ونمت فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم فمسح على وجهي بيده
المباركة ، وألقى عليّ بردة فالتبتهت ووجدت في نهضة ، فقممت وخرجت
من بيتي ولم أكن أعلمت بذلك أحداً فلقيني بعض الفقراء فقال لي : أريد
أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فقلت أيها فقال : التي أنشأتها في مرضك ، وذكر أولها ، وقال : والله لقد سمعتها البارحة وهي تشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة ، فأعطيته إياها ، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام »

وفي هذه القطعة دلالة على عقلية البوصيري ، فهو رجل فيه طيبة وسذاجة ، كأكثر الصوفية ، فليس من المعقول ان يبرأ مريض من مرضه لآية يتلوها ، أو قصيدة ينشدها ، كما يرى البوصيري بقصيدته ، ولو مرض مفتي الديار المصرية ، لا سمح الله ، ما استغنى بالبردة عن الطبيب ! ولعل حكاية البوصيري هذه هي سبب ما سار بجانب البردة من الخرافات ، فقد ذكر بعض الشراح لكل بيت من أبياتها فائدة ، فبعضها أمان من الفقر وبعضها أمان من الطاعون !! وهذا النوع من الغفلة قديم : فقد كان الزمخشري يذكر شيئاً من مثل هذا عن سور القرآن ... ونلاحظ كذلك ان البوصيري كرر عبارة « صلى الله عليه وسلم » خمس مرات في هذه الفقرة الصغيرة . وتكرار الصلاة على النبي كلما ذكر اسمه من وساوس المتأخرين ، وقد زاد البوصيري على ذلك في القصيدة المضرية : فهو يدعو الله أن يصلي على النبي وشيعته وصحبه عدد الحصى والثرى والمدر ، وعدد نجوم السماء ونبات الأرض ، وعدد وزن مثاقيل الجبال ، وقطر جميع الماء والمطر ، وما حوت الاشجار من ورق ، وعدد الحروف المقروءة والمكتوبة ، وعدد انوحش والطير والاسماك والانعام ، وعدد الجن والانس والاملاك ، وعدد الذر والثلل والحبوب والشعر والصوف والريش والوبر ، وعدد ما أحاط به العلم المحيط وما جرى به القلم والقدر ، وعدد نعم الله على الخلائق

مذ كانوا ومذ حشروا، وعدد ما كان في الاكوان وما يكون الى يوم البعث،
وتكون هذه الصلاة بهذا التحديد

في كل طرفة عين يطرفون بها أهل السموات والارضين أو يذروا
ملء السموات والارضين مع جبل والفرش والعرش والكروني وما حصروا
ما أعدهم الله موجوداً وأوجد معه — دوماً صلاة دوماً ليس تنحصر
تستغرق العدم مع جمع الدهور كما تحييط بالحد لا تبقي ولا تذر
وهذا النمط من الصلاة على النبي لم يكن معروفاً في صدر الإسلام
وانما هو تصرف من غلاة الصوفية أمثال صاحب «دلائل الخيرات»
والبردة بعد هذا كله مشهورة في جميع الأقطار الإسلامية، وقد
كانت جزءاً من الهدية التي قدمها ابن خلدون الى تيمورلنك، ولهذه
الهدية قيمتها في تقدير الحياة العقلية عند المتقدمين

(نهج البردة)

أما نهج البردة فقصيدة وضعها شوقي تذكراً لحج الخديو السابق
سنة ١٣٢٧ هـ وقدمها اليه بكلمة صغيرة، ثم شرحها المرحوم الشيخ سليم
البشرى شرحاً وجيزاً يينا قال في نهايته «ولو أن الكاتب عمد الى كل
بيت ففسر غريبه، وفصل مجمله، وأفشى معناه، ونزل عند مغازيه،
وعرض على وجوه العربية مفردة ومركبة، وأرسل الإشارة الى كل ما وقع
له من دقائق البلاغة وفنون البديع وطلب القصص التي يومئذ اليها فيه،
ووازن بينه وبين ما يحاكيه من الشعر ويسايره من الكلام، وغير ذلك
مما يجري في شرح الكلام ويدخل في أبواب تقده وتفسيره، لاطال القول
وتجاوز القصد»

وكنّا نسمع في مجالس أهل العلم بالأدب أن الشيخ سليم البشري لم يشرح نهج البردة ، وإنما الشرح لابنه الشيخ عبد العزيز البشري ، وهذا كلام تقوله لأهميته في تاريخ الأدب ، فإن شاء الشيخ عبد العزيز أيده وإن شاء نفاه . ولهذا الشرح مقدمة وضعها محمد بك المويلحي ، وهي مقدمة تتناسب مع ما كتبت له ، فقد حقق فيها أن الشعر باب من أبواب الكلام ، خسنه كحسن الكلام ، وقبيحه كقبيح الكلام . وأتعب نفسه في التفرقة بين الشعر وبين القرآن ، ووصل إلى « أن القرآن ليس بشعر ، وما هو من الشعر في شيء ، وإن هو من الشعر ، والشعر إنما هو كلام موزون مقفى يدل على معنى ، فأين الوزن ، وأين التقفية ، وأين المعاني التي ينتجها الشعراء من معانيه ، وأين نظم كلامهم من نظمه وإساليبه » ثم قال « فاذن لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت » وكان الظن بصاحب عيسى بن هشام أن يعرف أن الكلام في تحريم الشعر وإباحته مما ينبو عنه الذوق في القرن العشرين ! !

تلك كلمة وجيزة قلناها تمهيداً للموازنة بين البردة ونهج البردة ، وإنا نرجو أن يكون في هذا التمهيد بعض الغناء

البحث العشرون

(بين البوصيري وشرقي والبارودي)

ابتدأ البوصيري قصيدته بالتشبيب، ونحا شوقي منحا، وتلك عادة عربية قديمة، لم يفكر الشعراء في تركها الا في هذا الجيل، وإن كان منهم من نالها بسلام، كالمثنبي اذ يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدمُ أكل فصيح قال شعراً متيماً ؟
وكان للصوفية شيء من الغزل المستباح المقبول، فكان مريدوهم يؤولونه ويروونه موجهاً الى الذات الالهية، أو الحضرة النبوية، ولهم في ذلك التأويل أعاجيب يبسم لها ثغر الحزين، فليرجع اليها من شاء في كتب التوحيد، ليقف على شيء من تصورات أولئك الناس، فقد برروا ما جرى على السنة شيوخهم من المجون، وجعلوه نوعاً من الرمز والتمثيل، وتلطف المتأدبون منهم فأجروه مجرى الاستعارة التمثيلية، وألحقوا ما يجري بين عشاق الأرواح، بما يجري بين عشاق الاشباح، الى آخر ما لهم في هذا الباب من لطف الاحتيال

وهذا كله أثر تلك العادة : وهي افتتاح الشعر بالنسيب وهي عادة لم يقلع عنها شوقي الى الآن . وأظرف ما وقع له في هذا المسلك قصيدته في « مشروع منار » فقد افتتحها بهذه الأبيات

أئن عنان القلب واسلم به من رب رب الرمل ومن سيره
ومن تذيئ الغيد عن بانه مرتجة الأرداف عن كنبه

ظباؤه المنكسرات الطبا يغلبن ذا اللب على ألبه
بيض رقاق الحسن في لحة من ناعم الدر ومن رطبه
ذوابل الترجس في أصله بوانع الورد على قضبه
زن على الارض سماء الدجى وزدن في الحسن على شهبه
يمشين أسراباً على هينه مشي القطا الآمن في سر به
من كل وسمان بغير الكرى تنتبه الآجال من هذب به

وهي قصيدة طويلة ، ثلثها في النسب ، ويذكر شوقي أنه قالها
كارهاً ، ولا يبعد على هذا أن يكون ما افتتحها به من التشبيب جزءاً
من المنحة التي اجتدها أنصار المشروع إذ ذاك !! وقد رأيت من شعراء
العصر من يعجب من الحملة التي وجهها النقاد إلى افتتاح الشعر بالنسب
وهو يرى ذلك نوعاً من الرياضة لقرايح الشعراء ، وأذكر أنني رأيت في
كلام القدماء ما يؤيد هذا المعنى ، فقد كان منهم من يرى التوفيق إلى
اجادة التشبيب باباً للتوفيق إلى الاجادة في سائر القصيدة . ومهما يكن
من شيء ، فقد سار البوصيري وشوقي على أثر من تقدمهم من الشعراء ، ولا
تقل كان الأدب يقضى بتجنب هذا المنهج في المدايح النبوية ، فقد شب
كعب بن زهير بمحبوبته ، وهو في حضرة الرسول ، فما لامه النبي ، ولا
أنكرها عليه أصحابه ، ولا آخذها مؤرخو الآداب

ولنا أن نلاحظ أن البوصيري جرى في تشبيهه مجرى المحاكاة

والتمثيل ، فأنراه يقول في مطلع البردة

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

وذو سلم واد ينحدر عن الذنائب في أرض بني البكاء على طريق
البصرة الى مكة كما ذكر ياقوت ، وفيه يقول كثير
أمن آل سلمى دمنة بالذنائب الى الميث من ريعان ذات المطارب
يلوح بأطراف الأجددة رسمها بندي سلم أطلالها كالذواهب
وكاظمة جو على سيف البحر في طريق البحرين من البصرة ، وفيه
يقول بعض الشعراء

يا حبذا البرق من أكناف كاظمة يسعى على قصرات المرخ والعشيرة
لله در بيوت كان يعشقها قلبي ويألفها ان طيبت بصري
فقدتها فقد ظمان أدواته والقيظ يقذف وجه الارض بالشر
أمنية النفس ان تزدار ثانية وحالنا والاماني حلوة الثمر
واضم واد بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة ، وفيه يقول
سلامة بن جندل

يا دار أسماء بالعلياء من اضم بين الدكاك من قو فمعصوب
كانت لها مرة داراً فغيرها مر الرياح بسافي الترب مجلوب

وذكر البوصيري لهذه المواطن ، وشغفه بها ، وحنينه اليها ، ينافي
مصريته ، وكان له ان يتشوق الى احبابه في بليس أو فاقوس ، كما يتشوق
بعض الناس الى احبابه في سنتريس وأسيوط ، ولكن يظهر ان المغاني
العربية كانت احتلت رءوس الشعراء ، فكان من ذلك ان اكثروا من ذكر
نجد ، وسلم ، وأروند ، وان لم يكن لهم بهذه المواطن هوى ، ولم ينعموا
فيها باصطباح ولا اغتباق ، ولذلك نجد التكلف ظاهراً في حديث البوصيري
عن جيرانه بندي سلم ، ونحسبه اختارها للقافية ، كما اختار « اضم » لهذا

الغرض ، وأين هذا الوجد المتكلف من قول من شغل عن أروند بيفداد
وقالت نساء الحلي أين ابن اختنا ألا خبرونا عنه حيتمو وفدا
رعاه ضمان الله هل في بلادكم أخو كرم يرعى لذي حسب عهداً
فان الذي خلفتموه بأرضكم فتيّ ملأ الاحشاء هجرانه وجددا
أبغدادكم تنسيه أروند مربعا ألاخاب من يشري بيفداد أروندا
فدتهن نفسي لو سمعن بما أرى رمي كل جيد من تهده عقدا
ومن الناس من يعتذر عن صاحب البردة بأنه تشوق الى تلك
المواطن لصلتها بمدينة الرسول ، وهذا الاعتذار يؤيد ما أشرنا اليه من
انه يتغزل محاكاة وتقليداً ، ولو كان صادق الاوعدة لشبب بغادة مصرية ،
وحن الى مغنى من مغاني النيل ،.. ولم يتقيد شوقي بهذا القيد حين قال
ريم على القاع بين البان والعام أحل سفك دي في الاشهر الحرم
وانما أطلق نفسه من ربة التقليد ، فلم يتحدث عن نجد ولا عن
تهامة ، وان غلبت عليه بعض الاخيلة العربية ، فان سفك الدم في الاشهر
الحرم بقية من خيال الاعراب ، فقد كانوا يأمنون فيها مقارعة السيوف
ويظلمون لاعاصم لهم من فتك العيون

ولم يوفق البوصيري الى حسن الاداء حين قال
أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
فان قوله « جرى من مقلة » حشوا لا قيمة له ، ولا وجه لما يقوله
بعض الشيوخ من أن ذلك تأكيد ، فانه لم يشك أحد في ان الدم يجري
من العين

ومن رجال الادب من لا تروقه كلمة « على القاع » في قول شوقي

(ريم على القاع بين البان والعلم) أما قوله « أحل سفك دمي في الاشهر الحرم » ففيه مقابلة يستملحها علماء البديع ، وفيه براعة استهلال ، وهو كذلك غاية في حسن الاداء
وقول البوصيري :

فما لعينيك ان قلت ا كَفُفًا هَمَةً وما لقلبك ان قلت استفق بهم
فيه ضعف وابتذال ، وهو غير موصول بسابقه ، وقد انتقل قبل
ان يتم المعنى فقال

أيحسب الصب ان الحب منكم ثم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلال ولا أَرَقْتُ لذكر البان والعلم
وقد حار الشراح في ربط هذه الايات :
وقد يستجاد قوله :

فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت به عليك عُدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطي عبرة وضى مثل البهار على خديك والعنم
وشوق أبرع من البوصيري في الحديث عن طيف الخيال . فانا نجد
البوصيري يقول

نعم سرى طيف من أهوى فارَّقني والحب يعترض اللذات بالألم
وهو بيت مفرد لم يتم به المعنى . أما شوقي فقد أفصح عن مراده
حين قال

ياناعس الطرف لا ذقت الهوى أبداً

أسهرت مضناك في حفظ الهوى فم

أفديك ألفاً ولا آلو الخيال فدى

أغراك بالبخل من أغراه بالسكرم
سرى فصادف جرّحاً دامياً فأسا

ورب فضل على العشاق للحلم
والفرق بعيد بين قول البوصيري

نعم سرى طيف من أهوى فأرقني
وبين قول شوقي

سرى فصادف جرّحاً دامياً فأسا

وشوقي يجيد هذا النوع من الترتيب، وهو صاحب هذا البيت البديع
نظرةً فابتسامةً فسلاماً فكلاماً فوعده فلقاءً

وقول شوقي « ورب فضل على العشاق للحلم » أرفق من قول
البوصيري « والحب يعترض اللذات بالألم » — أما قول شوقي
ياناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً

اسهرت مضناك في حفظ الهوى فم

فهو عندي أغزل بيت قاله المحدثون ... وفي قوله

أفديك ألفاً ولا آلو أخيال فدّى أغراك بالبخل من أغراه بالسكرم

صورة صادقة لعبث العشق بالقلوب: فهو يغري المحبوب بالبخل،

ويغري طيفه بالجود، وسماحة الطيف باباً إلى اضطرام الفؤاد

ويقول البوصيري في مدافعة اللاتمين

يا لاتمي في الهوى العذرى معذرةً مني اليك ولو أنصفت لم تلم

ويقول شوقي

يا لاتمي في هواه والهوى قدر لو شفتك الوجد لم تعذل ولم تلم

وبيت شوقي أجمل ، وقوله « الهوى قدر » من أبدع ما قيل في
دفع العذل واللام . أما قوله « لو شفق الوجد لم تعذل ولم تلم » فهو أجود
في معناه من قول الشريف الرضي

أقول للآثم المهدي ملامته ذق الهوى وإن أسطعت الملام لم
ومن قول ابن الفارض :

دع عنك تعنفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عَنف
ولكن البوصيري كان أرق وهو يحاور الآثم بقوله

عدتك حالي لاسري بمسئتي عن الوشاة ولا دائي بمنجسم

أما شوقي فقد غلبت عليه الحكمة وهو يقول في حوار لائمه

لقد أنلتك أذناً غير واعية ورب منتصت والقلب في صمم

وشوقي يخلق الفرص ليقذف بالحكمة الحكيمة ، وتلك إحدى

سماته ، ولكنها قد تزعزعه عن إصابة الغرض في بعض الأحيان ، على

أن من الحق أن نذكر أن شوقي يعتز بالوجد وهو يدفع لائمه ، فكان له

أن يصرح بأنه منح العاذل أذناً غير واعية ، وقلباً غير سميع ، ولا كذلك

البوصيري فقد جعل الوجد داء ترجى منه السلامة ، ووصف لائمه

بنصح الجيب حين قال

محضتي النصح لكن لست اسمعه إن المحب عن العذل في صمم

إلى هنا فرغ البوصيري من النسيب ، فلنقف قليلاً عند المعاني التي

انفرد بها شوقي ، وأنا لنستعيد قوله

رمى القضاء بعيني جوذاً أسداً ياسا كن القاع أدرك ساكن الاجم

وهذا معنى قديم ، والطريف فيه هو تصوير العينين بصورة السهم

يرمي به القضاء ، فهو لا يذكر ان الجؤذر رماه وانما يذكر ان القضاء رماه . بمعنى جؤذر ، والقضاء خير بانواع النصال . وقد بلغ غاية الرفق في قوله

لما رنا حدثتني النفس قائلةً يا ويح جنبك بالسهم المصيب رُمي
جحدتها وكتمت السهم في كبدي جرحُ الأُحبة عندي غير ذي ألم
رُزقت أسمع ما في الناس من خلق اذا رزقت التماس العذر في الشيم
والبيت الأخير يمت الى ما قبله بصلة ضعيفة ، لأن النظرة الفاتنة
أعز وأمنع من أن تعد من جملة الذنوب ، والذي يكتم جرح الحب
لا يصفح لمحبوبه عن جناية ، فما هذا المن على الجمال ! وأخطا شارح
القصيدة حين استأنس بقول المتنبي

إن كان سركو ما قال حاسدنا فما لجرح اذا ارضاكو ألم
ثم أخذ شوقي يصف هذا السرب الذي صاحب حبيبته فقال :

من الموائس باناً بالرُبي وقتنا اللاعبات بروحي السافحات دي
السافرات كأمثال البدور ضحى يُغرن شمس الضحى بالخلي والمعصم
القائلات بأجفان بها سقم وللمنية أسباب من السقم
العائرات بأبواب الرجال وما أفلن من عثرات الدل في الرسم
المضرمات خدوداً أسفرت وجلت عن فتنة تسلم الأكباد للضرم
الحاملات لواء الحسن مختلفاً أشكاله وهو فرد غير منقسم
من كل بيضاء أو سمراء زينتاً للعين والحسن في الآرام كالعصم
يُرعن للبصر السلمي ومن عجب اذا أشبرن أسرن الليث بالغنم
وضعت خدي وقسمت الفؤادرُني برقعن في كنس منه وفي أكم

وهذه القطعة من البيان المشرق الجميل ، وأستملح منها قوله :
 العائرات بألباب الرجال وما أقبل من عثرات الدل في الرسم
 فقد جعلهن يمشين على القلوب ، فيعثرن بقاب بعد قلب ، وإن لم
 يسمن من عثرات الدلال ، وهن يتخطرن في الضحى وعند الأصيل ...
 وأستجيد كذلك قوله

يرعن للبصر السامي ومن عجب إذا أشرن أسرن الليث بالغم
 فقد وصفهن بالخفر والحياء ، وذكر أنهن يرعن حين تسمو اليهن
 العين ، والسحر كل السحر في الحسن الحذر الهيب ، وكان من العجب
 أن يأسر هؤلاء الخفريات الليث إذا أشرن اليه بالبنان المخضوب . . .
 وما أروع قوله بعد ذلك في خطاب محبوبته

يا بنت ذي البلد المحمي جانبه ألقاك في الغاب أم ألقاك في الأطم
 ما كنت أعلم حتى عن مسكنه ان المنى والمنايا مضرب الخيم (١)
 من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الرئيم من ضرغامه قريم
 بيني وبينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
 لم أغش مغناك الا في غضون كرى مغناك أبعد للمشتاق من إرم

وفي هذه الأبيات صورة فاتنة لذلك الشذوذ الذي تحوكة الطبيعة
 وانها لصناع ! ومن ذا الذي لم يفكر في الرجل يقطر من جوانبه البأس ،

(١) يرى أستاذنا الدكتور طه أن أخيلة شوقي خلت من الصبغة المصرية وهو
 يتكلم عن البان والعلم ، ومضرب الخيم ، وأن قوله « يا بنت ذي البلد » يذكرنا
 بقول ابن هاني ،

يا بنت ذي السيف الطويل نجاده اكذا يحجور الخيم في ناديك

وتعبس الدنيا حين يلبس ، ويشور الوجود حين يشور ، وفي بيته فتاة من
من صلبه تحسبها لرقتها وحياتها ظبية تتثنى أو غصناً يمد ؛ وقول شوقي
ما كنت أعلم حتى عن مسكنه أن المنى والمنايا مضرب الخيم
من أنبت الغصن من صمصامة ذكر وأخرج الريم من ضرغامه قرم
أجود في معناه من قول الطغرائي :

إني أريد طروق الحلي من إضم وقد حماء رُمة من بني ثعل
يحمون بالبيض والسمر اللدان به سود الغدائر حمر الحلي والحلل
وانما كان أجود لتلك النظرة الدقيقة التي سجل بها شوقي عجبه من
أن ينبت الغصن من السيف الذكر ، ويخرج الريم من الضرغامه قرم ؛
وقول شوقي :

يبنى وبينك من سمر القنا حجب ومثلها عفة عذرية العصم
لم أغش مغناك الا في غضون كرى مغناك أيعد للمشتاق من إرم
أصرح في معناه وأجود من قول الطغرائي

نؤم ناشئة بالجزع قد سقيت نصالها بيماء الفنج والكحل (١)
قد زاد طيب أحاديث الكرام ما بالكراثم من جبن ومن بخل
تبيت نار الهوى منهن في كبد حرّي ونار القرى منهم على القل
يقتلن انضاء حب لا حراك بها وينحرون كرام الخيل والإبل

« قصيدة البارودي »

ونريد ان نلم الإمامة قصيرة بقصيدة البارودي التي سماها « كشف
الغمة في مدح سيد الامة » وهي ميمية طويلة ضمنها سيرة النبي عليه السلام
من حين مولده الى يوم انتقاله الى جوار ربه ، وبنائها كما قال على سيرة

ابن هشام . والبارودي شاعر فحل ، يعتز به تاريخ الأدب في مصر
وقد نوازن بينه وبين أبي فراس ولم نفكر في الموازنة بينه وبين
البوصيري لأننا لم نتأكد من انه ربي الى معارضته ، ولكن استاذنا
الدكتور طه حسين يرى من الواجب ان تقدم للقاري نماذج من قصيدة
(كشف الغمة) في المواطن التي يعرض لمثلها البوصيري وشوقي ، ليكون
الموضوع أوفى ، وليجد القاري في تعدد الصور الشعرية مجالاً للنقد
والتمييز ... فلنذكر الآن ما بدأ به البارودي قصيدته من النسيب . قال

يارائد البرق يثم دائرة العلم
وان مررت على الروحاء فامر لها
من الغزار اللواتي في حوالها
اذا استهلت بأرض نمنمت يدها
تري النبات بها خضراً سنابلها
أدعو الى الدار بالسقيا وبني ظمأ
منازل لهواها بين جانحي
اذا تنسمت منها نفحة لعبت
أدر على السمع ذكراها فان لها
عهد تولى وأبقى في الفؤاد له
اذا تذكرته لاحت مخائله
فما على الدهر لورقت شمائله
تكاء دتني خطوب لو رميت بها
في بلدة مثل جوف العير لست أرى

واحد الغمام الى حي بنى سلم
أخلاف سارية هتانة الديم
رى النواهل من زرع ومن نغم
برداً من النور يكسو عاري الأكم
يحتال في حلة موشية العلم
أحق بالري لسكني اخو كرم
ودبعة سرها لم يتصل بفي
بي الصباة لعب الريح بالعلم
في القلب منزلة مرغمة الذم
شوقاً يفل شباة الرأي والهمم
للعين حتى كأني منه في حلم
فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم
مناكب الارض لم تثبت على قدم
فيها سوى أم تحنو على صنم

لا أستقر بها الا على قلق ولا ألدُّ بها إلا على ألم
 اذا تلفت حولي لم أجد أثراً إلا خيالي ولم أسمع سوى كلي
 فن يردُّ على نفسي لُبَّاتها أو من يحير فؤادي من يد السقم
 وهذا شعر جزل رصين، تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي
 الاسلوب، فهو يستسقى للروحاء وما اليها من المغاني العربية، ويجمع بين
 شتى الاغراض في الموضوع الواحد. ويعرض له المعنى تبعاً فيتحول اليه
 حتى لتحسبه نسي المعنى الاصيل. ألا ترى كيف استسقى للروحاء، وهذا
 هو الغرض الاول، ثم مضى في وصف السارية الهتانة الديم فقال

من الغزار اللواتي في حوالها ري النواهل من زرع ومن نَعَمٍ
 اذا استهلت بأرض نمنمت يدها بُرداً من النور يكسوعارى الالم
 ترى النبات بها خضراً سنابله يختال في حلة موشية العلم
 وكان يتمنى لو رقت شمائل الدهر فعاد بالوصل أو ألقى يد السلم،
 فانتقل من هذا الغرض الى وصف ما تكأده من الخطوب، وما مني
 به من الاقامة في بلد مثل جوف العير يعبد أهله الأصنام، لا يستقر
 به الا على قلق، ولا يلذ به إلا على ألم، إذا تلفت حوله لم يجد سوى
 خياله ولم يسمع غير كلامه

وهذا بحث بجمل، نرجو ان نعود اليه في الكلمة الآتية بشيء من

التفصيل

البحث الحادي والعشرون

« أسلوب البارودي »

قلت في الكلمة الماضية : إن شعر البارودي تغلب عليه سمة الجاهلية في المنحى وفي الأسلوب ، وذكرت في تأييد ذلك أنه قد يتحول الى المعنى الطاريء حتى لنحسبه نسي المعنى الاصيل ، وهذا الأسلوب معروف في أشعار الجاهليين والمخضرمين ، ومن نماذجهم من شعراء العصر الاخلاية ، فانا نرى طرفة بن العبد يشبه قباب محبوبته بخلايا السفين ، ثم يترك المشبه ويمضى في الحديث عن المشبه به فيقول

كأن حول المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين بن يامن يجورها الملاح طوراً ويهتدى
يشق عباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المنائل باليد

وتراه بهم بالحديث عن نفسه فيقول

واني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتفتدي
ثم يندفع في وصف الناقة حتى لا يشك القارىء في أنه قال من أجلها هذه القصيدة ، إذ يصفها في أكثر من ثلاثين بيتاً ، ثم يعود بعد لأي الى الحديث عن نفسه فيقول

ولست بحلال التلّاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وكذلك تجد كعب بن زهير يقول في ثمر محبوبته سعاد

تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

ثم يمضي في وصف ما مرّجت به هذه الراح فيقول
 شَجَّتْ بذى شبنم من ماء محنية صاف بابطوح أضحي وهو مشمول
 تنفي الرياح القذى عنه وأفرطه من صوب سارية يبيض يعاليل
 وتراه يقول في بعد محبوبته
 أمست سعاد بارض لا يبلغها إلا العتاق النجيبات المراسيل
 وكان هذا كافياً في الإبانة عن بعد الشقة، ولكنه وصف الناقة التي
 تبلغه تلك الارض بنحو عشرين بيتاً، ثم عاد بعد هذا كله الى مرمى اليه
 من استعطاف الرسول فقال

تسعى الوشاة بجنيبها وقولهمو انك يا ابن ابي سامي لمقتول
 وقال كل خليل كنت آمله لا ألهينك اني عنك مشغول
 فقلت خلوا سبيلي لا أبالكمو فكل ما قدر الرحمن مفعول
 كل ابن انثى وان طالت سلامته يوماً على آلة حذاء محمول
 أنبت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
 مهلاهداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيها مواعيط وترتيل
 لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وإن كثرت في الاقاويل
 وقد سلك البارودي هذا المسلك في قصيدته (كشف الغمة) فقد
 رأينا كيف أفاض في وصف السحب وهو يستسقي للروحاء، وكيف
 انتقل من الحديث عن وجده الى الحديث عن غربته، ولنذكر الآن
 شاهداً آخر نؤيد به اختياره لهذا الاسلوب

— وصف الغار —

وصف القرآن الغار الذي آوى اليه النبي مع الصديق وصفاً لازخرف

أفیه اذ قال « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » ووصفه أبو بكر رضي الله عنه على هذا النحوف قال « كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت نار المشركين . قلت يا رسول الله : لو أن أحدهم رفع قدمه وأنا قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! » وتحدثت عائشة عن ذلك فقالت « ولما كان ليلة بات النبي صلى الله عليه وسلم في الغار امر الله تعالى شجرة فنبئت في وجه الغار ، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، وأتى المشركون من كل بطن حتى إذا كانوا من النبي صلى الله عليه وسلم على قدر أربعين ذراعاً معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم فرأى حمامتين على فم الغار فقال لأصحابه ليس في الغار شيء ، رأيت حمامتين على فم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد ، وقال رجل آخر : الغار ؛ فقال أمية بن خلف ما أدبكم فيه ، وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد »^(١)

فامامنا الآن حقيقة ثابتة « هي أن النبي كان مع رفيقه في الغار وأن الله أنزل سكينته عليه فلم يخف ولم يحزن » وقد وُصفت هذه الحقيقة في القرآن وفي كلام الصديق وصفاً يرجع في جوهره إلى الإشادة بفضل الله ورحمته ، ووُصفت في كلام عائشة وصفاً فيه شيء من الزخرف والخيال : إذ أضافت حديث الحمامتين والعنكبوت — ولنا في حديث عائشة رأي لا يسمح به ظرف الزمان — فلنذكر كيف تناول البزصيري وشوقي والبارودي

هذه الحادثة ، وكيف نحا البارودي في وصفها منحى شعراء الجاهلية .

أما البوصيري فقد قال

فالصدق في الغار والصدِّيق لم يرَ ما وهم يقولون ما في الغار من أَرِم^(١)
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على خير البرية لم تنسج ولم تحم
وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

وهذا وصف لم يخرج عما ورد في القرآن من وقاية الله لنبيه وإنزاله
السكينة عليه ولم يَعدْ ما حدثت به عائشة من حوم الحمام ونسج العنكبوت
أما شوقي فقد قال

سل عصبة الشُّرك حول الغار حائمةً لولا مطاردة المختار لم تسم
هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقرآن من أَمَم^(٢)
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائات الزغب كالرخم
فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم
لولا يد الله بالجارين ما سلمًا وعينه حول ركن الدين لم يقم
تواريا بجناح الله واستترا ومن يَضُمَّ جناح الله لا يُضَمَّ

وفي هذه القطعة يسخر شوقي من المشركين ، ويهزأ بهم ، ويمثل
ضلالهم وإخفاقهم تمثيلاً بشعاً خفيفاً يخزى له وجه الشرك ويرغم به أنف
الجاحود ، وللقائى أن يتأمل قوله

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم
فانه من أجل ما شبّه فيه المحسوس بالمعقول . أما البارودي فقد قال :

وجاءه الوحي إذنا نأ بهجرتِه
فما استقر به حتى تبوأه
بني به عشه واحتله سكنأ
إلفاف ما جمع المقدار بينهما
كلاهما ديدبان فوق مربأة
ان حن هذا غرامأ أو دعا طربأ
يخالها من يراها وهي جائمة
ان رفرفت سكنت ظلا وان هبطت
مرقومة الجيد من مسك وغالية
كأنما شرعت في قانيء سرب
وسجف العنكبوت الغار محتفيا
قد شد أطرافها فاستحكمت ورس
كأنها سابريء حاكه لبق
وارت فم الغار عن عين تلم به
فياله من ستار دونه قرء
فضل فيه رسول الله معتكفا
حتى اذا سكن الارجاف واحترفت
أوحى الرسول باعداد الرحيل الى
وسار بعد ثلاث من مباءته
وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية الى الافاضة

فيم الغار بالصديق في الغم (١)
من الحائم زوج بارع الرثم
يأوى اليه غداة الريح والرهـ
إلا لسر بصدر الغار مكتـ
يرعى المسالك من بعد ولم يم
باسم الهديل أجابت تلك بالنغم
في وكرها كرة ملساء من آدم (٢)
روت غليل الصدى من حائر شم
مخضوبة الساق والكفين بالغـ
من أدمعي فغدت حجرة القدم
بخيمة حاكها من أبداع الخيم
بالأرض لكنها قامت بلا دعم
بأرض سابور في بمجوحة العجم
فصار يحكي خفاء وجه ملتـ
يجلو البصائر من ظلم ومن ظلم
كالدر في البحر أو كالشمس في النـ
أكباد قوم بنار اليأس والوغم
من عنده السر من خل ومن حشم
يؤم طيبة مأوى كل معتمـ
وفي هذه القطعة انتقل البارودي من سرد القصة النبوية الى الافاضة

في وصف الحمامتين والعنكبوت ، فتحدث عن بناء العش والغرض من سكناه ، وتكلم عن حراسة الحمامتين ، ورعايتهما للمسالك البعيدة ، وهجرها للنوم ، وتغنيهما باسم الهديل ، وذكر كيف كانت الحمامة مخضوبة الساق والكفين ، وكيف كانت مرقومة الجيد ، وكيف كانت محمرة القدم كأنما شرعت في دموعه الحمراء ، وتكلم عن الخيمة التي شد أطناها بالعنكبوت ووصفها بجودة النسيج حتى ليحسبها الرائي حلة سابرية ، الى آخر ما قال . وهذا كله خروج عن الموضوع ، واستسلام الى الخيال ، وكذلك كان يفعل الأقدمون

(النظم في قصيدة الباردي)

وتمتاز قصيدة البارودي بالترتيب ، لانه سائر الحوادث وفقاً لما قصه ابن هشام ، ولا كذلك شوقي والبوصيرى ، فقد أطاعا الخواطر الطارئة ، وقدما بعض الحوادث على بعض ، وتكلما عن النبي وعن معجزاته مثلاً قبل أن يذكر الميلاد

ولكن مزية الترتيب التي انفرد بها البارودي كانت باباً لفقد الشعر في اكثر القصيدة ، فأصبحت بذلك « منظومة » كتلك المنظومات التي تعرف بالمتون ، وإلى القارىء انموذجاً يرى به غلبة النظم في ميمية البارودي اذ قال :

وأَمْ طَيِّبَةٌ مَسْرُورًا بِمُودَتِهِ	يطوى المنازل بالوخادة الرُّسَمِ
ثم استهلت وفود الناس قاطبة	الى حماء فلاقته وافر الكرم
فكان عام وفود كلما انصرفت	عصابةً اقبلت اخرى على قَدَمِ
وارسل الرسل تنرى للملوك بما	فيه بلاغ لاهل الذكر والفهم

وَأَمَّ غَالِبَ أَكْنَافِ السَّكْدِيدِ إِلَى
وَحِينَ خَانَتْ جُذَامَ فَلَّ شَوْكَتَهَا
وَسَارَ مَتَنَحِيًّا وَادِي الْقُرَى فَمَحَا
وَأَمَّ خَيْبَرَ عَبْدَ اللَّهِ فِي نَفَرِ
وَيْعَمِ ابْنِ أُنَيْسٍ عَرَضَ نَخْلَةَ إِذْ
ثُمَّ اسْتَقْلَ ابْنَ حَصْنٍ فَاحْتَوَتْ يَدَهُ
وَسَارَ عَمْرُو إِلَى ذَاتِ السَّلَاسِلِ فِي
وَعَزْوَتَانِ لِعَبْدِ اللَّهِ وَاحِدَةٍ

وهذا الاسلوب ظاهر غالب في هذه القصيدة ، وقد يصل أحيانا
إلى الغموض ، ولا ترجع الشاعرية إلى البارودي إلا حين يذكر نفسه
وبلواه ، وانظر كيف يقول وهو يتحدث عن رجائه في نصرة النبي له
يوم المعاد

إِنِّي وَإِنْ مَالِي دَهْرِي وَبَرْحِي
لثَابِتِ الْعَهْدِ لَمْ يَحُلْ قُوَى أُمْلِي
لَمْ يَتْرِكْ الدَّهْرُ لِي مَا اسْتَعِينُ بِهِ
هَذَا يَجْبَرُ مَدْحِي فِي الرِّسُولِ وَذَا

وفي هذه الايات الاربعة لونا من التعبير ، أولهما مملوءة بالحرارة
لأنه يمثل أمنية دفنتها الحوادث في صدر الشاعر وثانيهما فيه ضعف وفتور
لأنه عاد إلى القصص من جديد . ولعل أغرب ما وقع له من « النظم »

اعتذاره عن افتتاح قصيدته بالنسيب إذ قال في تقديمها للرسول
فهاكها يا رسول الله زاهرةً تهدي إلى النفس ريباً والآس والبرم

وسميتها باسمك العالى فآلبسها
 غريبة في إسمار البين لو أنست
 لم ألنزم نظم حبات البديع بها
 وإنما هي آيات رجوت بها
 نثرت فيها فريد المدح فانتظمت
 صدرتها بنسيب شف باطنه
 لم آتخذه جزافاً بل سادكت به
 تابعت كعباً وحساناً ولي بهما
 والشعر معرض الباب بروج به
 فلا يلغني على التشبيب ذو عنت
 ويمكن بعد هذا البيان ان تقرر ان قصيدة البارودي يغلب فيها
 النظم عند سرد الحوادث ، ويغلب فيها الشعر عند الوصف وعند
 مناجاة الوجدان

سميك يا رسول الله :

وقد اشترك الشعراء الثلاثة البوصيرى والبارودي وشوقي في التسمي
 باسم النبي عليه السلام ، وكلهم يرجو أن ينجو بفضل التسمي باسمه ، فنجد
 البوصيرى يقول

إن آت ذنباً فما عهدي بمنتهض
 فان لي ذمة منه بتسميتي
 ونجد شوقي يقول

يا احمد الخير لي جاء بتسميتي
 وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

ونجد البارودي يقول

خدمته بمديحي فاعتليت على هام السماك وصار السعد من خدمي
وكيف أُرهب ضيماً بعد خدمته وخادم السادة الاجواد لم يُضم
أم كيف يخذلني من بعد تسميتي باسم له في سماء العرش محترم
والبوصيري هو صاحب الفكرة ، وقد تبعه البارودي ، ولحقهما
شوقي ، وتلك مسألة فيها نظر كما يقولون :

البحث الثاني والعشرون

التخلص والاعتضاب

التخلص هو انتقال الشاعر من فن الى فن بمناسبة ظاهرة ، ويقابله
الاعتضاب ، ويكثر التخلص في شعر المحدثين ، كما يكثر الاعتضاب في
شعر القدماء . قال ابن رشيق : وأولى الشعر بان يسمى تخلصاً ما تخلص
فيه الشاعر من معنى الى معنى ثم عاد الى الاول وأخذ في غيره ثم رجع
الى ما كان فيه ، كقول النابغة الذبياني في آخر قصيدة اعتذر بها الى
النعمان بن المنذر

وكفكفت مني عبرة فرددتها الى النحر منها مستهلٌ وداعمٌ
على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت ألماً أصبحُ والشيب وازع
ثم تخلص الى الاعتذار فقال ولكن هماً دون ذلك شاغلٌ
وعيد أبي قابوس في غير كنهه اتاني ودوني راكسٌ فالضواجعُ

ثم وصف حاله عند ما سمع ذلك فقال
 فبت كأني ساورتي ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
 يُسهد في ليل التمام سليمها حللي النساء في يديه قعاقع
 تناذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طوراً وطوراً تراجع
 فوصف الحية والسليم الذي شبه به نفسه ما شاء، ثم تخلص الى
 الاعتذار الذي كان فيه فقال

أناي - أيت اللعن - أنك لمتني وتلك التي تستك منها السامع
 ثم اطرء ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة ..
 وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد
 الشاعر مدحه بتلك القصيدة ثم يعود بعد ذلك الى ما كان فيه من النسيب،
 ثم يرجع الى المدح، كما فعل أبو تمام، وان أتى بمدحه الذي تمادي
 فيه منقطعاً، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة

ظلمتك ظالمة البرى ظلوم والظلم من ذي قدرة مذموم
 زعمت هواك عفا الغداة كما عفت منها طول باللوى ورسوم
 لا والذي هو عالم ان النوى أجل وأن أبا الحسين كريم
 ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت نفسي على ألف سواك تحوم
 ثم قال بعد ذلك

لمحمد بن الهيثم بن شبابة مجد الى جنب السماك مقيم
 ويسمى هذا النوع الإلمام، وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب
 في الخروج الى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعمت الابل وذكور
 القفار وما هم بسبيله: دع ذا، وعد عن ذا، وياخذون فيما يريدون، أو

يأتون بأن المشددة ابتداءً للسلام الذي يقصدونه ، فإذا لم يكن خروج
الشاعر الى المدح متصلاً بما قبله ولا منفصلاً بقوله : دع ذا وعد عن
ذا ، ونحو ذلك سمي طفرأً وانقطاعاً : وكان البحرى كثيراً ما يأتي به
نحو قوله

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجاء موكل
ان الرعية لم تزل في سيرة عمرية مذ ساسها المتوكل
فلننظر بعد ذلك ما اختاره شعراؤنا الثلاثة من التخلص والاقتضاب

أما البوصيري فقد آثر التخلص اذ قال في محاوراة العذول

انى اتهمت نصيح الشيب في عذل والشيب أبعد في نصيح عن التهم
فان أمّارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قري ضيف ألم برأسى غير محشم
لو كنت أعلم اني ما أوقره كتمت سرّاً بدا لي منه بالسكم
من لي بردّ جراح من غوايتها كما يردّ جراح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرضاع وان تفضمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن تولية إن الهوى ما تولى يضم أو يصم
وراعها وهي في الاعمال سائمة وإن هي استحلّت للمرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع قرب مخمصة شرّ من التخم
واستفرغ الدمع من عين قدامتلات من المحارم والزم حمية الندم
وخالف النفس والشيطان واعصهما وان هما محضاك النصيح فاتهم

ولا قطع منهما خصما ولا حكما
أستغفر الله من قول بلا عمل
أمرتك الخير لكن ما ائتمرت به
ولا تزودت قبل الموت نافلة
ظلمت سنة من أحيا الظلام الى
وهذا النوع من التخلص غير مقبول ، اذا لاحظنا أنه تخلص من
النسيب الى المدح ، أما اذا لاحظنا أنه تخلص من النسيب الى حساب
النفس ثم الى مدح الرسول ، فانا نغفر له هذه الإطالة ، لانها في غرض
من أغراضه الأساسية ، وهو الدعوة الى تهذيب النفس ، وتطهير الوجدان
ومن الخير أن نذكر أن البوصيري لا يفعل ذلك في جميع قصائده ،
فقد رأيناه يواجه الغرض بلا مقدمة في همزيته فيقول :

كيف ترقى رقيك الانبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد حاسل سنا منك دونهم وسناء
انما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء

وكأنما جراه شوق في افتتاح همزيته فقال

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
الروح واللائل الملائك حوله للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهى والمنتهى والسدرة العصماء

ولكن أين ابتداء شوق من ابتداء البوصيري ؟ إن الفرق بينهما
لبعيد ! وان كان في تعبير البوصيري شيء من الجفاء ، في تقدير الانبياء
وأعوذ فأذكر اني أستملح قول البوصيري في رياضة النفس

واخش الدسائس من جوع ومن شبع

فرب مخصصة شر من التخم

وجمال هذا البيت يرجع الى مافيه من صدق الدعوة : فان النفس
يضرُّ بها الزهد ، كما يطفئها الترف ، كالجسم ترديه المسغبة ، كما تضره
البطنة . وأستجيد كذلك قوله

أمرتك اخير لكن ما ائتمرت به وما استقممت فما قولك استقم

وحسن هذا البيت يرجع الى سماحة الشاعر ورفقه ، وخصوص دعوته
من شوائب الصلف والكبرياء ، وهذا أدب يحتاج الى مثله اطباء النفوس
وقد أثر البارودي أيضاً حسن التخلص اذ قال

ليت القطا حين سارت غدوة حملت	عني رسائل أشواق الى إضم
مرت علينا خميصاً وهي قاربة	مر العواصف لا تلوي على أرم
لا تدرك العين منها حين تلمحها	إلا مثلاً كبح البرق في الظلم
كانها أحرف برقية نبضت	بالسلك فانتشرت في السهل والعلم
لا شيء يسبقها الا اذا اعتقلت	بناتي في مديح المصطفى قلبي

و هذا التخلص مستملح مقبول ، ومُضي الشاعر في وصف القطاة إيثار
للاسلوب القديم الذي نوهنا به في الكلمة الماضية ، ونريد وفقاً لاشارة
استاذنا الدكتور طه حسين أن نقرر أن هذا الاسلوب جزء من الفن
الشعري عند الجاهليين والمخضرمين ومن سائرهم من المحدثين ، وبيان
ذلك ان الشاعر يرى من الفن ان يصف ما يعرض له وصفاً يحمله صورة
شعرية تكاد تستقل عما تتصل به نوعاً من الاستقلال ، وتكون لهذا

الوصف قيمة أي قيمة حين يراد به تأكيد معنى من المعاني المقصودة .

ومن أمثلة ذلك قول أبي صعتر البولاني

فما نطفة من حبٍّ مزنٍ تقاذفتُ به جنبنا الجودي والليل دامسُ
فلما أقرته اللصاب تنفست شمالاً بأعلى مائه فهو قارس
بأطيب من غيرها وما ذقت طعمه ولكنني فيما ترى العين فارس

فان للشاعر من المبالغة في وصف ماء المزن غرضاً خاصاً هو الاشادة
بعذوبة ذلك الثغر الشهي المذاق ، وبمائل هذا قول عاتكة المريّة ، وكانت
كما قال صاحب زهر الآداب عشقت ابن عم لها فراودها عن نفسها

وما طعم ماء أي ماء تقوله تحذر عن غرّ طوال الذوائب
بمنعرج من بطن واد تقابلت عليه رياح الصيف من كل جانب
نفت جرية الماء القذى عن متونه فما لبّ به عيب تراه اشارب
بأطيب ممن يقصر الطرف دونه تقي الله واستحياء بعض العواقب

فان لها من وصف الماء في عذوبته وجمال موقعه وحاجة الاعراب
اليه غرضاً خاصاً هو الاشادة بجمال الحياء وطيب العفاف ، ويشبه هذين
المثالين ما أنشده ابن دريد

وما وجد اعراية قذفت بها صروف النوى من حيث لم تكن ظنّت
تمت أحاليب الرعاء وخيمة بنجد فلم يقدر لها ما تمت
اذا ذكرت ماء العضاه وطيبة وبرد الحصى من نحو بنجد أرئت
بأوجد من وجد بر يا وجدته غداة غدونا غدوة وأطمأنت
فان يك هذا عهد ربنا وأهلها فهذا الذي كنا ظننا وظنّت

وأورع من هذا قول الایوردي (١)

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى
تراعى باحدى مقلتيها كناسها
فلاح لها من جانب الرمل مرتع
فالت اليه والحريص اذا غدت
وأنسها المرعى الخصب فصادفت
فلما قضت منه اللبانة راجعت
أُتيح له عاري السواعد لم يزل
فولت على دُعر وبانفس ما بها
بأوجد مني يوم عجت ركبها
وكان يكفي أن يشبه الشاعر وجده بفراق محبوبته بلوعة الظية يفتال
رشأها الذئب ، ولكن هذه الصورة الشعرية التي وضعها للغزاة المروعة
الملتاعة جعلت المعنى أوقع في النفس ، وأملك للقلب ، وأروع للوجدان
ولننتقل بعد ذلك الى شوقي ، وأنا نراه صدف عن التخلص
وآثر الاقتضاب ، فانتقل فجأة من ذلك النسيب المونق المشرق الى
الحديث عما تضرع الدنيا من المبكيات ، وما تجن من ظلمات الخطوب ،
وتدرج من هذا الى الحديث عن غفلة النفس وفقرها الى الاخلاق ،
وكذلك بقول

نفس دنياك تخفي كل مبكية وان بدا لك منها حسن مبتسم

(١) نجد هذه المعاني الوجدانية في كتاب «مدامع العشاق» عند الكلام عن

الطبيعة في انفس الشعراء

فُضِيَ بِتَقْوَاكَ فَاهَا كُلَّمَا ضَحَكَتْ
مُخْطُوبَةٌ مِنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً
يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا
لَا تَحْفَلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَائِثِهَا
كَمْ نَأْتَمُّ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ
طَوْرًا تَمْدُكُ فِي نَعْمَى وَعَافِيَةٍ
كَمْ ضَلَلْتِكَ وَمَنْ تَحْجِبُ بِصِيرَتِهِ
يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعِهَا وَدَهَا
رَكَضَتْهَا فِي مَرِيعِ الْعَصِيَّاتِ وَمَا
هَامَتْ عَلَى أَثَرِ اللِّذَاتِ تَطْلُبُهَا
صَلَاحُ أَمْرِكَ لِلْإِخْلَاقِ مَرْجَعُهُ
وَالنَّفْسُ مِنْ خَيْرِهَا فِي خَيْرِ عَافِيَةٍ
تَطْفِي إِذَا مَكُنْتَ مِنْ لَذَّةٍ وَهَوًى
إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغَفْرَانِ لِي أَمَلٌ
أَلْقِي رَجَائِي إِذَا عَزَّ الْمَجِيرُ عَلَى
إِذَا خَفَضْتَ جَنَاحَ الذِّلِّ أَسْأَلُهُ
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
لَزِمْتَ بَابَ أَمِيرِ الْإِنْبِيَاءِ وَمَنْ
وَهَذِهِ قِطْعَةٌ مُخْتَارَةٌ ، الْجِيدُ فِيهَا أَكْثَرُ وَأَجُودُ مِمَّا يَقَابِلُهُ فِي كَلَامِ
الْبُوصَيْرِيِّ ، وَإِنْ قَوْلُ شَوْقِ

لَا تَحْفَلِي بِجَنَاحِهَا أَوْ جَنَائِثِهَا الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

لا شرف معنى واسمى خيالاً من قول البوصيري

واخش الدسائس من جوع ومن شبع قرب مخمصة شر من التخيم
ولك أن تلاحظ أن البوصيري وقف موقف الناصح الأمين ، فلما
وصل الى نفسه ذكر أنه لم يصل ولم يصم سوى الفرض ، وأنه يأسى
على أن لم يتزود نافلة قبل الموت ، وأنه لذلك ظلم سنة من أحيا الظلام حتي
تورمت قدماءه ، ومن هنا لم تكن الفرصة سانحة ليزدرف ما دزف شوقي
من الدمع . وأين شوقي من البوصيري ! لقد كان البوصيري من أئمة
الصوفية ، أما شوقي فقد كان حين نظم قصيدته من رجال البلاط ، وكان
يحسن أن يقول

رمضان ولي هاتها ياسافي مشتاقه تسمى الى مشتاق
ومن هنا سنحت له الفرصة ليزفر تلك الزفرة الحارة ، ويرمى بذلك
الندم الموجه الذي يذيب لفائف القلوب ، وانظر كيف يقول
ان جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير معتصم
وكان شوقي أوفر الناس احساساً بخطور ذنبه وكرم ربه حين قال
وان تقدم ذو تقوى بصالحة قدمت بين يديه عبرة الندم
« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله
ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم »

البحث الثالث والعشرون

« المعجزات »

لنا في المعجزات رأي خاص ، لا يسمح به ظرف الزمان ، لان درس المعجزات بطريقة علمية يتطلب عرض ما يحيط بها من الحقائق والفروض ، وقد يشير هذا فتنة نحن عنها أغنياء ، فلنذكر فقط ما يتصل بما ذكره البوصيري وشوقي والبارودي من معجزات النبي عليه السلام ، ولنذكر قبل ذلك ان القرآن يفيض بالتدسر من إلحاح المعاندين ولجاجتهم في طلب المعجزات ، إذ كان النبي يدعو الى تحكيم العقل ، وكان أولئك الكفار يأبون الا أن تكون الرسالة مصحوبة بألعاب بهلوانية ، تنفر منها القلوب ، وتأبأها العقول ، وتنبوعنها الاذواق ، ولتنظر كيف يقول فيهم عز شانه وتبارك اسمه في سورة الاسراء (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفرجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولا) — وهذه الآيات صريحة في ان النبي لا يملك لنفسه شيئاً ، وأن الامر كله لله ، وان في القرآن

هَدَى وتبصرةً لقوم يعقلون ، وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة
العنكبوت (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ! قل إنما الآيات عند
الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟
إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) — ومعنى هذه الآيات أن
معجزة النبي الباقية هي القرآن ، وفي تأييد ذلك يقول البوصيري :

آيات حق من الرحمن محدثة	قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا	عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم
وتبعه شوقي فقال :	

جاء النبيون بالآيات فانصرفت	وجئتنا بحكيم غير منصرف
آياته كلما طال المدى جدد	يزينهن جلال العتيق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة	يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم

ويمكن بعد هذا أن نقرر أن شعراءنا الثلاثة لم يهتموا بنقد الاخبار
الواردة في المعجزات ، وإن كان شوقي على شيء من الحرص ، ويليهِ
البوصيري ، أما البارودي فقد نظم كل ما صادفه من هذا القبيل ، وقد
اشترك البوصيري والبارودي في الحديث عن سجود الاشجار ، وسعياها
الى الرسول ، فقال البوصيري

جاءت لدعوته الاشجار ساجدة	تمشي اليه على ساق بلا قدم
كأنما سطرت سطرًا لما كتبت	فروعها من بديع الخط بالقم
وقال البارودي	

أتلك أم حين نادى سرحة فأت	اليه منشورة الأغصان كالجم
---------------------------	---------------------------

حَنَّتْ عَلَيْهِ حُنُوَ الْأَمِّ مِنْ شَفَقٍ وَرَفَرَتْ فَوْقَ ذَاكَ الْحَسَنُ مِنْ رَحْمٍ
جَاءَتْهُ طَوْعًا وَعَادَتْ حِينَ قَالَ لَهَا عَوْدِي وَلَوْ خَلَّيْتُ لِلشُّوقِ لَمْ تَرِمِ
وَافْتَرَدَ الْبَارُودِي بِالْحَدِيثِ عَنْ شِقِّ صَدْرِ النَّبِيِّ وَهُوَ غَلَامٌ فَقَالَ

فَبَيْنَمَا هُوَ يَرعى الْبَهْمَ طَافَ بِهِ شَخْصَانُ مِنْ مَلَكَوَاتِ اللَّهِ ذِي الْعَظَمِ
فَأَضْجَعَاهُ وَشَقَا صَدْرَهُ بِيَدٍ رَفِيقَةٍ لَمْ يَبْتَ مِنْهَا عَلَى أَلَمٍ
وَبَعْدَ مَا قَضَى مِنْ قَلْبِهِ وَطَرًا تَوَلَّى غَسَلَهُ بِالسَّلْسِلِ الشَّبِيمِ
مَا عَاجَلَا قَلْبَهُ إِلَّا لِيُخْلَصَ مِنْ شَوْبِ الْهَوَى وَيُعِي قَدْسِيَةَ الْحِكْمِ
فِيهَا نِعْمَةٌ لِلَّهِ خَصَّ بِهَا حَبِيبَهُ وَهُوَ طِفْلٌ غَيْرُ مُحْتَلَمٍ
وَشَقَّ الْمَلَائِكَةُ لَصَدْرِ النَّبِيِّ وَغَسَلَهُمْ إِيَّاهُ بِالسَّلْسَبِيلِ لَيْسَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ

لأن المعجزة تكون للافتناع ، وهو لم يدع إلى ربه في طفولته حتى يكون للافتناع مجال ، وإنما هو نوع من التطهير لم تجربه العادة ولم يعرفه الناس ، والله يختص برحمته من يشاء ، وقد مر البارودي بهذه الاسطورة مرًا الطيف ، فلم يعرض لها بنقد ولم يتناولها بتحليل ، ونحن نكتفي هنا بأن نقرر أنها في حاجة إلى تحقيق ، ثم نلتفت إلى ما فيها من روعة الخيال ، فقد صور النبي فيها صورة رائعة ، وتمثل فيها لطف الله به ، وإحسانه إليه وتكريمه إياه ، وهي صورة شعرية نحب أن نمتع بها القارئ ، ليري كيف ابتدأ القصص في سيرة النبي عليه السلام ... ذكر محمد بن ظفر من حديث طويل أن النبي قال

« وكنت مسترضعًا في بني سعد بن بكر ، فبينما أنا ذات يوم منتبذ من أهلي في بطن واد مع أترابي من الصبيان إذا أنا برهط ثلاثة معهم طشت برهرة من الذهب ملآن ثلجًا ، فأخذوني من بين أصحابي ،

وانطلق اصحابي هرباً حتى انتهوا الى سفير الوادي ثم أقبلوا على الرهط وقالوا : ما أربكم من هذا الغلام ، فانه ليس منا ، هذا ابن سيد قريش ، وهو مسترضع فينا من غلام يتيم ليس له أب ، فما يرد عليكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك . فان كنتم لا بد قاتليه فاختروا منا أينما شئتم فليأتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان ان القوم لا يخيرون جواباً انطلقوا مسرعين الى الحي يؤذنونهم ويستصرخونهم على القوم قال فعمد أحدهم فاضجعني الى الارض إضجاعاً رقيقاً ثم شق بطني ما بين مفرق صدري الى عاني ، وانا انظر اليه ، ولم أجد لذلك مساً ثم أخرج احشاء بطني فغسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها ، ثم أعادها الى مكانها ، ثم قام الثاني منهم فقال لصاحبه : تنح عنه ، فنحاه عني ، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي وانا انظر اليه ، فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء فرمى بها ، ثم أمسر يده بمنة منه ، وكأنه يتناول شيئاً ، فاذا بخاتم من نور في يده يحار الناظرون اليه نختم به قلبي فامتلاً نوراً ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرأ ، ثم قال الثالث تنح عنه ، فنحاه عني ، فأمسر يده على مفرق صدري الى منتهى غايقي ، فالتأم ذلك الشق باذن الله تعالى ، ثم أخذ بيدي فانهضني من مكاني انهاضاً لطيفاً ثم قال للاول الذي شق بطني : زنه بعشرين من أمته فوزني فرجحتهم ثم قال : زنه بمائة من أمته ، فوزني فرجحتهم ، ثم قال زنه بالف من أمته فوزني فرجحتهم ، ثم قال دعه فوالله لو وزنته بامته لرجحتهم ! قال ثم ضموني الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني ، ثم قالوا : لا ترع ! فانك لو تدري ما يراد بك من الخير اقربت به عيناك ! قال فبينما نحن كذلك

اذ اقبل الحي بحذافيرهم ، فاذا ظئري امام الحي تهتف باعلى صوتها وتقول
واضعيفاه ! فانكبوا علي وضمنوني الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني
— يعني الملائكة — وقالوا : حبذا أنت من وحيد ! وما انت بوحيد :
ان الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الارض ! ثم قالت ظئري :
وايتباه !! استضعفت من بين اصحابك ، فقتلت لضغفك ! قال فانكبوا
علي وضمنوني الى صدورهم ، وقبلوا رأسي وما بين عيني — يعني الملائكة —
وقالوا : حبذا أنت من يتيم ! ما اكرمك على الله ! لو تعلم ما يراد بك من
الخير لقرت به عينك ! فوصل الحي الى شفير الوادي فلما انصرفتني أمي
— وهي ظئري — قالت لا أراك الا حياً بعد ! فجاءت حتى انكبت على
ثم ضمتني الى صدرها ، فوالذي نفسي بيده اني حجرها قد ضمتني اليها
وان يدي لفي بد بعض الملائكة ، وجعل القوم لا يرونهم ، قال : فقال بعض
القوم : ان هذا الغلام قد أصابه لم أو طائف من الجن ، فانطلقوا به الى
كاهننا حتى ينظرا اليه ويداويه ، فقلت يا هذا ما بي شيء مما تذكرون ، ان
آرابي لسليمة وفؤادي صحيح ، ليست لي فلتة ، فقال أبي — وهو زوج
ظئري — ألا ترون كلامه كلام فصيح ؟ اني لأرجو أن لا يكون بابني بأس
فاتفقوا على أن يذهبوا بي الى الكاهن ، فلما انصرفوا بي قصوا عليه قصتي
فقال اسكتوا حتى أسمع من الغلام ، فانه هو أعلم بأمره منكم ، فسألتني فقصة
عليه القصة ، وأمرني من أوله الى آخره ، فوثب إلي وضمني إلى صدره
ثم نادى بأعلى صوته : يا للعرب ! اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه ! فواللات
والعزى لئن تركتموه وأدرك لبيدان دينكم ، وليسفهن عقولكم ، وعقول
آبائكم ، وليخالفن أمركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله ! قال : فعمدت

ظئري اليه فانزعمني من حجره وقالت : لا أنت أعته وأجن ! ولو علمت
أن هذا من قولك لما أتيتك به ، فاطلب لنفسك من يقتلك ، فأنا غير
قاتلي هذا الغلام ! ثم احتملوني وأدوني الى أهلهم وأصبحت مفزعاً مما فعل
بي ، وأصبح أثر الشق ما بين صدري الى منتهى عانتي كأنه الشر الك (١)
وقد نقلنا هذا الحديث على طوله لئمكن القاري من تقديره وتمييزه
ولنجعله على بينة من الحكم له أو عليه ، ان شاء ، أما نحن فتريناه فيه
عبارته ، اذ كانت عبارة ضعيفة لا تسمو الى ما في صحيح الحديث من
متانة التركيب ، وحلاوة التعبير ، ويرينا بنوع خاص مفتتح الحديث فان
طريقة القصص التي سلكها قد تدل على أنه موضوع ، وذلك قوله « روى
شداد بن أوس قال : بينا نحن جلوس مع النبي صلى الله عليه وسلم اذ
أقبل شيخ من بني عامر وهو مدبره قومه ، يتوكأ على عصاه ، فثل بين
يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبه الى جده فقال : يا بن عبد المطلب
اني انبئت أنك تزعم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس ، وأن
الله تعالى أرسلك بما أرسل به ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء
والخلفاء ، ألا وانك تقوهت بعظيم ! انما كانت الانبياء والخلفاء في بيتين
من بني اسرائيل ، وأنت ممن يعبد الحجارة والأوثان ، فمالك والنبوة ؟
ولكن لكل حق حقيقة ، فانبئني بحقيقة قولك ، وبدو شأنك ! قال :
فأعجب النبي بمسأله ، ثم قال يا أخا بني عامر ، ان لهذا الحديث الذي
سألتني عنه نبأ عظيماً ومجلساً كريماً الخ »

فان القاري يرتاب على الأقل في صحة هذه الجملة « اني انبئت أنك

تزعّم أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الناس » فان كلمة صلى الله عليه وسلم لا تقال لمن « يزعم » أنه رسول . وعبارة « فأبشئ بحقيقة قولك وبدو شأنك » عبارة مولدة ، ولا ريب في ذلك . وما أظن النبي يقول « ان لهذا الحديث الذي سأنتنى عنه نبأ عظيماً ، ومجلساً كريماً » فان هذا أيضاً من تعابير المولدين ، ولكل عصر أسلوب

أكتفي بهذا في نقد هذه الاقصوصة ، وأترك للمشتغلين بعلم الحديث تقديمها الى محكمة التعديل والتجريح ، وأكل الى استاذنا الدكتور طه حسين تأريخ هذا النوع من البيان ، وأنتقل الى ما ذكره من المعجائب عند ميلاد الرسول ، كاصداع ايوان كسرى ، وخمود نار الفرس ، وفضوب بحيرة ساوة ، وما الى ذلك من خوارق العادات ، قال البوصيري في البردة

أبان مولده عن طيب عنصره	يا حسن مبتدأ منه ومختتم
يوم تفرس فيه الفرس انهمو	قد أنذروا بحلول البؤس والنقم
وبات ايوان كسرى وهو منصدع	كشمل اصحاب كسرى غير ملتئم
والنار خامدة الانفاس من أسف	عليه والنهر ساهي العين من سدم
وساء ساوة ان غاضت بحيرتها	وردّها بالغيظ حين ظمى
كأن بالنار ما بالماء من بلل	حزناً وبالماء ما بالنار من ضر
والجن تهتف والأنوار ساطعة	والحق يظهر من معنى ومن كلم
عمّوا وصموا فاعلان البشائر لم	تسمع وبارقة الانذار لم تشم
من بعد ما أخبر الاقوام كاهنهم	بأن دينهم المعوج لم يقم
وبعد ما عاينوا في الافق من شهب	منقضة وفق ما في الارض من صنم
حتى غدا عن طريق الحق منهزم	من الشياطين يقفو اثر منهزم

وقال في الهمزية :

وتداعي ابوان كسرى ولولا
آية منك ما تداعي البناء
وغدا كل بيت نار وفيه
كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا
ن لنيرانهم بها إطفاء
ويقول شوقي في نهج البردة
وخل كسرى واوانا يدل به
وهوى على أثر النيران والأيم
ويقول في الهمزية

ذعرت عروش الظالمين فزلزلت
وعلت على تيجانهم أصدا
والنار خاوية الجوانب حولهم
خمدت ذوائبها وغاض الماء
والآى ترى والخوارق جمّة
جبريل رواح بها غداء
وبرى القارى أن البوصيري أكثر من شوقي إشادة بتلك الخوارق،
وشعره فيها يفيض بالحياة ، أما شوقي فقد آثر الحيلة وهو يتكلم عن
هذه الموضوعات ، فكان شعره فيها أضعف من شعره في سائر أغراض
القصيدة ، وسنرى تحليله لفريضة الجهاد في الكلمة الآتية .

ويمكن بعد هذا ان نحكم بأن شعر البوصيري أروع من شعر شوقي
في وصف الخوارق والمعجزات ، وأن شوقي أبعد نظراً من البوصيري في
تقد الاخبار والآثار ، فان انصداع الايوان ، وخمود نار الفرس ، ونضوب
بحيرة ساوة ، وانقضاء الشهب على الاصنام : كل هذه الحوادث فيها
نظر ، وكلها في حاجة الى تمحيص ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

البحث الرابع والعشرون

— وصف القرآن —

لم يمن البارودي بوصف القرآن كما عني به البوصيري وشوقي ، أما البوصيري فقد قال :

دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلاً على علم
فالدر يزداد حسناً وهو منتظم وليس ينقص قدراً غير منتظم
فما تطاول آمال المديح الى مافيه من كرم الاخلاق والشم
وأول هذه الايات فيه شيء من السذاجة . وعبارة « دعني ووصفي آيات له ظهرت » عبارة عامية . وقوله

فالدر يزداد حسناً وهو منتظم وليس ينقص قدراً غير منتظم
غير واضح المدلول ، لان الدر الذي يتحدث عنه لا يصح ان يكون صفة القرآن ، لانه لا يهم بنظم القرآن ، ولا يصح ان يكون صفة لتقريظ القرآن ، اذ لم تسبق ذلك اشارة ولم يتقدمه دليل ، فلم يبق إلا أن تكون هذه خطرة عرضت للشاعر وعز عليه أن تضيع ، فقيدها في ذلك البيت وهو في ذاته بيت جميل ... أما قوله

فما تطاول آمال المديح الى مافيه من كرم الاخلاق والشم
فهو بيت يمدح به شخص ، ولا يقرظ به كتاب ، وقد كان الشاعر يرمي الى وصف القرآن بأنه دعوة الى محاسن الشم ومكارم الاخلاق ، وليكنه لم يوفق الى حسن الاداء ... وقوله بعد ذلك

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم
لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
فيه اشارة الى ما اختلف فيه المتكلمون عن قدم القرآن وحدوثه ،
وهي اشارة مبهمه لا تغنى في دفع ولا تأييد ، والبيت الثاني غير جيد
المعنى ، لان أخبار القرآن عن عاد وعن إرم ، ليس حجة الا عند المسلمين ،
أما جمهور العالم فلا يصدق من أخبار اليهود الاولى غير ما تشهد به
الآثار ، بعد أمن اللبس والتزوير ... أما قوله

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين اذ جاءت ولم تدم
فهو بيت القصيد ، اذ كان القرآن هو المعجزة الباقية ، وكان هو
المرجع حين يجادلون ، وهو أيضاً المعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل
ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ، أما نبع الماء من
بين يدي الرسول ، وتظليل الغمام اياه ، وسجود الاشجار له ، وما الى
ذلك من المعجزات ، فهي مسائل يحتاج عرضها الى مخاطرة ، وهي مخشية
الضرر ، قبل أن تكون مرجوة النفع ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون
وقوله :

ما حوربت قط الا عاد من حرب

أعدى الاعدى اليها ملقى السلم

ردت بلاغتها دعوى معارضها

رد الغيور يد الجاني عن الحرم

كلمة صدق ، ويكفي ان تقرأ القرآن بحميدة ونزاهة لتلمس هذه
الحقيقة ، فالقرآن كتاب خطر رهيب ، يحمل عدوه على الايمان به ،

والخشوع لديه ، ولو صحت - لاصحت - أراجيف الملحين من أن
القرآن من إنشاء محمد بن عبد الله لكان محمد هذا أعظم رجل شهد هذا
الوجود « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا
لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحسد
بآياتنا الا الظالمون » وما أصدق قول البوصيري في آيات الكتاب العزيز
لها معان كموج البحر في مَدَدٍ وفوق جوهره في الحسن والقيم
فما تُعَدُّ ولا تُحصى عجائبها ولا تُسام على الإكثار بالسام
قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى أطفأت نار لظى من وردها الشبه
لا تعجبن لحسود راح ينكرها تجاهلاً وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم
وهذا البيت الأخير من فرائد الأمثال ، وهو غاية في تفریع
المكابرین . . . أما شوقي فقد قال :

جاء النبیون بالآیات فانصرفت وجئتنا بحکیم غیر منصرم
آياته كلما طال المدى جُدُّ زینهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم
وهذا الوصف على إيجازه جميل ، وكنت أود أن لا يكتفي شوقي
في وصف القرآن بهذه الأبيات . . . وقد انتقل الى الإشادة بحديث
النبي فقال :

يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليته من عطل جيد البيان به في كل منتشر في حسن منتظم

بكل قول كريم أنت قائله
تحي القلوب وتحى ميت الهمم
وقول شوق

آياته كلما طال المدى جدده
يزينهن جلال العتق والقدم
أروع من قول البوصيري

فما تعد ولا تحصى عجائبها
ولا تسام على الاكثار بالسام
وقول البوصيري

ان تتلها خيفة من حر نار لظى
أطفأت حر لظى من وردها الشم
فيه ضعف ، لأنه ينقل القرآن من الغرض الذي أنزل لأجله ، وهو
تهذيب النفوس ، وثقيف العقول ، الى غرض ضئيل ، هو اتخاذه ورداً
من أوراد الصباح أو المساء ، كما فعل المتأخرون ؛ وقوله

حليت من عطل جيد البيان به
في كل مقتضى حسن منتظم
غير جيد المعنى ، وهو لا يزيد عن قول بعض الناس « أما القرآن فهو
زينة البيان ، وقلائد العقيان » وعيب هذا النوع من الوصف يرجع الى
ما فيه من الشمول ، وجودة الوصف لا تتم الا بتحديد الموصوف
« وصف الهيجا »

عنى العرب كثيراً بوصف الحرب ، فأفاض شعراؤهم في الاشادة
بذكر الغزاة ، والتمدح بآثار المجاهدين . وهذا كتاب الحماسة شاهد عدل
على تلك النزعة الحربية التي سيطرت على نفوس العرب زمناً غير قليل ،
فقد اختار أبو تمام قطعاً قليلة في الحديث عن أدب النفس ومكارم الاخلاق ،
وفعل مثل ذلك في الفكاهات والملح والنسيب ، ثم ملأ كتابه بالحماسة
والهجا ، والمدح ؛ وهي الفنون التي تترجم النفس العربية ، وتكشف عما

فيها من مطوى النوازع ، ومكنون الميول ، وكذلك مهدت السبيل
لشعرائنا الذين أرادوا التنويه بما خاض النبي من المعارك ، وما اقتحم من
الحروب ، وان اختلفت متاحيهم في وصف الهيجا.

أما البوصيري فقد تحدث عن الحرب بطريقة بجملة ولم يميز بعض
الغزوات عن بعض وهو يتكلم عن أخبار القتال ، فوصفه للحرب
وصف فضفاض يصاح لبوساً لكل موصوف . وانظر كيف يقول

راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة أجفلت غفلاً من الغم
ما زال يلقاهم في كل معترك حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم
ودوا الفرار فكادوا يغبطون به أشلاء شالت مع العقبان والرخم
تمضي الليالي ولا يدرون عدتها ما لم تكن من ليالي الأشهر الحرم
كأنما الدين ضيف حل ساحتهم بكل قرم الى لحم العدا قرم
يجر بحر خميس فوق سابحة يرى بموج من الابطال ملتطم
من كل منتدب لله محتسب يسطو بمستأصل للكفر مصطم
حتى غدت ملة الاسلام وهي بهم من بعد غربتها موصولة الرحم
وانه ليحسن ان نسجل اعجابنا بقوله في وصف المجاهدين من

اصحاب الرسول

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ماذا رأى منهم في كل مصطدم
وسل حنيناً وسل بدرأ وسل أهدأ فصول حتف لهم ادهى من الوخم
المصدري البيض حمرأ بعد ماوردت من العدا كل مسود من اللمم
والكاتبين بسر الخط ما تركت أقلامهم حرف جسم غير منجم
شاكي السلاح لهم سيما تميزهم والورد يمتاز بالميما من السلم

تهدي اليك رياح النصر نشرهمو فتحسب الزهر في الأكام كل كمي
وقد يستضعف قوله

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربي من شدة الحزم لا من شدة الحزم
طارت قلوب العدا من بأسهم فرقا فما تفرق بين البهم والبهم
أما البارودي - جعل الله له اسان صدق في الآخرين - فقد وصف
الحرب وصفا حيا صارخا يبعث ميت العزم ، ويشير مدفون الصيال ،
وما ظنك بجندى سفاح نشأ في أرض الفراعنة الذين هموا ببناء الصروح
الشوامخ ليلغوا أسباب السموات ، وليجاربوا المقتدر القهار ، وانه لضلal
أجل من الهدى ، وغى أهدى من الرشاد :

ولننظر كيف يقول

قام النبي لنصر الحق معترما بجحفل لمجوع الشرك محترم
تبدو به البيض والقسطال منتشر كالشهب في الليل أو كالنار في الفحم
لمع السيوف وتصال الخيول به كالبرق والرعد في مقدودق هزم
عزيم ينسف الأرض الفضاء اذا سرى بها ويدك الهضب من خيم
فيه الحكمة التي ذلت لغزتها معاطيس لم تذلل قبل بالخطم
من كل معترم بالصبر محترم للقرن ملتزم في البأس مهترم
طالت بهم هم نالوا السماك بها عن قدرة وعلو النفس بالهمم
بيض أساورة غلبت قساورة شكس لدى الحرب مطعمون في الأزم
طابت نفوسهم بالموت اذ علموا ان الحياة التي يبغون في العدم
ساسوا الجياد فظلت في أعنتها طوع البنانة في كرم ومقتحم
تكاد تفقه لحن القول من أدب وتسبق الوحي والاياء من فهم

كأن أذناها في السكر ألية
 من كل منجرد يهوى بصاحبه
 والبيض ترجف في الأغماد من ظمأ
 من كل مطرد لولا علائفه
 كأنه أرقم في رأسه حمة
 فلم يزل سائراً حتى أناف على
 ولفهم بخميس لو يشد على
 فأقبلوا يسألون الصفح حين رأوا
 ريعوا فذلوا، ولو طاشوا لو قرعهم
 وهذه صورة شعرية قليلة الامثال، وإنك لتعجب حين ترى
 البارودي يفتن في تصوير الحرب وهو يتحدث عن الغزوات غزوة
 غزوة، وانظر كيف يقول مثلاً في يوم بدر

يوم تبسم فيه الدين وانهملت
 أبلى علي به خير البلاء بما
 وجال حمزة بالصمصام يكسوهم
 وغادر الصحب والانصار جمعهم
 تقسمتهم يد الهيجاء عادلة
 كأنما البيض بالأيدي صواجلة
 لم يبق منهم كمي غير منجدل
 فما مضت ساعة والحرب مسفرة
 قد أمطرتهم سماء الحرب صائبة
 على الضلال عيون الشرك بالسجّم
 حباه ذو العرش من بأس ومن هم
 كسا يفرق منهم كل مزدحم
 وليس فيه كمي غير منهزم
 فاهام للبيض والأبدان للرخم
 يلعبن في ساحة الهيجاء بالقم
 على الرغام وعضو غير منحطم
 حتى غدا جمعهم نهياً لمقتسم
 بالمشرفية والمرأت كالرجم

فأين ما كان من زهو ومن صلف
جاءوا ولا شر وسَم في معاطسهم
وأين ما كان من نخر ومن شم
فأرغموا والردى في هذه السيم
ومن تعرض الأخطار لم ينم
أما شوقي فقد وصف النبي في الحرب وصفاً رقيقاً لا يلائم ما تقضي

به الحرب من غلبة الغضب وشمول العُيُوس ، ولننظر كيف يقول

البدر دونك في حسن وفي شرف
شُمُ الجبال اذا طاولتها انخفضت
والليث دونك بأساً عند وثبته
تهفو اليك وان أدमित حبته
محبة الله ألقاها وهييته
كأن وجهك تحت النقع بدر دجى
بدر تطلع في بدر فغرتة

وهذا شعر جميل ، لكنه أرق من أن يوصف به ذوو البأس وهم

يقارعون الهول في ميدان الجِلَاد . وبمعجني قوله في وصف الغزاة

مهما دعيت الى الهيجا قت لها
على لوائك منهم كل منتقم
ترمى بأسد ويرى الله بالرجم
لله مستقتل في الله معترم
شوقاً على سابع كابرق مضطرم
لو صادف الدهر يبغي نقلة فرمى
بيض مفاليل من فعل الحروب بهم
كم في التراب اذا فتشت عن رجل
لولا مواهب في بعض الأنام لما
بغزمه في رجال الدهر لم يرم
من أسيف الله لا الهندية الخزم
من مات بالعهد أو من مات بالقسم
تفاوت الناس في الأقدار والقيم

(حكمة الجهاد)

لم يفصح البوصيري عن السر في مشروعية القتال ، وأشار إليها البارودي إشارة خفيفة حين قال :

ذاقوا الردى جرعا فاستسلموا جزعا للصالح والحرب مرقاة الى السلم.

أما شوقي فقد أبان عن حكمة الجهاد ، وأفصح عنها إفصاحاً يرضي المنصف ويكبح جهل المعاند الكنود ، ولننظر كيف يقول

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا السفك دم

جهل وتضليل احلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كل ذي حسب تكفل السيف بالجهال والعَمَم

والشر ان تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وان تلقه بالشر ينحسم

وقد رأى لتأييد حجته أن يضرب المثل بالمسيحية ، فقد كانت دين

سلام واخاء ، ولكنها لم تقم إلا بالسيف ، وفي هذا يقول

سلّ المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغليم

طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها في كل حين قتالاً ساطع الحدم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

ثم عاد الى تأكيد فضيلة الجهاد فقال

عانتهم كل شيء يجهلون به حتى القتال وما فيه من الذم

لولا له لم تر للدولات في زمن ما طال من عمد أوقر من دعم

تلك الشواهد ترى كل آونة في الاعصر الغر لا في الاعصر الدهم

بالامس مالت عروش واعتلت سرر لولا القذائف لم تثلم ولم تصم

— المدنية الإسلامية —

وقد انفرد شوقي بالافصاح عن جلال المدنية الإسلامية ، وتقديعها
على مدنية المصريين واليونان والرومان ، وفي ذلك يقول

دع عنك روما وآتيننا وما حوتا كل اليواقيت في بغداد والتورم
وخل كسرى وإيوانا يدل به هوي على أثر النيران والأيم
واترك رعمسيس ان الملك مظهره في نهضة العدل لافي نهضة الهرم
دار الشرائع روما كلها ذكرت دار السلام لها ألفت يد السلم
ماضارعها بياناً عند ملتأم ولا حكنها قضاء عند مختصم
ولا احتوت في طراز من قياصرها على رشيد ومأمون ومعتصم
من الذين اذا سارت كتائبهم تصرّفوا بحدود الارض والتخيم
ويجاسون الى علم ومعرفة فلا يدّانون في عقل ولا فهم
يطاطي، العلماء الهام ان نبسوا من هيبة العلم لامن هيبة الحكم
وقد مضى الشاعر في وصف خلفاء الاسلام ، وما كان لهم من الأثر

في حياة الدين ، ولا يعجبني من ذلك كله غير قوله

واترك رعمسيس ان الملك مظهره في نهضة العدل لافي نهضة الهرم
فانه من فرائد الامثال ... ولنسجل بعد هذه الموازنة المفصلة ان
البوصيري سما في المدائح النبوية سمواً لم يوفق الى معشاره في سائر شعره
وهذا أثر لصدق العاطفة ، بخلاف صاحبيه فان شعرهما في هذا الباب
دون ما يعرف الناس لهما من الشعر البليغ ، وصدق شوقي حين قال

المادحون وأرباب الهوى تبّع لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب على صادق الكلام

البحث الخامس والعشرون

أبو نواس وابن دراج

ولنوازن بين قصيدتين لشاعرين كان أحدهما شاعر زمانه في المشرق وهو أبو نواس، وكان ثانيهما شاعر زمانه في المغرب وهو ابن دراج :
« سابق حلبة الشعراء العامرين ، وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين »
كما قال أبو حيان

وكان الواجب أن نذكر شيئاً عن أبي نواس وعصره ، ولكننا رأينا أن نحيل القارئ الى ما كتبه في ذلك أستاذنا الدكتور طه حسين في حديث الاربعاء ، ونكتفي بما ذكره جامع الديوان من أن أبا نواس لما قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه ، فلما فرغوا قال الخصيب : ألا تنشدنا أبا علي ؟ فقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يافكون : قال : هات اذاً . فانشده رائيته المشهورة

اجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسير
فاهتز لها الخصيب ، وأمر له بجائزة سنوية . وقد طار ذكر هذه القصيدة في جميع الامصار ، ، وعارضها كثير من الشعراء ، منهم احمد بن دراج القسطلي الاندلسي — وسنبسط عنه القول — ومنهم حسان بن نمير المعروف بعرقلة الدمشقي ، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدين بن يوسف بن أيوب وقصده بها الى مصر كما فعل أبو

نواس حين توجه بقصيدته الى الخصب وفيها يقول

عسى من ديار الظاعنين بشيرٌ ومن جَوْر أيام الفراق مُجِيرٌ
لقد عيل صبري بعدهم وتكاثر همومي ولسكن الحب صبور
وكم بين أكناف الثغور متمٌ كئيب غزته أعينٌ وثغور
وكم ليلة بالماطرون قطعها ويوم الى الميسطور وهو مطير
سقى الله من سطرًا ومقرا منازلًا بها للندامي نظرة وسرور
ولا زال ظل النيرين فانه طويلٌ ويوم المرء فيه قصير
ويا بردي لا زال ماؤك باردًا وماء الحيا من ساجتيك نير
أني العيش إلا بين أكناف جلق وقد لاح فيها أشمسٌ وبدور
وكم بحمي جيرون سرب جاذر حباثلهن المال وهو ثغور
ولكن سأحويه إذا سرت قاصدًا الى بلد فيه الصلاح أمير

وعارضها محمود سامي البارودي بقصيدة جيدة مختار منها قوله

ألا فرعى الله الصبا ما أبره وحيًا شبابًا مرٌ وهو نضيرٌ
اذ العيش أفوافٌ ترف ظلاله علينا وسلسال الوفاء نير
واذ نحن فيما بين إخوان لذة على شيم ما إن بهن نكير
تدار علينا الكأس بين ملاعب بها اللهو خدن والشباب سيمير
فألحظنا بين النفوس رسائل وريحاننا بين الكؤوس سفير
عقدنا جناحنا ليلنا بنهارنا وطرنا مع اللذات حيث تطير
وقلنا لسانينا أدرها فأنما بقاء الفتى بعد الشباب يسير
فطاف بها شمسية هبية لها عند الباب الرجال ثور
إذا ما شربناها أقمنا مكاننا وظلت بنا الأرض الفضا تدور

وبعجبنا منها قوله في وصف الحماثم الساجعة

وكم ليلة أفنيت عمر ظلامها
شغلت بها قلبي وامتعت ناظري
صنعت بها صنّيع الكريم بأهله
فما راعنا الا حفيف حماثم
تجاوب أتراباً لها في خماثل
نواعيم لا يعرفن بؤس معيشة
توسد هامات لمن وسائداً
كأن على أعطافها من حبيكها
خوارج من أيلك دواخل غيره
إذا غازلتها الشمس رقت كأنما
فلما رأيت الصبح قد رف جیده
خرجت أجر الذيل تيهك وانما
ومن الوفاء أن تنوء بهذه القطعة الجزلة التي وصف بها نفسه وهو يقول :

ولي شيمة تأبى الدنيا وعزيمة
إذا سرت فالارض التي نحن فوقها
فلا عجب ان لم يصبرني منزل
همامة نفس ليس ينفي ركاها
معوّدة أن لا تكف عناها
لها من وراء الغيب أذن سمعية
ترد أسام الجيش وهو يمور
مراد لمهري والمعاقل دور
فليس اعقبان الهواء وكور
رواح على طول المدى وبكور
عن الجد إلا أن تتم أمور
وعين ترى ما لا يراه بصير

وفيت بما ضنَّ السكرام فراسة بأمرى ومثلى بالوفاء جدير
وأصبحت محسود الجلال كأننى على كل نفس فى الزمان أمير
إذا صلت كف الدهر من غلوائه وإن قلت غصت بالقلوب صدور
وفى هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبى نواس من
تقدير الشعراء ، فلنضمها فى الميزان لنعرف بالتحديد ما فيها من مواطن
الحسن ومطازن الابتدال

« أغراض القصيدة »

الغرض الاول لهذه القصيدة هو مدح الخصيب ، وقد استتبع هذا
عند الشاعر ان يتحدث قليلا عن نفرة جارتة منه ، وانصرافها عنه ، وأن
يذكر ما دار بينه وبين زوجه من الحوار حين همَّ بالرحيل ، وأن يصف
كيف سار الشعراء الى مصر وكيف نسوا من أجل واليها جنات الشام
ورياض العراق ، وقد فرق مدحه للخصيب بين أجزاء القصيدة ، فتكلم
عن سؤدده وجوده وبصره بالعواقب وتنكيله بالمفسدين ، ثم عاد فتكلم
عن هيئته وما أعد للسلم والحرب ، وماله من طيب العنصر وكرم
الاخلاق ، ثم اختتم القصيدة بهذين البيتين

وإني جدير إذ بلغتك بالمنى وأنت بما أملت فيك جدير
فإن تولني منك الجميل فأهله والا فاني عاذرٌ وشكور
ولنأخذ في نقد القصيدة وتحليلها ، فنذكر أولاً أنه حاور جارتة بقوله
أجارة بيتينا أبوك غيورٌ وميسور ما يرجى لديك عسير
وإن كنت لا خماً ولا أنت زوجة فلا برحت دوني عليك ستور
وليس فى صدر البيت الاول أثر لحسن الأداء ، وعبارة « أجارة

يبتينا « ثقيلة على السمع ، وهي كذلك غير واضحة المدلول ، أو هي تحتاج على الأقل الى ان نذكر ان الشاعر قد يريد يبيتي جارته بيت السكن وبيت النسب ، وقد يريد غير ذلك ، ولقد أذكر — من باب الفكاهة — اني كنت اناقش الاستاذ محمد الهياوي مرة في قيمة المنفلوطي وفهمه للادب فقال : كيف وقد مات ولم يفهم قول أبي نواس « أجارة يبتينا ابوك غيور » لقد كان يكسر التاء من « يبتينا » ظناً منه أن هذا اسم مكان !!
وانك لتكاد تلمس التناقض حين تقرن البيت الاول بقوله

وان كنت لا خلاً ولا أنت زوجةٌ فلا برحت دوني عليك ستورٌ
فهو أولاً يشكو عسر ما يرجو من هذه الجارة ، وذلك يوجب ان تكون مرجع هواء ، ثم يصرح بانها ليست زوجة ولا صديقة ، فيضطرك الى أن تسأله : وإلام تقصد حين تقول « فلا برحت دوني عليك ستور » ثم يغاب عليه ضيق الصدر ، وقلق النفس ، فيقول

وجاورت قومًا لا تراورَ بينهم ولا وصل إلا ان يكون نشورٌ
فأنا بالمشغوف ضربة لازبٍ ولا كل سلطان عليّ قدير
وهو بهذا يتململ من أسر فتاده وحبس أمانيه ، في تلك البقعة التي لم يقر لقلبه فيها قرار ، ولم تنعم عينه فيها بغير لألاء النجوم ، حين تأنس العيون بالعيون ، وتسكن القلوب الى القلوب . . ثم أخذ يحدثنا عن علمه بحركات الأهواء ، وخطرات النفوس ، فقال

وإني لطرف العين بالعين زاجرٌ فقد كدت لا يخفى عليّ ضمير
والزجر هنا ليس معناه الردع ، وإنما هو من زجر الطير ، وأصله أن يرمى الرجل الطائر بحصاة أو يصيح به ، فان ولاده في طيرانه ميامنة

تفاعل به ، وان ولآه مياسره تطاير منه ، ويريد أنه يقرأ ما في الصدر
بملاحظة العين ، وهذا البيت تأكيد لما قرره قبل من عنف جاراته به ،
وقسوتها عليه ، وان لم تصرح بالقطيعة ، ولم تعلن الصدود . . . ولم يقف
أبو نواس عند هذا الحد في وصف نفسه بصدق الفراسة ، بل شبه نظريته
بنظرة العقاب في سكون الريح وقد طوت القوت ليلتين عن فرخها
الأزغب فقال :

كما نظرت والريح ساكنة لها عقابُ بأرماغ اليدين ندورُ
طوت ليلتين القوت عن ذي ضرورة أزيغب لم ينبت عليه شكيرُ
فأوفت على علياء حين بدا لها من الشمس قرن والضرب يمورُ
تقلبُ طرفاً في حجاجي مغارة من الرأس لم يدخل عليه سرور

وهذه اللفتة من أبي نواس فيها خروج على فطرته ، اذ هي تقليد
صريح لاسلوب الأعراب ، ويظهر أن أبا نواس كان يعني في المواقف
الرسمية بمراعاة الأساليب القديمة ، ابتغاء مرضاة الرواة واللغويين ، كما
كان ينقاد لفطرته كل الاتقياد ، وهو يتحدث عن الصهباء ، ويشيد بذكر
الندامى والسقاة والمغنين ، من كل رخم الصوت ، أو أصبح الوجه ، أو
عذب الحديث ، وهو الذي يقول

قد أسحب الزق ياباني وأكرهه حتى له في أديم الأرض أخدود
لا أرحل الراح إلا أن يكون لها حاد بمنتهل الأشعار غريد
فاستنطق العود قد طال السكوت به

لن ينطق اللهو حتى ينطق العود

ولنذكر بعد هذا أن أبا نواس انتقل من الحديث عن نفرة جارتة
وصدق فراسته ، الى الحديث عن حوار زوجه فقال :

تقول التي من يدها خف مركبي عزيزي علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجبتها بوادرم جرت فجري من جريهن عير
ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصب أمير
وهذه القطعة من الشعر المختار ، ويرجع جمالها الى ما فيها من وضوح
الفكرة وسلاسة التعبير ، وانظر الصدق في قوله

أما دون مصر للغنى متطلب بلى إن أسباب الغنى لكثير
ولكن الشعراء في ذلك العهد لم يطب لهم من أسباب الغنى غير
مدح الملوك والأمرء ، وكان هذا باباً لحصر العبقرية في ناحية واحدة
هي خلق المحامد ، والمناقب ، لكل من جن له الدهر فظفر بأثارة من الملك
أو زاد بسطة في المال . وقوله

ذريني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصب أمير
من الايات المختارة ، والتعبير عن وفرة المال بكثرة الحساد من
الكنايات المستملحة ، وقد قال له الخصب حين انشد هذا البيت : اذا
يكثر حسادها ، وتبلغ أملها ، وأمر له بألف دينار ، ثم قال في مدح الخصب
اذالم تزر أرض الخصب ركابنا فأني فتى بعد الخصب تزور
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير
وليس لهذين البيتين قيمة أدبية ، ومن السهل أن يزعم الشاعر أن
ممدوحه خير الناس على الإطلاق ، وأن الجود لا يجوز ولا يحل دونه ،

وانما يصير حيث يصير ، الى ما هنالك من وثبات الخبال ، وقد نال منه
الضعف والاسفاف حين قال

فلم تر عيني سوّداً مثل سوّد
يحل أبو نصر به ويسير
ولكنه وفق كل التوفيق حين قال

فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم ان الدائرات تدور
فانه يصف الخصيب بالسعي لنيل السمعة الحسنة والصيت البعيد،
ويصفه مع هذا بضبط النفس ، والحذر من عاديات النوائب ، وجائزات
الخطوب ، ولا تطيب الدنيا للملك أو أمير إلا اذا خطا في حكمه وملكه
خطوات الحذر الهيب ، الذي يتوقع في كل لحظة ان يتنكر له الدهر ،
وان تثور من حوله الاقدار... ثم أخذ يصف بطشه بالفسدين ، وتنكيله
بالعاشين بأمن الناس فقال

وأطرق حياتُ البسلاد حلية خصيية التصميم حين تسور
سموت لأهل الجور في حال أمنهم فأضحوا وكل في الوثاق أسير
إذا قام غنته على الساق حلية لها خطوه عند القيام قصير
وفي هذه الايات اشارة الى ان مصر في ذلك العهد كانت تقاسي
شيئاً من الاضطراب ، وكانت لذلك طعمةً لاستبداد الحكام وسخرية
الشعراء ، وأي سخر آلم للنفس ، وأوجع للقلب ، من قول أبي نواس
في أحد فتيان مصر وهو يرسف في الصفاد

إذا قام غنته على الساق حلية لها خطوه عند القيام قصير
وقد أحسن أبو نواس في وصف الخصيب بنصح الجيب حين قال
فمن يك أمسى جاهلاً بمقاتي فان أمير المؤمنين خبير

وما زلت توليه النصيحة يافعا الى أن بدا في العارضين قتيـ
 اذا غاله أمر فاما كفيته وإما عليه بالكفاء تشير
 وهذا من أجل ما يوصف به الرجل المخلص للحق حين يظفر بأسرار
 الملوك ، وفي هذه القصيدة قطعة آخرها الشاعر وكانت أولى بالتقديم ،
 وهي وصف رحلة الشعراء الى الخصيب ، ونحن نسرد هذه القطعة تنميا
 للموضوع ، ونصرح بانها رديئة في العبارة وفي السياق ، قال :

رحلن بنا من عقر قوف وقد بدا من الصبح مفتوق الاديم شهير
 فما نجدت بالماء حتى رأيتها مع الشمس في عيني أباغ تغور
 وغمرن من ماء النقيب بشربة وقد حان من ديك الصباح زمير
 ووافين اشراقا كئناس تدمر وهن الى رعن المدخن صور
 يؤمن أهل الغوطتين كأنما لها عند اهل الغوطتين ثور
 وقاسين ليلا دون ييسان لم يكد سنا صبحه للناظرين ينير
 واصبحن بالجولان برضخن صخرها ولم يبق من اجراحهن شطور
 واصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
 طوالب بالركبان غزة هاشم وفي الفرما من حاجر شقور
 واستأنف مدح الخصيب فقال

ولما أنت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزال مجير
 من القوم بسام كأن جبينه سنا الفجر يسرى ضوءه ويير
 زها بالخصيب السيف والرحم في الوغى وفي السلم يزهو منبر وسرير
 جواد إذا الايدي كففن عن الندى ومن دون عورات النساء غيور
 له سلف في الأعجمين كأنهم اذا استؤذنوا يوم السلام بدور

وسنمود الى تحليل هذه القطعة الاخيرة حين نوازن بينها وبين
ما يماثلها في قصيدة ابن دراج

البحث السادس والعشرون

نفحة من الادب الاندلسي

نقدنا في البحث الماضي قصيدة أبي نواس في مدح الخصب، ورأينا
مبلغه من الصدق حين ظنّها كعصا موسى تلقف ما يأفكون، ولم يبق
الا ان نوازن بينها وبين قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره بمعارضة
أبي نواس، ولكننا رأينا ان نقف وقفة قصيرة عند رغبة المنصور بن
أبي عامر في أن يظهر شاعره على شاعر الرشيد، فقد كانت هناك منافسة
شديدة بين رجال المشرق ورجال المغرب في الادب والفلسفة والتشريع،
وكان لاهل الاندلس كلف شديد بالظهور على أهل الشرق، وكان لابن
دراج هذا ولع عجيب بسبق من نبغ من الشعراء في مصر والشام والعراق،
وسنرى كيف بذأبا نواس وبرعه حين نضع قصيدته في الميزان، وكان
من أثر ذلك التنافس أن عقدت المفاضلات بين الكتاب والشعراء والمؤلفين:
فازداد قادة الفكر قوة الى قوة ونشاطاً الى نشاط، وتقدم النقد تقدماً
ظهرت ثمرته في ما كان يعني به العرب اذ ذاك من العلوم والفنون

وهذه رساله أبي الوليد الشقندي - التي وضعها في تفضيل بر الاندلس
على بر المدوة، والتي اثبتها المقرئ طيب الله ثراه في نفح الطيب - تدل
على رغبة الاندلسيين في الظهور على من عداهم من العالمين، واني لذا كر

ما جاء فيها عن الشعر والشعراء، لأضع يد القارىء على اثره في جملة ثمرة لما كان من التنافس بين قرطبة وبغداد، ولأنشر له صفحة من صحف النقد والمفاضلة تتمثل فيها عبقرية العرب في ذلك الفردوس المفقود. (١)
قال الشقندي بعد كلام طويل :

وهل لكم في الشعر ملك مثل المعتمد بن عباد في قوله
وليل يسد النهر أنساً قطمته
بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منم
فيا حسن بما انشق الكمام عن الزهر
وقوله في أبيه

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً
له يد كل جبار يقبلها
وبعد ذلك يلقي وهو يعتذر
لولا نداها لقلنا انها الحجر
ومثل ابنه الرضى في قوله

مرؤا بنا أصلاً من غير ميعاد
لاغروا ن زاد في وجدي مروره
فاوقدوا نار قلبي أي إيقاد
فروية الماء تذكى غلة الصادي

(١) جاء في نفح الطيب ص ٧٧٨ مانصه « قال ابن سعيد اخبرني والدي قال : كنت يوماً في مجلس صاحب سبته أبي يحيى بن أبي زكريا صهر ناصر بني عبد المؤمن جري بين أبي الوليد الشقندي وبين أبي يحيى بن المعلم الطنجي نزاع في التفضيل بين البرين. فقال الشقندي لولا الأندلس لم يذكر بر العدو ولا سارت عنه فضيلة ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم . فقال الأمير أبو يحيى أريد أن تقول كون أهل برنا عرباً وأهل بركم بربر ، فقال : حاش لله ! فقال الأمير والله ما اردت غير هذا، فظهر في وجهه انه أراد ذلك ، فقال ابن المعلم : اتقول هذا وما الملك والفضل إلا من بر العدو ؟ فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل منكما رسالة في تفضيل بره ، فالكلام هنا يطول وبمر ضياعاً ، وأرجو اذا اخلياً له قدر كما يصدر منكما ما يحسن تخليده . ففعلاً »

وهل لكم ملك ألف في فنون الادب كتاباً في نحو مئة مجلدة مثل
المظفر بن الافطس ملك بطليوس ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن
همة الادب

وهل لكم من الوزراء مثل ابن عمار في قصيدته التي سارت أشرد
من مثل ، وأحب الى الاسماع من حبيب وصل ، التي منها
أثمرت ربحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يعشق مشمرا
وصبغت درعك من دماء كجاثم لما رأيت الحسن يلبس احمر
ومثل ابن زيدون في قصيدته التي لم يقل - مع طولها - أرق منها
في التشبيب ، وهي التي يقول فيها (١)

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قد غص من اجفان واشينا
سران في خاطر الظماء يكتمننا حتى يكاد اسان الصبح يفشينا
وهل لكم من الشعراء مثل ابن وهبون في بديته بين يدي المعتمد بن
عباد واصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي
اذا ظفرت منك العيون بنظرة أثاب بها معي المطي ورازمه
فارتجل :

لئن جاد شعر ابن الحسين فأنما تجيد العطايا والاله تفتح الاله
تنبأ عجباً بالقرىض ولو درى بانك تروي شعره لتأها
وهل لكم مثل شاعر الاندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي :
هو بالصقع الاندلسي كالمثني بصقع الشام ، الذي ان مدح الملوكة قال
مثل قوله :

(١) ارجع الى هذه القصيدة في كتاب « مدامع العشاق »

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى^(١) وان ييوت العاجزين قبور
 وأن خطيرات المهالك ضمن^٢ لراكبها ان الجزاء خطير
 تخوفني طول السفار وإنه بتقيل كف العامري جدير
 مجير الهدى والدين من كل ملحد وليس عليه للضلال مجير^(٢)

وان ذكر الغربة عن الاوطان ، ومكابدة نوائب الزمان ، قال :
 قالت وقد مزج الفراق مدامعاً بمدامع وثرائباً بثرائب
 أتفرق^٣ حتى بمنزل غربة كم نحن للأيام نهبة ناهب
 ولئن جنيت عليك رحمة راحل فانا الزعيم لها بفرحة آيب
 هل أبصرت عينك بدمراً طالماً في الافق الا من هلال غارب
 وان شبه قال :

لمعاقل من سوسن قد شيدت أيدي الربيع بناءها فوق القضب^٤
 شرفاتها من فضة وحماتها حول الامير لهم سيوف من ذهب

وهل من شعرائكم من تعرض لذكر العفة : فاستنبط ما يسحر به
 السحر ، ويطيب به الزهر . وهو أبو عمرو بن فرج في قوله
 وطائفة الوصال عففت عنها وما الشيطان فيها بالمطاع

(١) التوى . الهلاك

(٢) اختار الشقندي قطعة كبيرة من قصيدة ابن دراج ، ولكننا اكتفينا بذكر
 هذه الايات لاتنا سنعود الى القصيدة مرة ثانية . وقد قال الشقندي في التعقيب
 على ما اختاره :

« وانا اقسم بما حوته هذه الايات ، من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح
 سيد بني حمدان لسلابه عن مدح شاعره الذي ساد كل شاعر ، وراى ان هذه
 الطريقة اولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم ونائر »

بدت في الليل سافرةً فباتت دياجي الليل سافرة القيناع
 وما من لحظة إلا وفيها الى فن القلوب لها دواعي
 فأتكت النهي حجاب شوق لأجرى بالعفاف على طباعي
 وبت بها مبيت السقب يظا فيمنعه العكام من الرضاع^(٣)
 كذاك الروض ما فيه لمثل سوى نظر وشم من متاع
 ولست من السوائم مهملات فأخذ الرياض من المراعي
 وهل بلغ أحد من مشبهي شعرائكم أن يقول مثل قول أبي
 جعفر اللامي

عارضه أقبل في جنح الدجى يتهادى كتهادي ذي الوجى
 بددت ريح الصبا لؤلؤه فانبرى يوقد عنه سرجا
 ومثل قول أبي حفص بن برد
 وكأن الليل حين لوى ذاهبا والصبح قد لاحا
 كلة سوداء أحرقتها عامد أسرج مصباحا
 وهل منكم من وصف ما تحذره الحرة ، من الحرة على الوجنة ، بمثل
 قول الشريف الطليق

أصبحت شمسا وفوه مغربا ويد الساقى المحي مشرقا
 واذا ما غربت في فوه تركت في الخلد منه شققا
 بمثل هذا الشعر فليطلق اللسان ، ويفخر على كل انسان

وهل منكم من عمد الى قول امرئ القيس
 سموت اليها بعد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

فاختلسه اختلاص النسيم لنفحة الازهار ، واستلبه بلطف استلاب
الشمس لرضاب طلّ الأسحار ، فلفظه تلطيفاً يمتزج بالارواح ، ويغني
في الارتياح ، عن شرب الراح ، وهو ابن شهيد في قوله

ولما تملأ من سكره ونام ونامت عيون الحرّس
دنوت اليه على رقبة دنوّ رفيق درّى ما التمس
أدب اليه ديب الكرى وأسمو اليه سموّ النفس
أقبل منه بياض الطلى وأرشف منه سواد اللّمس
فبت به ليلتي ناعماً الى ان تبسم ثغر الغلس

وقد تناول هذا المعنى ابن أبي ربيعة على عظم قدره وتقدمه، فعارض
الصبيل بالنهاق ، وقابل العذب بالزقاق ، فقال ويا ليلته سكت

ونفضت عني العين اقبلت مشية الى حُباب وركني خيفة القوم أزورُ
وأنا أقسم لو زار جل محبوبه له لكان ألطف في الزيارة من هذا
الأزور الركن، المنفض للعيون ، لكنه إن أساء هنا فقد أحسن في قوله

قالت لقد أعيتنا حجةً فأت اذا ما هجع الساهر
واسقط علينا كسقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجرُ

ولله در محمد بن سفيان أحد شعرائنا المتأخرين عصرًا، المتقدمين قدرًا،

حيث تقل السعى الى محبوبته ، فقال — ويا ليلته لم يزل يقول مثل هذا
فبمثله ينبغي أن يتكلم ، ومثله يليق أن يدون :-

وواعدتها والشمس تجنح للنوى بزورها شمساً وبدر الدجى يسري
فجاءت كما يشي سنا الصبح في الدجى وطوراً كما مرّ النسيم على النهر
فمطّرت الآفاق حولي فأشعرت بمقدّمها والعرف يشعر بالزهر

فتابعت بالتقبيل آثار سعيها كما يتقصي قارىء أحرف السطر
فبت بها والليل قد نام والهوى تنبه بين الغصن والخف والبدر
أعانقها علوراً وأثم تارة الى أن دعتنا للنوى راية الفجر
ففضت عقوداً للتعانق بيننا فيا ليلة القدر اتركي ساعة النفر
وهل منكم من قيد بالاحسان فأطلق لسانه بالشكر فقال — وهو
ابن اللبابة —

بنفسي وأهلي جيرة ما استعنتهم على الدهر إلا واثنتي معانا
أراشوا جناحي ثم بلّوه بالندی فلم أستطع من أرضهم طيرانا
ومن يقول وقد قطع عنه ممدوحه ما كان يعتاده من الاحسان
فقابل ذلك بقطع مدحه له فبلغه أنه عتبه على ذلك وهو ابن وضاح :
هل كنت الا طائراً بفنائكم في دوح مجدكم أقوم وأقم
إن تسلبوني ريشكم وتقلصوا عني ظلالكم فكيف أغرد
وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالاقاح
وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الحدود بالشقائق ، فتلطف لذلك في أن
يأتي به في منزع يصير خلقه في الأسماع جديداً ، وكليله في الأفكار
حديداً ، فأعرب أحسن اغراب ، وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل
إعرب ، وهو ابن الرقاق اذ قال :

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى وحنها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه وآسه العنبري قد نفحا
قلنا وأين الاقاح قال لنا أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقى المدام يحجد ما قال فلما تبسم افتضحا

وقال :

أدبرها على الروض المندى وحكم الصبح في الظلماء ماضي
وكأس الراح تنظر عن حباب ينوب لنا عن الحدق المراض
وما غربت نجوم الافق لكن نقيل من السماء الى الرياض

وقال :

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الصباح
زرتها والغمام يجلد منها زهرات تروق لون الراح
قلت ما ذنبها ؟ فقال محبباً سرقت حمرة الحدود الملاح
فانظر كيف زاحم بهذا الاحتيال المخترعين ، وكيف سابق بهذا
اللفظ المبتدعين

وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه ، وما يتعلق بذلك ،
فاتتهى الى غايه السباق ، ونضح كل من طمع بعده في اللحاق ، وهو :
أبو اسحاق ابن خفاجة القائل

وعشي أنس أضجعتني نشوة فيها يمهّد مضجعي ويدمّت
خلعت عليّ بها الاراكه ظلها والغصن يصغى والجمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضةً والرعد يرثي والغمامة تنفث

والقائل

لله نهر سال في بطحاء أشهى وروداً من لعمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه مجرّ سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هذب تحف بمقلة زرقاء

ولطالما عاطيت فيه مدامة
والريح تعبت بالغصون وقد جرى
صفراء تخضب أيدي الندماء
ذهب الاصيل على لجين الماء
والقائل :

حث المدامة والنسيم عليل
والروض مهتز المعاطف نعمة
والظل خفاق الرواق ظليل
نشوان تعطفه الصبا فيميل
ريان فضضه الندى ثم انجلي
عنه فذهب صفحته اصيل
والقائل :

أذن الغمام بدية وعقار
واربع على حكم الربيع بأجرع
فامزج لجينا منهما بنضار
متقسم الاحاظ بين محاسن
هزج الندامى مفصح الاطيار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا
من ردف رابية وخصر قرار
وهفت بتغريد هنالك ايكة
درر الندى ودراهم الانوار
خفاقة بمهب ريح عرار
هزت له أعطافها ولربما
خلعت عليه ملاة الثوار
والقائل :

سقيها من بطاح خز
اذ لا ترى غير وجه شمس
ودوح نهر بها مطل
أطل فيه عذار طل
والقائل :

نهر كما سال الله سلسال
ومهب نفحة روضة مطلولة
وصبا بليل ذيلها ميكسال
غازتها والافحوانة مبسم
في جانبها للنسيم مجال
والآس صدغ والبنفسج خال
والقائل :

وساق كحيل اللحظ في شأ وحسنه
تري للصبيا نارا بخديه لم يثر
سقاها وقد لاح الهلال عشية
عقاراً نماها الكرم فهي كريمة
وقد جال من جون الغمامة أدم
وضمخ درع الشمس نحر حديقة
ونمت بأسرار الرياض خميلة

والقائل :

وأشقر تضرم منه الوغي
من جلتار ناضر لونه
تطلع للغرة في شقرة
وهل منكم من يقول منادماً لنديمه ، وقد باكر روضاً بمحبوب
وكأس ، فألفاه قد غطى محاسنه ضباب ، تخاف أن يكسل نديمه عن الوصول
إذا رأى ذلك ، وهو الحسن بن بسام :

ألا بادر فاثان سوى ما
ولا تكسل برؤيته ضباباً
فان الروض ملثم الى أن

وهل منكم من تغزل في غلام حائك بمثل قول الرصافي

قالوا وقد أكثروا في حبه عذلى
وقلت لو كان أمري في الصبابة لي
علقته حبيبتي الشجر عاطره
لو لم تهم بمئذال القدر مبتذل
لاخترت ذاك واكن ليس ذلك لي
حلو اللمى ساحر الاجفان والمقل

غزِيلٌ لم تزل في الغزل جائلةً بنانه جَوْلَانِ الفكر في الغزل
جذلان تلعب بالمحواك أمله على السدى لعب الايام بالاجل
ضماً بكفيه أو فصاً بأخمصه تحبُّط الظبي في أشراك محتبل
ومثل قوله في تغلب مسكة الظلام على خلوق الأصيل

وعشي رائق منظره قد قطعناه على صرف الشمول
وكان الشمس في اثنائه ألصقت بالارض خدلاً للنزول
والصبا ترفع أذيال الربى ومحيّا الجو كالنهر الصقيل
حبذا منزلنا مغتبقا حيث لا يطرفنا غير الهديل
وهل منكم من وصف غلاماً جميل الصورة راقصاً بمثل قول

ابن خروف

ومنزَع الحركات يلعب بالنهْي لبس المحاسن عند خلع لباسه
متأوداً كالغصن وسَطَ رياضه متلاعباً كالظبي عند كُنْاسه
بالعقل يلعب مدبراً أو مقبلاً كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
ويضمّ للقدمين منه رأسه كالسيف ضمّ ذبابه لرياسه

وهل منكم من وصف خالاً باحسن من قول النشار

ألوأى على كلّفى بجي متى من حبه أرجو سراحا
وبين الخد والشفتين خال كزنجبيّ أنى روضاً صباحاً
تخبر في جناه فليس يدري أيجنى الورد أم يجنى الاقاحا

وهل منكم الذي اهتدى الى معنى في ثم وردة الخد، ورشف رضاب
الشعر، لم يهتد اليه أحد غيره، وهو أبو الحسن بن سلام المالقي في قوله
لما ظفرت بليلة من وصله والصب غير الوصل لا يشفيه

أنضجت وردة خده بتنفسى وطفقت أرشف ماءها من فيه^(١)
 وهل منكم أعمى قال في ذهاب بصره ، وسواد شعره ، وهو الطليطل
 ما اشتفت منى الايام في وطني حتى تضايق فيما عن من وطري
 ولا قضت من سواد العين حاجتها حتى تكر على ما طل في الشعر
 وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولادة الروانية^(٢) ومثل زينب
 بنت زياد المؤدب التي تقول

ولما أبى الواشون الا فراقنا وما لهم عندي وعندك من نار
 وشتوا على أسماعنا كل غارة وقل حمانى عندذاك وأنصارى
 غزوتهمو من مقلتي وأدمعي ومن نفسى بالسيف والسييل والنار
 ثم قال الشقندي بعد كلام : وأنا أختم هذه القطع المتخيرة بقول
 أبي بكر ابن بقي ليكون اختتام مسكا

عاطيته والايمل بسحب ذيله صهبا كالمسك الفتيق لناشق
 وضممته ضم السكي سيفه وذو ابتاه جمائل في عاتقي
 حتى اذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئا وكان معانقي
 باعدته عن أضلع تشاقفه كيلا ينام على وساد خافق
 وقول الفاضل أبي حفص بن عمر القرطبي

همو نظروا لواحظها فهاموا وتشرب لب شاربها المدام
 يخاف الناس مقلتها سواها أيدعر قلب حامله الحسام
 سما طريف في اليها وهو باك وتحت الشمس ينسكب الغمام

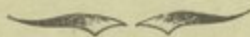
(١) حذفنا هنا جملة من كلام الشقندي لم نر لها اعمية

(٢) انشد لها بيتين لم نر لها قيمة

وأذكر قدها فأنوح وجداً على الأغصان تنتدب الحمامُ
وأعقب بينها في الصدر غما اذا غربت ذكاء أتى الظلام
وبقوله أيضاً

لهاردف تعلق في لطيف وذاك الردف لي ولها ظلومُ
يعذبني اذا فكرت فيه ويتعبها اذا همت تقومُ

تلك أيها القارىء، نفحة من الادب الاندلسي، رأينا أن نعهد بها
لدرس قصيدة ابن دراج الذي أوصاه أميره المنصور ابن أبي عامر بمعارضة
أبي نواس، كما ذكر ابن خلكان، وإنا نرجو أن يكون فيما اقتطفناه
تذكرة لطلاب الأدب، وتبصرة لعشاق البيان، فقد مضت عهود على
نهضة الشعر في مصر ولم نجد من الباحثين من قيد ما ابتكره شعراؤنا
في العصر الحديث من المعاني الجديدة، وما ابتدعوه من الصور الطريفة
مع حرصهم على أن يمثل الشعر اغراض الحياة، وأطباع العقول، وألوان
النفوس، وأهواء القلوب



البحث السابع والعشرون

(حياة ابن دراج)

كان أبو عمر احمد بن دراج القسطل المتوفي سنة ٤٢١ للهجرة من كبار الشعراء ، وكان بصقع الأندلس كالمثني بصقع الشام ، كما قال صاحب اليتيمة : وكان له ديوان شعر في جزأين ، كما ذكر صاحب وفيات الأعيان ، وكان يحيد النثر ، كما نص صاحب النخبة ، وليكن الزمان لم يترك لنا ما نعرف به صدق ما قاله في وصفه مؤرخو الآداب ، فقد ضاع ديوان شعره ، وضاعت رسائله البليغة ، ولم يبق من آثار فضله الا بقايا ضئيلة لا تكفي في الابانة عن منزلته في عالم البيان

ولنذكر أولاً ما قاله المؤرخون في وصفه ، ثم ننتقل الى وصف شعره وشعره ، بقدر ما تسمح به الشواهد والأمثال

قال ابن بسام في النخبة « كان أبو عمر القسطل في وقته لسان الجزيرة شاعراً وأولاً حين عد معاصريه من شعرائها المشهوره ، وآخر حامل لوائها ، وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها » به بدى ، ذكر الجليل وختم ، حل اسمه من الاماني محل الأنس ، وأحد من تضاءلت الاول عن جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق خطر ذكره ، وقد أجرى الثعالي طرفاً من أمره ، وأغرب بلُمع من شعره ، ثم قال « وانما ذكرته أنا وان كان من شعراء ابن أبي عامر لأنه تراخت أيامه ، وأغضى عنه حمامه ، حتى أخرجه المحن ، وسالت به تلك الفتن »

والقاري يرى في عبارة ابن بسام شيئاً من اللبس والغموض، وهذا يرجع الى سببين : أولهما أن كتاب الذخيرة مني بالمسخ والتحريف، ولا يزال الى الآن مخطوطاً يحده الباحث في دار الكتب المصرية، وثانيهما أن ابن بسام يؤثر السجع، والسجع قيد يضطر الكاتب الى التعثر، فتظهر في عباراته آثار الضعف والاضطراب

وقال أبو حيان « أبو عمر القسطلي سابق حلبة الشعراء العامرين وخاتمة محاسن أهل الاندلس أجمعين، كان ممن طوحت بهم تلك الفتنة الشنعاء، واضطرتّه الى النجعة، فاستقرأ ملوك الاندلس أجمعين، يهز كلاً بمدحه، ويستعينه على نكبتِه، وليس منهم من يصفى له، ولا يحفظ ما أضيع من حقه، وأرخص من عقله، وهو يخطبهم بقوله فيصمون عنه، الى أن أناخ بساحة المندرين يحيي أمير سر قسطة، فألقى عصا سيره عند ما بوأه، ورحب به وأوسع قراه، ولم يزل عنده وعند ابنه بعده »

وقال ابن فضل الله، كما ذكر صاحب معاهد التنصيص بعد ذكر قصيدة ابن دراج التي عارض بها أبا نواس :

« ومن وقف على هذه القصيدة وقصيدة أبي نواس عرف فضل قائلها على من تقدم، وشهد له بأنه سبق وان تأخر، وجزم بأن الرجال معادن، ولم يشك أن الخواطر موارد لا تنزح، وأن الأفكار مصابيح لا تطفأ، وأن الافهام مراء لا تتناهى صورها، وأن العقول سحاب لا ينفد مطرها، وعلم أن المعاني غير متناهية، والفضائل غير متواربة، وأن أم الليالي ولود، وأن الفضل في كل حين مشهود، وأن هذا الشاعر

في قصيدته هذه التي عارض بها أبانواس، لم يدع له عارضاً يستمطر، ولا
عارضه تذكر، وأنه لحقيق أن ينشد
واني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الأوائل
وكذلك كانوا يرون في ابن دراج شاعراً مفلحاً يبخل بمثله الزمان،
ولكن عدوان الحوادث على آثاره الأدبية حال بيننا وبين التثبت من
صدق ما حكم به المتقدمون

- شي، من نثره -

يغلب السجع في نثر ابن دراج، ويجد فيه القاري شيئاً من مستملح
التشبيه، ولانذكر القطعة الآتية على سبيل التمثيل:
«حاش لله أن أستشف المسيل قبل جمومه، وأستكره الدر قبل حفوله
أو أتعامى عن سراج المعذرة، وأغفل عن أدبي الباهر في نظرة الى
ميسرة . . . ولكن

ما ذا تقول لأفراخ بذى مرخ تحمر الحواصل لا ماء ولا شجر
ما أوضح العذر لي لو أنهم عذروا وأجل الصبر بي لو أنهم صبروا
لكنهم صغروا عن أزمة كبرت فما اعتذاري عن عذره الصغر
وقد قلبت لهم ظهر محن الامور، وميزت بين الميسور والمعسر،
فما وجدت أحسن بدءاً، ولا أحمداً عوداً، مما أذن الله لعباده الذين أعمرهم
أرضه، وسخر لهم بحره وبره، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه،
وحيث تتقلب في كرمك، وأين نأمن في حرمك، وحيث توحشنا
دعوتك، ولا تعد منا نعمتك، فمن ملكك الى ملكك، ومن يمينك
الى شمالك»

وفي كتاب الذخيرة عدة قطع على هذا الاسلوب، وإن كنت أرتاب
بما في ذلك الكتاب من التحريف

- شي، من شعره -

نعود فنذكر أن الدهر ضنّ علينا بآثار هذا الشاعر المجيد، فليرض
القاري، بما نختاره من تلك القصائد التي أثبتتها صاحب اليتيمة، أحسن الله
له الجزاء، وأنا لنستعيد قوله في لوعة الشوق

وحشية اللفظ هل يودّي قتيلاً كمو	دمي مضاعٌ وجاني ذاك عيناك
اني أراك بقتل النفس حاذقةً	قولي فديتك من بالقتل أوصاك
مالي وللبرق أستسقيه من ظمأ	هيهات لا ريّ إلا من ثناباك
لولا الضلوع لظل القلب نحوكو	ضعي بعيشك فوق القلب يمتاك
أصابتني لوعة الهجران ظالمّة	رحماك من لوعة الهجران رُحماك

ونستعيد قوله في وصف السفن تشقّ عُبَاب المحيط

اليك شحنةً الفلك هوى كأنها	وقد ذعرت عن مغرب الشمس غريان
على لجج خضر اذا هبت الصبا	ترامى بنا فيها تبيرٌ وشلانُ
وان سكنت عنا الرياح جرى بنا	زفير الى ذكر الاحبة حنانُ
يقُلن وموج البحر والهم والدجى	تموج بنا فيها عيونٌ وآذان
ألا هل الى الدنيا معادٌ وهل لنا	سوى البحر قبرٌ أو سوى الماء كفان
وهبنا رأينا معلم الارض هل لنا	من الارض مأوى أو من الانس عرفان
هوت أمهم ماذا هوت برجالهم	الى نازح الآفاق سفنٌ وأظمان
كواكب الا أن افلاك سيرها	زمامٌ ورحلٌ أو شراعٌ وسُكّانُ

وفي هذه القصيدة يقول في شكوى الزمان، وتوديع الأحاب

وان بلاداً أخرجتني لعاطل
سلاماً على الاخوان تسليم آيس
فلا مؤنس الا شهيق وزفرة
وما كان ذاك البين بين أحبة
وما أوجع ما يقول

فيا عجباً للصبر منا كأننا
مضى عيشهم بعدي وعيشي بعدهم
ومن مختار القصيد قوله

لك الله بالنصر العزيز كفيل
هو الفتح أما يومه فمجل
وآيات نصر ما تزال ولم تزل
سيوف تنير الحق أني انتضيتها
ألا في سبيل الله غزوك من غوى
لئن صدئت أبواب قوم بمكرهم
وان يحي فيهم مكرجالوت جدم
خفيف على ظهر الجواد اذا عدا
وجرداء لم تبخل يداها بغاية
لها من خوافي لقوة الجوارع
ويبيض ركن الشرك في كل منتأى
تمور دماء الكفر في شفراتها
واسمر ظمان الكعوب كأنما

وان زماناً خان عهدي خلوان
وسقياً لدهر كان لي فيه اخوان
ولا ساعد الا دموع وأجفان
ولكن قلوب فارقتهم ابدان

لهم غير من كناؤهم غير من كانوا
كأنني قد خنت الوفاء وقد خانوا

أجد مقام أم أجد رحيل
اليك واما صنعه فخريل
بهن عمايات الضلال تزول
وخيل يحول النصر حيث تجول
وضل به في التاكسين سبيل
فسيف الهدى في راحتك صقيل
فأحجار داود لديك موشول
ولكن على صدر الكعب ثقل
ولا كرها نحو الطعام بخيل
وكشحان من ظبي الفلا وتليل
فلولاً وما أزرى بهن فلول
وبرجع عنها الطرف وهو كليل
بهن الى شرب الدماء غليل

إذا ما هوى للطعن ايقنت انه بصرف الردى نحو النفوس رسول
وفيهما يقول

كتائب عز النصر في جنباتها وكل عزيز يعمته ذليل
يسير بها في البر والبحر قائد يسير عليه الخطب وهو جليل
إذا انشق ليل الحرب عن صبح وجهه فقد حان من يوم الضلال افول
وله قصيدة عينية بديمة نوهت بها الذخيرة ، ولكنها لم تسلم من
التحريف ، نختار منها قوله

فما تجاوزت قرن الليل معتسفا إلا وقرن رخيم الدل بارعة
تحيتي منه تقبيل ومعتنق يشدني غله فيه وجامعة
لم أخلع الدرع إلا حين شققة عن صفح صدري ما نحوى مدارعه
ولا توقيت سهما من لوحظه يذيب سيفي وفي قلبي موافقه
غصن تجرع أنداء الغمام فإ يطوق الدهر إلا وهو جازعه
يميس سكرأ وسكر الدل عاطفه وتارة واتهاء الوشي لاذعه
فبت تحت رواق الليل ثانيه والشوق ثالثا والوصل رابعة
والسحر يسحر من لفظ ينازعني والمسك يعبق من كأس انازعه
فيا ظلام نجوم الليل اذ حرمت بدر السماء وفي حجري مضاجعه
ويا حنين ظباء القفر اذ فقدت غزالهن وفي روى مراتمه

— رائية ابن دراج —

واشهر قصائد ابن دراج رائيته في مدح المنصور بن أبي عامر التي عارض
بها رائية أبي نواس في مدح الخصب ، وقد صن الدهر علينا ايضا
بهذه القصيدة ، فلم تبق منها إلا قطع مبعثرة هنا وهناك ، وقد راجعت

كل ما وصلت اليه من تاريخ الاندلس، وسألت كل من اعرف انه شغل
بتاريخ الادب في تلك البلاد، ثم لم اظفر بمطلع هذه القصيدة، وانما
يبدأون بقوله

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبور
ومن البعيد ان يكون هذا البيت هو المطلع، اذ يبعد ان لا يضع
الشاعر مقدمة لهذا الحوار

ولناخذ في الموازنة فنذكر ان قول ابي نواس

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز^ن علينا ان نراك تسير^ن
اما دون مصر للغني متطلب بلى ان اسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر^ن جرت فجرى من جريهن عير
دعيني اكثر حاسديك برحلة الى بلد فيه الخصيب امير

هذه القطعة دون قول ابن دراج

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى وان بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضمن^ن لراكبها ان الجزاء خطير^ن
نخوفني طول السفار وانه لتقيل كف العامري^ن سفير
ذريني أرد ماء المفاوز آجناً الى حيث ماء المسكرات نير^ن
وقد بلغ ابن دراج ذروة البلاغة، وبذا ابا نواس وبرعه، بقوله في

توديع زوجته ووليدته

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبري^ن منها انة وزفير^ن
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير^ن
عني^ن بمرجوع الخطاب ولحظة بموقع أهواء النفوس خبير

تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع مخفوفة ونحور
 عصيت شفيع النفس فيه وقادني رواح لتدآب السرى وبكور
 وطار جناح البين بي وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطير
 لئن ودعت مني غيوراً فاني على عزمي من شجوها لغيور
 ولا لوم على ابي نواس في أن خلت قصيدته من مثل هذا الموقف
 الحزين ، إذ لم يترك ببغداد زوجاً ينازعه اليها الوفاء ، ولا طفلاً تعطفه
 اليه نوازع الشوق ، ولو اعج الحنين

واحب ان لا يفوت القارى ، ترجيع هذا البيت
 تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهد مبغوم النداء صغير
 وكلمة « مبغوم النداء » كلمة مختارة بارعة المدلول ، وقوله
 عَيَّ بمرجوع الخطاب ولحظه بموقع اهواء النفوس خبير
 بيت نادر المثال ، وقوله

تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع مخفوفة ونحور
 من أرق ما صور به الحنان ، وما اوجع ما يقول
 عصيت شفيع النفس فيه وقادني رواح لتدآب السرى وبكور
 وطار جناح البين بي وهفت بها جوانح من ذعر الفراق تطير
 وانظر تصوير الحزم بقوله

لئن ودعت مني غيوراً فاني على عزمي من شجوها لغيور
 وقول ابي نواس

ولما أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها ان لا تزال مجير
 من القوم بسام كأن جبينه سنا الفجر يسري ضوؤه وينير

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى وفي السلم يزهو منبر وسرير
جواد إذا لا يدي كففن عن الندى ومن دون عورات النساء غيور
له سلف في الأعجمين كأنهم إذا استؤذنوا يوم السلام بدور

في هذه القطعة سلاسة وجلاء ، وهي أروع من قول ابن دراج

تلاقت عليه من تميم ويعرب شمس تلالا في العلى وبدور

من الحيريين الذين أكشفهم سحائب همى بالندى وبحور

هو صدقوا بالوحي حين أتاهم وما الناس إلا عابد وكفور

مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها ويرجع عنها الوهم وهو حسير

ألا كل مدح عن نداك مقهر وكل رجاء في سواك غرور

ونحن حين تقابل هذه القطعة بكلمة أبي نواس نرى التكلف ظاهرا

في أبيات ابن دراج ، وليتأمل القارئ قوله

مناقب يعيا الوصف عن كنه قدرها ويرجع عنها الوهم وهو حسير

فهو ظاهر الغلو ، واضمح التكلف ، أما قوله

هو صدقوا بالوحي حين أتاهم وما الناس إلا عابد وكفور

فهو بيت ضعيف

وقد وصف أبو نواس رحلته إلى مصر وصفا لا قيمة له ، أما ابن دراج

فقد أجاد الوصف حين قال

ولو شاهدتني والهواجر تلتظي علي ورقراق السراب يمور

أسلط حر الهاجرات إذا سطا على حر وجهي والأصيل هجير

وأستشق النكباء وهي لوافح واستمطى الرمضاء وهي تفور

وللموت في عين الجبان تلون وللذعر في سمع الجري صفير

ولو شاهدتني والشري جل عزمي
وأعتسف المومة في غسق الدجى
أميرته على غول التناثف ماله
وقد خيلت طرق المجرة أنها
ودارت نجوم القطب حتى كأنها
لقد أيقنت أن المنى طوع همتي
وهذا شعر جزل رصين ، ومن المخزن أن السياق يدلنا على أن
هذه القطعة الوصفية ضاع منها شيء كثير



وقد انفرد ابن دراج بالاجادة في وصف هيبة اللقاء حين قال
ولما تراءوا للسلام ورقت
وقد قام من زرق الأسنة دونه
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس
يقولون والأوجال تخرس السنن
لقد حاط اعلام الهدى بك حائط
عن الشمس في أفق الشروق ستور
صفوف ومن يبيض السيوف سطور
وآيات صنع الله كيف تنير
وقام بعبء الراسيات سرير
وحارت عيون منهمو وضور
وقدّر فيك المكرمات قدير



فهرس

صحيفة	صحيفة
١٧ أنفس الشعراء	البحث الأول
١٧ درس نفسية الشاعر	أهواء النقاد
١٧ نقد بيت لزهير	١ تمهيد
١٨ نقد مطلع بانث سعاد	٢ شخصية الناقد
١٨ رأي الجاحظ في سينية أبي نواس	٣ القديم والجديد
١٨ نقد صاحب المثل السائر	٤ الدفاع عن النوع
١٩ نقد بيت لابن الدمينية	٤ نقد السيدة سكينه
١٩ نقديت لأبي نواس	٨ أحكام الفقهاء
١٩ تأثير الادب القديم	٩ نقد المأمون
٢٠ نقد بيت لشوقي	البحث الثاني
٢٠ نقد بيت لحافظ	عود الى أهواء النقاد
٢٠ نقد رثاء مطران لصبري	١٠ تطير ابن الرومي
٢٠ نقد رثاء شوقي لمحمد تيمور	١١ عواطف الآباء
٢١ ابن الرومي وابن المعتز	٢ شعراء الأحزاب
٢٢ تأثير الحضارة والبداءة	١٣ نقد عبد الملك بن مروان
٢٢ وصف الرضاب	١٥ نقد الرشيد
٢٣ المتوكل وابن الجهم	البحث الثالث

صحيفة	صحيفة
٣٨ نقد منهج القدماء	٢٣ خلاصة البحث
٣٩ نقد مناهج المعاصرين	البحث الرابع
البحث السادس	شعراء الأحزاب
٤١ الحاسة الفنية	٢٤ ضياع شعر الأقلية
٤٢ السبيل الى كسب الذوق	٢٤ حملة الشريعة على الشعر
٤٣ أشعار الكتاب	٢٥ تشجيع النبي لحسان
٤٥ فهم الجمال	٢٦ شعراء اليهود
٤٦ إدراك البيان	٢٧ الحياة العقلية عند قريش
٤٧ نفوس الانبياء	٢٨ نقد من ظن الشعر من رقت القول
٤٨ خواص البيان المعقد	٢٨ شعر عبيد الله بن عبد الله
البحث السابع	ابن عتبة
٥٣ خطر الابهام والغموض	٢٩ هوان الشعر في أنفس الفقهاء
٥٣ وصف الناشئ للشعر الجميل	٢٩ ارتجاز النبي برجز ابن رواحة
٥٤ نقد بديع الزمان	٢٧ اشعار الخلفاء
٥٦ وصف أبي حاتم للشعراء	٣٠ شعراء العلويين والامويين
٥٧ نقد ذلك المنهج	٣٠ المتوكل وشاعر دير الرصافة
٥٧ خطأ النقاد المعاصرين	البحث الخامس
٥٨ ما يجب على الناقد	٣٢ نفسية الناقد
البحث الثامن	٣٣ موازنة الخاتمي بين البحترى
٦٠ الصور الشعرية	وابي تمام

صحيفة

صحيفة

٦٤ تنقل الشاعر من صورة الى صورة / ٨٩ التكرار في القرآن

٦٥ فضل الصورة الشعرية + ٧ ٩١ نماذج من الصور الشعرية في

القرآن

البحث التاسع

البحث الثاني عشر

٦٦ أهمية الصور الشعرية

٩٣ المعاني والاعراض

٦٦ صورة الصديق

٩٣ أهمية الالفاظ المختارة

٦٩ رثاء الخليفة

٩٤ أهمية الخيال الرائع

٧١ استعطاف الاحباب

٩٤ تمثيل الغرض

٧٣ وصف معركة

٩٥ وصف الليل الطويل

٧٤ ترديد الشاعر للمعنى الواحد

٩٦ رثاء أشجع لابن زياد

٧٦ وصف حسان

٩٦ تشعب الغرض

البحث العاشر

٩٨ وصف بديع الزمان للعلم

٧٦ اختلاف الصور الشعرية

٩٩ وصفه للقاضي الظالم

٧٩ الصورة الواحدة عند شاعرين

١٠٠ تمنى الرقاشي والحجاج

٧٩ وصف الحمامة الباكية

١٠١ نصيح أعرابي لاسماعيل بن عبد الملك

البحث الحادي عشر

البحث الثالث عشر

٨٢ الصور الشعرية في القرآن

٢٠٣ الحصري وشوقي

٨٢ موارد الامثال

١٠٣ حياة الحصري

٨٤ الموارد الخيالية في القرآن

٨٧ الاستعارة التمثيلية صورة المعنى ١٠٥ دالته

والصورة الشعرية مثال للغرض ١٠٦ دالية شوقي

صحيفة	صحيفة
البحث السادس عشر	١٠٧ الموازنة ✓
١٣٦ حنين شوقي الى مصر	١٠٨ مواطن الحسن
١٣٧ غربة محمد بك فريد	١١٢ مظان الضعف
١٣٨ النفس المصرية	١١٣ روعة الخيال ✓
١٣٩ السر في طغيان ملوك مصر	١١٤ البراعة في تناول المعاني ✕
١٣٩ وصف الجزيرة	١١٤ الحكم
١٤٠ مجد خوفو ورمسيس	البحث الرابع عشر ✓
١٤٠ وصف أبي الهول	١١٥ البحري وشوقي
١٤١ كلف الشعراء بالاساطير	١١٥ حياة البحري ✓
١٤٢ عنف الاقدار	١١٧ بداية حياته ✓
١٤٢ وقفة قصيرة	١١٨ اتصاله بأبي تمام ✓
١٤٣ بكاء النفس الانسانية	١٢٢ شخصية شوقي ✓
١٤٤ الاقتضاب في قصيدة البحري	١٢٤ وفاء البحري ✓
١٤٥ ظروف البحري وشوقي	البحث الخامس عشر ✓
١٤٧ نكتة عن لورد كرومر	١٢٧ بكاء الممالك عند البحري وشوقي
البحث السابع عشر	١٢٧ وصف القرآن للممالك البائدة
١٤٧ وصف البحري الايوان	١٢٨ تغني العرب بحضارتهم القديمة
٤٨ وصف شوقي لقصر الحمراء	١٣٠ ايوان كسرى
١٥٠ وصف البحري لصور الايوان	١٣١ نفسية البحري ✓
١٥١ وصف شوقي لرسوم الحمراء	١٣٢ نفسية شوقي ✓

صحيفة	صحيفة
١٥٢ أهال المسلمين لتصوير الحروب	١٧١ عقلية البوصيري
١٥٤ البحث الثامن عشر	١٧٢ نهج البردة وشارحه
١٥٤ الفصل بين البحري وشوقي	البحث العشرون
١٥٦ براعة البحري في وصف	١٧٤ البوصيري وشوقي والبارودي
الايوان	١٧٤ افتتاح الشعر بالنسيب
١٥٩ بكاء شوقي على أطلال الحمراء	١٧٥ تقليد البوصيري للأعراب
١٦٠ بكاؤه على ما كان فيها من	١٧٧ نقد مطلع البوصيري وشوقي
ملاعب الحسان	١٧٨ الموازنة بينهما في النسيب
١٦١ خروج العرب من الجنة	١٧٨ وصف شوقي للبحر العين
١٦٢ القوة فوق الحق	١٨٣ قصيدة البارودي
١٦٣ توديع الاندلس	١٨٥ ايثاره الاساليب القديمة
البحث التاسع عشر	البحث الحادي والعشرون
١٦٤ البوصيري وشوقي	١٨٦ أسلوب البارودي
١٦٤ حياة البوصيري	١٨٧ وصف الغار
١٨٥ تقده لموظفي الشرقية	١٨٨ تزوير عائشة لقصة الغار
١٦٧ شيء من لمبه وطموه	١٩٠ براعة البارودي في تصوير الغار
١٦٨ شكوى حاله الى احد الوزراء	١٩١ النظم في قصيد البارودي
١٦٩ قصيدة البردة والمدائح النبوية	١٩٣ سميكة يا رسول الله
١٧٠ سبب وضع هذه القصيدة	البحث الثاني والعشرون
١٧١ بدعة تكرار الصلاة على النبي	١٩٤ التخلص والاقتضاب

صحيفة	صحيفة
٢١٩ حكمة الجهاد	١٩٦ تخلص البوصيري
٢٢٠ المدنية الاسلامية	١٩٨ تخلص البارودي
البحث الخامس والعشرون	١٩٨ قيمة الاستطراد في أساليب
٢٢١ أبو نواس وابن دراج	الاقدمين
٢٢٢ قصيدة حسان بن نمير	٢٠٠ تخلص شوقي ✓
٢٢٢ قصيدة البارودي	البحث الثالث والعشرون
٢٢٤ اغراض قصيدة ابي نواس	٢٠٣ المعجزات
البحث السادس والعشرون	٢٠٣ نقرة القرآن من الخوارق
٢٢٣ نفحة من الادب الاندلسي	٢٠٤ القرآن هو المعجزة الباقية
البحث السابع والعشرون	٢٠٥ خرافة شق صدر النبي
٢٢٤ حياة ابن دراج	٢١٠ ما اقترن بالميلاد من الحوادث
٢٤٥ شئ من ثره	البحث الرابع والعشرون
٢٤٦ شئ من شعره	٢١١ وصف القرآن
٢٤٨ رائية ابن دراج	٢١٤ وصف الهيجاء

الْبَلَاءُ

حَبِيبُ اللَّهِ وَشَيْخُهُ

الْأَخْلَافُ عِنْدَ الْغُرَاةِ

أَبْنَاءُ الشَّعْرِ وَرُطَبُ الشَّعْرِ

فَلَا تَعْلَمُ الْعَقِيَّةُ

زَهْرُ الْأَرْبَابِ

إلآبي اسحق الحصري القيرواني

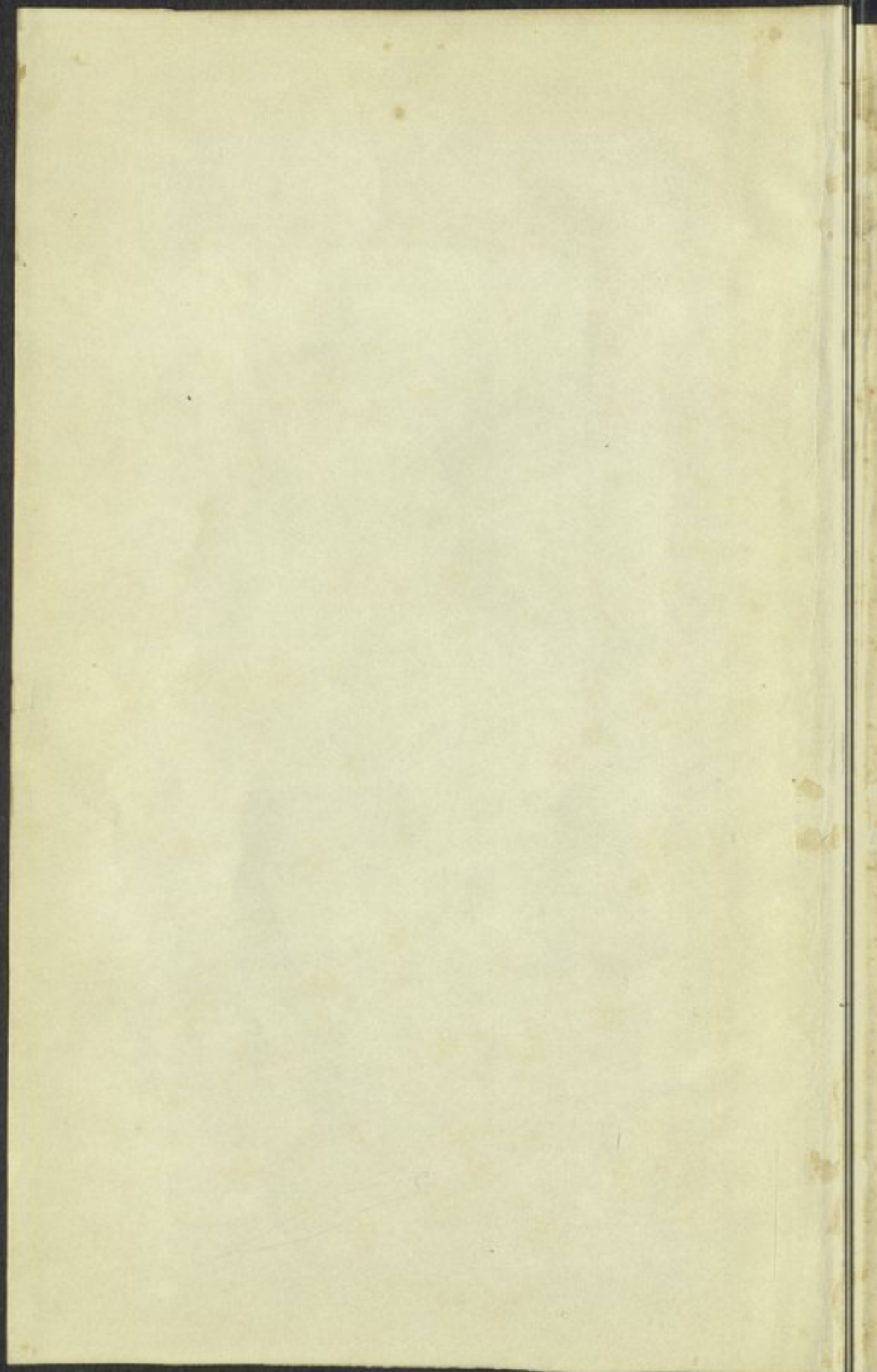
فَصْلٌ وَفُصُولٌ وَبُشْرُوعٌ

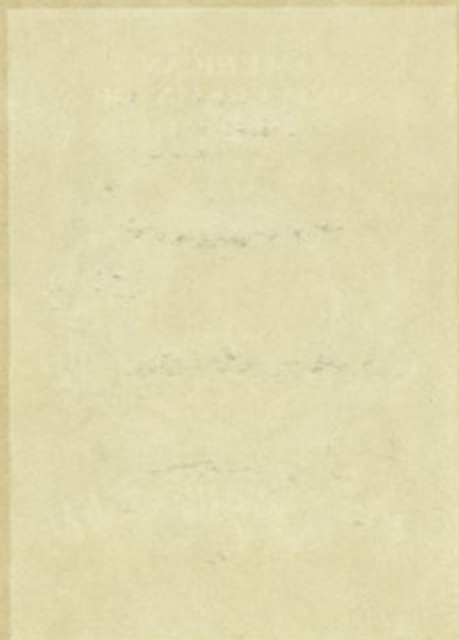
بقلم

الدُّكُوْرُزُّ كُمُزَارِكُ

كتاب ممتع في أربعة أجزاء ، وبه فهرس مفصل يمكن القاري من مراجعة ما فيه من مختلف التراجم ، والقصائد ، والرسائل ، والقطع المختارة ، والايات القيمة

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بالقاهرة





808.1:M94muA:c.1

مبارك، زكي

الموازنة بين الشعراء

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031178

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



808.1
M94 muA
C.1